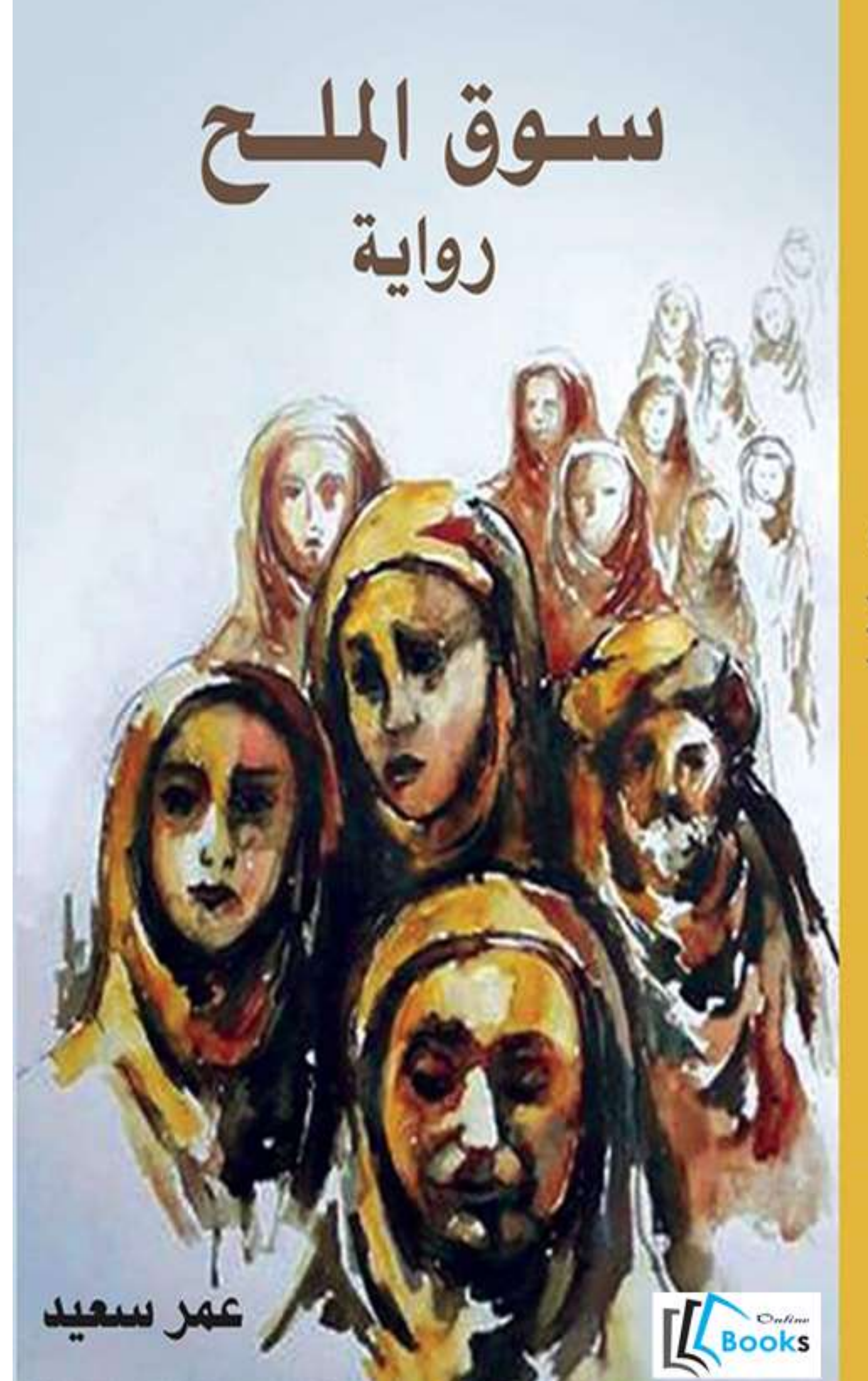


رواية
سوق الملح
عمر سعيد

الإهداء
إلى الذين سكنوا حقائب الفرار والهروب والتهجر والتشرد!

١٢-٤-٢٠٢٠

عمر سعيد

سوق الملح
روايـة

الطَّبْعـــــــــــةُ الأولي

أبريل ٢٠٢٠

الغلاف بريشة الفنانة ريتا كيروز

تصميم المهندس لؤي المرعبي

هاتف : ٠٠٩٦١٧٦٦٨٣٨٣١

Email: Zorba.chebli@gmail.com





عمر سعيد

سوق الملح

رواية

" يا علي، الوطن ليس قبيلة تدرج رقمك على لائحة أفرادها في النائبات، ولا طائفة تغذيك باسمها لتتضح كرها للآخرين، ولا رمزاً يعلو أسطح المباني ليوجهك صوب العزلة.. الوطن مساحة من الأمل والحب، والجراح والآلام، تجعلك مشدودًا لوجوه كالحة، تركت فوقها عوامل القهر ملامحا تجعلك تنتمي إليها قبل أن تغوص تحت جلدها أو خلف عيونها، ودون أن تأبه لتاريخها أو أية وجهة تقصد".

كان هذا آخر ما دونه علي في دفتر مذكراته بعد أن أصغى لأبيه ساعات طوال وهو يوصيه أثناء استعداده للذهاب إلى المطار، حيث سيركب الطائرة التي ستقله إلى أستراليا ليتم دراسته الجامعية فيها، ثم نظر إلى عيني أبيه اللتين أزهر القطن عند طرفيهما لكثرة ما داهما البكاء، تلك العيون التي شاهدت خلال السبعين التي عاشتها أهوالاً، وثقوباً بيضاء، وليالٍ حالكة ؛ تزيد بتناقضاتها عما يمكن لمئات القلوب من احتماله في أعمار أصحابها.. تلك العيون التي شهدت ترميم بيته الصفيحي لأكثر من مئة مرة، ذلك الكوخ الذي ظل يتراجع أمام مخططات التطوير الحضري عشرات المرات ليبقى على حافة المدينة دون أن يدخل في جوفها، فكلما دنت المدينة منه، أبعده عنها مشروع التطوير الحضري، وطرده بعيداً في جوف الصحراء..

ناوله كيساً ؛ صرّ بداخله كل النقود التي حوشها قرشاً بعد آخر من ليال العمل في القصور كواحد من صبابي القهوة على الطلب، ولَكَمْ عُرِض عليه الالتحاق بالعمل داخل قصر بشكل دائم، إلا أنه فضل العمل لحسابه وعلى الطلب، لأن ذلك أقصى ما يمكن أن يملكه من حرية القرار الشخصي.

" يا علي لكم حققت أحلاماً في خيالك الذي كنت كل ليلة تحدث فيه ثقباً على الغد، فتبني بيوتاً، وتلون جدرانها، وتفتح نوافذها على حدائق الجارات، وتصب الماء على طلاء سياراتك التي أوقفتها على رصيف المنزل ليبهر لمعانها عيون المارة، وتغفو على شقشقة العصافير في نخيل رَفَعتَه عالياً ليحاذي شرفتك، ثم تستيقظ صباحاً على صوت المؤذن في مسجد الصفيح الذي جمعتم ألواحه بأكفكم من أكوام النفايات التي لامست حدود حيكم العفن هذا، فتغسل وجهك وتخرج متكئاً على صبرك لصلاة الفجر، وأنت توزع على الذين تلقاهم حزم الصبر والثقة بإله لا زال ؛ سكان حيك هذا يثقون به رغم كل اخفاقاته أمام أدعيتهم."

كل هذا وأكثر منه راح ينزّ من تشققات جمجمته، وهو يتناول الكيس من قبضة أبيه التي أفلتت عنه، دون أن تفلت عن الأمل بعلي، فثارت في روحه عواصف اللوعة ورياح القهر، وتمنى لو أنه يستطيع رد الكيس ويعيد إطباق أصابع أبيه عليه، لكنه مضطر إلى محاولة اللحاق بغده. وراح يتذكر سنواته الأولى في المدرسة، وكمّ اللهاث الذي أنفقه والده جرياً عند النافذين

في وزراة التربية، ليغطي عدم حيازته على أوراقٍ ثبوتيةٍ، ثم كيف نصحه أحد المطلعين بضرورة إيقافه عن الدراسة ؛ خاصة وأنه بات قادراً على القراءة والكتابة، وهذا يكفيه لمواجهة حاجاته في الحياة، ونام الأب ليلته تلك وقد احتضنه على بساط من جمار القلق وكلما بردت جمرة تحته، واطمئن؛ ليتقلب، عاجلته أخرى بلسعاتها التي كانت تكوي روحه وأحلامه قبل جلده. حتى اضطر لترك الفراش، والنهوض والتوضؤ والاستغراق في صلاة، يعجز عن إنهائها ؛ قبل أن يأذن الله بإخراجه من هذه المحنة، إلى أن كان مساء الخميس، أثناء خدمته في أحد القصور، إذ لاحظ عليه صاحب القصر ملامح القلق والهم، فناداه وسأله عن سبب تزاحم خطوط جبينه، وهو الذي اعتاد أن يراه فارداً لأساريره، يقبل على خدمة الناس بوجهه المشرئب بشاشة؟ فما كان منه إلى أن نفرت من عينه دمعة، جعلت الرجل يصر على معرفة السر الذي خلف هذا الدمع، وألح وكان له ما أراد، فروى له الأب قصة ولده علي المتفوق دراسياً، وعدم حيازته على أوراق ثبوتية، وكيف ينصحه المدير بأن يوقفه عن الدراسة.

ولأن الرجل كان من ذوي النفوذ في وزارة الداخلية ؛ استحصل له على خطاب يسمح له بتلقي التعليم حتى المرحلة المتوسطة، دون العودة إلى أوراق ثبوتية، على أن يعود لمعالجة وضعه في حينها. ورد أبو علي جميل

هذا الرجل بليال من السهر على خدمته وخدمة ضيوفه وترتيب ما يلزم لمناسباته كافة.

أترى يا علي كيف عَدَتْ سنوات الدَّين ليحلَّ موعد السداد، وكيف تجاوزت المرحلة المتوسطة وفي جنباتك آلاف الأشواك التي لم يسلم منها جلدك الهزيل، وأنت الذي كنت لحظ التعب في عظم أبيك ووجهه، فكنت تتعمد النهوض عن الطعام دون أن تشبع، تاركاً لإخوتك حصتك، فيمر طرف أبيك الدامع عليك، دون أن يكف قلبه عن الدعاء لك بالفرج. ولكم عدتَ يا علي إلى البيت مكسور القلب بعد أن رفضوك في برامج الموهوبين، وفي مسابقات عديدة لعدم حيازتك أوراقاً ثبوتية. تنزوي خلف صناديق تحتل زاوية من زوايا بيتكم الصفائحي، تبكي وتنتحب وأنت تعرف أنك لا تملك من أمرك حلاً حتى كانت المصيبة الكبرى، فقد بدأ العام الدراسي للمرحلة الثانوية، وأنت لا زلت تبحث عن حل لتجاوز قضية الأوراق التي باتت في ظهرك كسنام الجمل، لا تحيا بدونه، ولا تطيق حمله، حتى بلغ الامر بك العزوف عن الكلام، وتحويله إلى شفرات الموسى تحز بها جوانب قلبك، وتقتلك بصمت، فيسيل دمك وروحك على جدران مخيلتك التي لا تنفك ؛ تحلم باللحاق بغدك الذي يؤذيك تجاهله. ولأنك تعلقت بحلمك ؛ كما يتعلق المشرف على الغرق بتخبط كفيه الجاهلة للسباحة طلباً للنجاة، هيأت لك الظروف حلاً كلفك اتِباعه أكثر مما كنت تتوقع وأنت الذي تسير على جمار

شوقك متخذاً من العلم محاولة للخلاص من الانهيارات التي شهدتها قبيلتك عبر التاريخ .

****

يا علي أخشى عليك من الصمت، وأنت مليء بالألم والحب فكيف يمكن لمثلك أن يصمت؟!

كان لعلي أخت قد تزوجت من ابن عم لها، يحمل أوراقاً ثبوتية، وقد أنجبت تلك الأخت طفلاً معاقاً يصغر علياً بأشهر قليلة، سمحت قوانين وزارة التربية بدمجه بين طلاب مدرسة، ظل رغم غياباته المتكررة عنها يُرفّع الصّف تلو الآخر، حتى أفضت الأيام إلى عدم تحسن وضعه الصحي، فبعد أن بلغ سن الخامسة عشر، تدهورت صحته كلياً، ونفذ زيت الحياة من قعر جسده، ليغادر تاركاً لقلب أمّه حرقة البحث عما يمكن أن يطفىء نارها على فراقه، فما كان منها، إلا أن طلبت من زوجها ؛ أن يتغاضى عن اتمام ملف وفاة ولده في الدوائر الحكومية، وقد ادعت أنها تريد أن تحتفظ بذكراه حياً ما استطاعت. ثم ذهبت إلى علي وناولته أوراق ابن اخته الثبوتية، وشدت على يده، ليتم تعليمه بأوراق لو جيز له أن يتخرج بها ستعود كل انجازاته العلمية لآخر ميت، آثر عدم التخلي عن حصته في الحياة وهو المعاق الذي لم يقدم لها، ولا لمن حوله غير المعاناة والألم، ولأن علياً لم يكن يملك حلاً غير ذلك، وافق على الولوج من هذا الشق إلى غده، غير آبه بما قد يخسر، فهو في كل الأحوال لا يملك شيئاً، ولن يخسر شيئاً، إن ركب جناح هذه المغامرة، فالبراق الذي حمل نبي الأمة، قد اختلف المؤمنون

على كونه حقيقة أم حلماً، وما ضير أن يستفيق على حلم، في حال فشل الموضوع في نهاية المطاف.

لكن سوء الحظ لم يرض التخلي عن اللحاق بك يا علي، وكان لا بد أن تتكشف الأمور وتعود إلى دائرة القلق، التي كلما قفزت فوق حدودها، اكتشفت أنك أشبه بعصفور، رُبِطت ساقه بخيط خفيف، يسمح له بالتحليق إلى الحد الذي يجعله ينسى أنه موثوق، فينفر من وقوفه بحماس، لكن الخيط يشده؛ ليسقطه مضرجاً بالخيبة والاحباط، ويضعه على نافذة، تذكر أن لا مفر.

كان اسمك الجديد على لا ئحة الشرف في متفوقي امتحانات الشهادة الثانوية في وزارة المعارف لذلك العام، وشاءت الصدف، أن يكون أحد المشرفين على المنح الدراسية التي تقدمها الدولة للمتفوقين، صديقا لزوج اختك التي هي أمك في الوقت نفسه، فرفع الهاتف، واتصل به مهنئاً بولده؛ الذي حقق المركز الأول على مستوى الدولة، وأنه استحق منحة لدراسة الطب في استراليا...

وكم كانت حيرة زوج أختك قاسيةً وهو يحاول أن يصمت ويجيب على عبارات التهنئة، ويفتش عن حقيقة ما يحصل، ثم يمسح دموعه على ولده؛ الذي كان يحز غلاف قلبه بسكين اللوعة كل صباح ومساء، وهو على قيد الحياة، وما كاد يشفى من عذاباته التي تحملها بعد موته، حتى أطل هذا الخبر، لتنهار عليه كل الذكريات دفعة واحدة ودون أية فرصة للاستعداد.

عاد الرجل إلى بيته؛ يحمل بين يديه حلوى الضيافة وفي قلبه ألف وجع، كان بغنى عنه بعد كل هذه السنين، وفي عقله محاولات فاشلة لترتيب جمل الحوار والتساؤل؛ التي سيستوضح بها من زوجته عن الالتباس الذي يعجز عن فهمه حتى اللحظة، لأن الصديق المهنئ، قد أصر على زيارته للمباركة بحضوره شخصياً، وليخبره عن كيفية إتمام كل الاجراءات اللازمة للمنحة الدراسية.

يا علي، ستظل بقع الطين عالقة في قدميك من أزقة الحي الصفائحي، وتظل روائحها النتنة تشدك إلى ماضيك؛ مهما ابتعدت، وأينما انتقلت بك الأقدار، وستظل أصوات المعلمين الذين كانوا يقرّعونك كلما دخلت بهو المدرسة، وشسع نعليك يوشم أرضه بالوحول والأوساخ، حتى بلغ الأمر ببعضهم أن يطالبك بخلعه وتركه بجانب الجدار خارج المدرسة والدخول إلى المبنى حافي القدمين، معرضينك لسخريات الطلاب، وتهكماتهم؛ التي جعلت من قلبك أشبه بتلك الدائرة؛ التي اعتادت على قذف السهام في غرف المدراء الباحثين عن قتل الرتابة واستعادة النشاط والتركيز.

توقف زوج أختك أمام الباب وقد دنا بالمفتاح من ترباسه، وراح يتنفس بهدوء باحثاً عن الملامح التي كانت على وجهه حين غادر المنزل صباحاً، فهو حريص على أن يجنب زوجته أية ذكرى عن ولدها قد تهز وجدانها. ثم أدار المفتاح، وخطا في عمق المدخل، يحاول أن يكون عادياً في تصرفاته،

وضع الأغراض التي بيده على الطاولة، ثم توجه إلى المغسلة ليتوضأ لصلاة العصر، مخمنًا في ذهنه أن أختك يا علي، ستتقدم من الأغراض، وأول ما سيلفت انتباهها وجود الحلوى في البيت، بعد اختفائها لزمن طويل.. وسألته بإشارات من عينيها ووجهها حين عاد؛ يمسح الماء عن جبينه بالمنشفة، فأجابها دون أن ينظر في وجهها، أو أن يرتبك :

– لقد نجح نواف بتفوق في الشهادة الثانوية ..

يا علي ليس سهلاً أن تكون فرع إنسان، يسهل قصه دون أن يصاب الجذع بأي ضرر، وإن تحيا على هامش الإنسان، والحياة ليست مسألة يحسن التفكر فيها أو البحث عن حلول مؤقتة لها، تأتي الحياة لمجرد حاجة جسدية لشخصين، لم يعنِهما كل ما أنت فيه الآن، وها أنت تعوم طوال حياتك على سطح الحي الصفائحي؛ محاولاً بلوغ الشط ؛ دون أن تجد ماء لتستحم فيه.

لو أنكَ كنتَ فتاة شرقية يا علي؛ لكان الحال أهون عليك، فمن أفضل ميزات الشرقيات، أنهن يمتلكن موهبة الرضوخ والانكفاء، ويرتضين العيش داخل ذراعين من القماش الأسود.. فيما تظل أنت تخيط الثياب، وتعيد تفصيلها لتناسب مقاس حلمك، فترتدي مرة بشتاً أسود، وأخرى عسلياً، وتخلع عن كتفيك رداء الطبيب، لتنظر إلى الرتبة العسكرية فوق كتفيك، ثم تتسلل خلسة إلى داخل بزة رائد الفضاء التي توقفت أمامها لساعات في المعرض العلمي، تتفحص أجزاءها، وترتديها في مخيلتك، وتتخيل أنك أمام تلك المرآة الضخمة

في ذاك القصر؛ الذي دخلته خلسة مع أبيك، وخبأتك الخادمة في غرفتها إلى أن شق آذان الفجر صدر السماء، بعد أن رافقتك بجولة في معظم أجنحته ، دون أن تجد المناسب لك أو لحلمك المتناهي عنك بعداً.

ودون أي تردد، غصت أختك بالبكاء، وسارعت إلى الهاتف تبارك لك، وتعيش معك عبر الهاتف حلم أنها تبارك لنواف؛ الذي ما عرف قط المدرسة في حياته التي قضاها مسمراً إلى فراش الإعاقة ولا عرف الهاتف.. فتوقظ فيك ألف لوعة وشعور بالخيانة لنفسك، وهي تقول لك : " الف مبروك حبيبي نواف "، فتسيل الحرقة في جوفك سيلان المياه المتعفنة بين البيوت في حيكم الصفيحي، والفرق أنك في الحي تتمكن من رفع ثوبك حتى لا يتلوث بما سال، ولكن مالذي يمكنك رفعه؛ لتنأى بنفسك عن لوثة التيه والضياع؛ التي أيقظها فيك صوتها، وهي تلفظ اسم نواف.

فما فائدة هذا الجري، واللهاث خلف طموح، أو نجاح، سيظل طوال حياتك مسماراً في باطن قدميك، يذكرك بعدم الجدوى، كلما كتبت الصحف، وتحدثت الألسن، وهتفت الأصوات فرحاً بانجازات نواف، وأنت تقف عاجزاً عن التصفيق له، أو لنفسك، وتظل يشدك حبل سرتك إلى بيتك في الحي الصفيحي، وإلى ذكرياتك السوداء؛ التي لا زلت تنشرها على كل حبال الخوف والقلق والعبث؛ الذي لن يغير أي نجاح تقدمه باسم نواف لبلد لا يعرفك بغير أنك من ال بدون..

خرج علي من البيت؛ يحمل في عينيه كل تفاصيل أقاربه الصغار الذين يجهلون الحقيقة، ويعيشون حلم عودة علي الطبيب من استراليا، ليقدم لهم نموذجاً؛ يشكل فرصة لكل حالم فيهم. كان الوقت قبيل الفجر، حين راح يسير محاولاً أن يخزن أكبر قدر من الصور التي تلتقطها عيناه للمصابيح التي راح ينبت نورها داخل النوافذ والشقوق في الحي الصفيحي. ويعيد التقاط ذكرياته أثناء سيره من هنا وهناك ويعبئها في رأسه وقلبه وروحه وجيوبه، يسير أبوه خلفه، يلحقه بقلبه، يدعو له ويترضى عليه، ويذكره من حين لآخر بالصلاة، بالتنبه لجواز سفره، والمال الذي صره في الكيس، ويؤكد عليه أنه سيرسل له، ما يحتاج من نقود، وكل ما عليه فعله هو أن يركز على دراسته، ويتجنب الرسوب؛ لأنه سيكون مكلفاً جداً وللجميع ماديًا ونفسيًا.

عند مدخل الزقاق، كانت سيارة عبيد التي يملكها، ويخشى السير بها نهارًا، كونه لا يملك أية أوراق تثبت هويته، ولا ملكيته للسيارة، وسيخسرها في حال تم إيقافه عند أي حاجز أمني، ولن يتمكن من المطالبة بها، بل سينصرف إلى بيته ماشيًا على قدميه؛ كما لو أنه لم يكن يملك سيارة من قبل.. وحين يصل إلى الحي لن يسأله أحد عنها، أو يبحث عنها حتى في عينيه، فألفُ قصة مثل هذه القصة حصلت لألف من أخوانه الذين يقطنون المجهول في هذا الركام الصفيحي، ولكنها البكور، فيها من الخير والفلاح الكثير، فأنزلك عبيد، وحاول أن ينزل معك، لكن طبيعة أبيك الحساسة،

جعلته يكسر لهفة انتظارك لتغيب في أحشاء المطار، وألح على عبيد بالمغادرة، قبل شروق الشمس، لأن أعين الشرطة لا زالت في غفوة الصباح، وليس أبوك الذي يحتمل عدم رد الجميل فيما لو صودرت سيارته، لذا ألح في رجاءاته على عبيد كي يغادر باحة بوابة المغادرين في المطار قبل أن يحصل ما لا تحمد عقباه، خاصة وأن عبيد له ملامح تجعل القاصي والداني، يميز أنه من ال بدون.

عبرتَ يا علي المركز الأمني الأخير في المطار، وقد دوتْ في أذنك طبعة خاتم المغادرة فوق إحدى صفحات جوازك، ورحتَ تنهي مراسم التفتيش التي سمعت الكثير من القصص حول تعقيداتها، فأعادك رجل التفتيش للعبور ثانية بعد أن صدر عن جهاز التفتيش الآلي صوت، جعلك تعرف أن سببه كان ساعة في يدك أهدتكها أمك؛ التي لن يفارق كفك ملمس كفها، ولن يمر بوجهك منه أعذب من أنفاس ذكراها، فخلعتها ووضعتها في صندوق خشبي صغير لتعبر وحيدة في كهف التفتيش الذي يمسح الأشياء ضوئيا، وبقيت أنت تمسح بمخيلة روحك لحظات الوادع الأخيرة، وعبرت أنت بعد أن أكد القوس الحديدي أنك شخص آمن، يمكن تركك تتمشى بين كل الذين عبروا من تحته أمثالك.

وعبرت معك أشياء كثيرة وكثيفة، لا تعد ولا تحصى من تلك التي لا يمكن لأي بشر أو اختراع أن يخلعها عنا، وراحت تتراقص بين عينيك ومخيلتك دموع، لا يدركها إلا من خبر تجربة الانسلاخ لأول مرة.

ومر الوقت وها أنت بين السماء والأرض، في جوف حوت فضائي، يحملك كبراق نبيك، إلى سدرات تدنيك من إلهك الذي تعشقه، إله المعرفة والحرية في السير قدماً نحو الخلاص.

****

لطالما لمنا الحصان، كلما خسرنا السباق.

علينا أن ندرك أننا جميعا ضعفاء، وأن الضعيف لا يحميه إلا الحب. فالفرق بين أن تقاتل، وأن تحب، أنك في القتال تحتاج لقائد يدفعك إلى الموت، فيما أنك تحتاج في الحب إلى قيادة نفسك في عمق الحياة!

عندما تزوج ماجد، من ابنة عمه التي تشترك معه في التيه، واللا انتماء، استفاق ذات صباح على صوتها وهي تقعي عند باب غرفة الصفيح التي شيداها معاً، وقد عاونهما في ذلك أهلهما وأقاربهما، وعدد من الأصحاب، لم يقم الجميع بذلك تخفيفاً لأعباء كلفتها، بل لأنه كان من المفترض أن ينتهي البناء منها قبل بزوع الفجر، لأن القانون يمنع أن تتوالد بيوت الصفيح، وتتكاثر كأطفال الزنا تحت جنح الخفاء والظلام، كي لا يلوث تكاثرها جنائن القصور.

رفع الغطاء عن رأسه، وراح يراقبها وهي تقبض على بطنها، وتغطي وجهها صفرة، لم تؤلف عليه من قبل، فتبسم لها، وهو يبشرها : " عسى الله يحقق اللي في بالي ". فاستدارت، وهي تمسح فمها بردن عباءتها، وقد أرعبها، أن تشهر بما لا مفر منه، وقالت :

- ولكن علينا، أن نثبت الزواج ونحصل على عقد، تحسباً لوقت الولادة !

فتقطب جبينه، وشعر بالاحباط، وردد بهدوء :

- هذا يعني أن علينا أن نرفع على نفسينا دعوى زنى!

وارتعدت فرائصها، فهي التي عاشت كل ما فات من السنوات، تحافظ على عفتها وبكارتها، وفقاً لعادات وشريعة هويتها المحجوبة، رضيت بقالبها، دون أي نقاش أو اعتراض، وغدا عليها أن تقف أمام قاض، وتقر بأنها ارتكبت فعل الزنا مع زوجها، الذي أحبته منذ أن كانا يلعبان حافيين معًا في أزقة الطين هذه، وبالرغم من أنها لم تدخل المدرسة، ولم تمسك بالقلم، وبالرغم من جهلها كل قصص الحب التي تحدثت عنها الروايات المحلية والعالمية، إلا أنها عرفت معنى الحب، وعرفت كيف تعبر عنه بطريقة تبهر فيها كل الذين عرفوها، فقد كانت تتقن الرسم بالحناء، وخاصة أنها كانت تمتلك خلطة خاصة، تحضرها سراً في خلوتها، تجعل لونها يتميز عن كافة الألوان التي عرفتها أكف أيدي النساء وأقدامهن، الأمر الذي جعلها، تُطلَبُ إلى تلك القصور التي تمنت كثيراً، لو أن والدها يسمح لها أن تراها من الداخل، فتتعرف إلى نسائها وترى كيف يعشن، وما يملكن من صناديق؛ تلك التي لا تشبه صندوقها الخشبي البسيط، ولكم استحضرت بمخيلتها حبيبها ماجد الذي اضطر عندما بلغا سن الزواج، أن يمر بجانبها لسنوات دون أن يلتفت صوبها، أو أن يخطف قلبها بنظرة، كانت تحس النار في أنفاسه وقد تصاعدت حدتها، وازدادت سرعة شهيقه وزفيره، وكم رسمت على أكف

الصبايا في حيها، وهي على ثقة أن ماجداً سيرى واحدة من هذه الرسوم على الأقل، وسيسمع من نساء الحي قصصاً عن إحساسها، ورقتها، وملامحها، وهي ترسم، وتردد سأجعل رسمتك أجمل من كل ما رسمته من قبل، لأجل خاطر الأسمر الذي مررتِ بباب بيته وأنت في طريقك إلي! وتصل كل قصصها أثناء الرسم لماجد، الذي كان يطوي الوقت في قراءة ما يقع بين كفيه من كتب، كما لو أنه يقرأ عن نفسه، وعن حبيبته الجوهرة التي لن ينسى قولها، حين كانا يلعبان معا في طفولتهما : " ليتني أتعلم القراءة ". وها هي اليوم، تضطر لقبول الاتهام بالزنا ولو كان مجرد كلام فوق الورق، ترضخ لتشويه تاريخها بتلك العبارة بغية الحصول على عقد زواج، يسمح لها بدخول المشفى للانجاب، دون أن يمنح هذا العقد ابنها هوية تمكنه من العيش حرًا، خارج أسوار هذا الحي الصفيحي الذي تولد خلفه كل يوم عشرات القصص والآهات والآلام والآمال، دون أن يستطيع أحد أن يقدر متى سيطاح بهذا السور، وسيخرج من خلفه جيل جديد، يعرف طعماً آخر للحياة غير الطعم الذي لمحه في أكف أبائه، وعيونهم، وأصواتهم، وصدورهم.

وأحست أن الكون قد ضاق تحت جلدها، وقد بدأت نجومه وكواكبه تختفي، ليتحول إلى ظلام مبك، أمام هذا المشهد المليء بالعدمية واللاجدوى، فهذه هي الحرب، التي يعيشها هؤلاء الضعفاء، يقدمون اليوم

حياتهم باللا جدوى، للبرد، والعراء، والخوف، والحرمان، والقفار التي أقبح ما فيها أنها قبور بلا شواهد، لا يبقى منها أثار سوى ملمح تلك المسافات الفارغة، تحمل في جوفها ريحا أقلت على أجنحتها بكاء وعويل آلاف من الذين ما دخلوها عميقاً، ولا عرفوا كيف يمكنهم؛ أن ينأوا بأنفسهم عنها.

غدا عليها أن تقصد مع زوجها، وحلم حياتها، وحبيبها الوحيد، أقرب مركز للشرطة، لتسأل عن الضابط المناوب، وتقوم لديه بتسجيل محضر زنى، ليجد الضابط في ذلك فرصة، ليطلب التحقيق معها على انفراد، وينهال عليها بسيل من الأسئلة المشحونة بالشهوة، والرغبات الجامحة، وعليها أن تجيب عن كافة أسئلته، وتجيب عن أدق التفاصيل التي سيسأل عنها، كيف حصلت واقعة الزنا؟ وكيف استطاعت تدبر أمر المكان؟ والزمان؟ والملابس؟ وولوج العضو الذكري فيها؟ ومسيل الدماء وو..؟ وراحت تتخيل كل ما سيلسع روحها النقية كالمبضع، ما جعلها تنهار، وترتمي أرضاً، فهب ماجد مرعوبًا من فراشه، ينادي :

- جوهرة ؟ جوهرة ؟ ردي علي ؟

ويبحث عن كوب ماء ليرش وجهها به، ويحاول الخروج برأسه من الباب، طالبا المساعدة، لولا أن تحركت، وهمست طالبة منه أن يعيدها إلى الفراش. حملها بين يديه، ومددها في الفراش الذي هو غرفة النوم في الوقت نفسه، والكنبة، والمقعد، وطاولة الطعام، ووسد رأسها ذراعه، وهو يردد :

- الله كريم، لا بد ربك يفرجها. بعد معانا وقت.

لكنه وجد نفسه فجأة أمام الواقعة الصادمة دفعة واحدة، فإلى أي مشفى يمكنه نقلها فيما لو مرضت، وأي طبيب سيقبل أن يكشف عليها مجانًا، وأية صيدلية يمكنها أن تمنحها الدواء دون وصفة طبية ؟ فكل الجهود التي سيبذلها لانقاذها في أي طارىء صحي لا قيمة لها بتاتًا إذا لم تكن هناك قصاصة ورق تثبت زواجهما ؟ وتذكر مقولة كان يرددها رويضان ذلك المجنون الذي كان لماجد من العمر تسع سنوات حين مات عن أربعين ونيف، " لطالما لمنا الحصان كلما خسرنا السباق"، كان يرددها أثناء عبوره أزقة الحي، وقد أدرك بعد أن غاصت السنون في جسده الذي كبر ليفهم معاني التعب والتجارب القاسية في الحياة، فرويضان هذا أحب ابنة عمه شقيق أبيه، وأحبته لأكثر من عشر سنوات لوسامته، فقد كان طويلاً ممشوق القوام، أسمر حنطي البشرة كثيف الحاجبين، في وجنتيه غمازتين، تغور لو أن شفتيه افترت عن ابتسامة رقيقة، لتذيب ملامحه الناظرات إليه وقد التمع سواد عينيه.

تواعدا على الزواج، واتفقا على أن الزواج لن يكون قبل أن يحصل رويضان على الهوية، وكغيره أدرج اسمه في قائمة المتقدمين للحصول على الهوية، وبدأت رحلة انتظاره تفتك بالسنوات الواحدة تلو الأخرى، وكانت لابنة عمه شيماء من الأنوثة والجمال البدوي الكثير الذي جعل ذكرها على ألسن

النساء والرجال، الأمر الذي دفع كثيراً من الرجال لطلب يدها، وظلت هي ترفض كرمى لعين رويضان الذي راحت تضيق عليه الدنيا الخناق، فالعمر يتقدم، وفرصة الزواج بشيماء تنتكس، فكلما صدر مرسوم تجنيس؛ خلت قائمة الأسماء التي صدرت في الجرائد من اسمه، ولكم حاول وبحث عن وسيلة لدعم طلبه، ومنحه الأولية تارةً بانجاز أعمال تنوخ لها أعناق الجمال لواعديه، وطوراً بالمال الذي راح يستدينه من هنا وهناك على أمل أن الفرج قاب قوسين أو أدنى، إلى أن اكتشف أن أحد النافذين قد تعرف إلى عمه، وتقدم لطلب يد شيماء منه، وراح يغدق عليه بالمال والوعود وأنه سيستصدر له هوية ما إن يتم زواجهما، ويسرد على مسامعه ومسامع شيماء قصص المآسي والمعاناة التي يتجرعها الأبناء الذين يولدون من أبوين من البدون، فكيف له ولابنته أن يساهما في ارتكاب جرم انجاب أبناء لا سبيل أمامهم للحصول على هوية ؛ في الوقت الذي سيحصل الجميع عليها إن وافقت شيماء على الزواج منه ؟! ولم يكتف بذلك، بل تعداه إلى وضع اسم رويضان على قائمة سوداء، لا يسمح للمدرجة أسماؤهم فيها بالحصول على هوية وطنية بتاتًا.

وفوجئ رويضان يوم استدعاه عمه إلى بيته ليخبره بعد مقدمة طويلة من شرح احتمالات ما قد ينتج عن زواجهما قبل الحصول على هوية، ثم رجاه

أن يعفي شيماء من التزامها تجاهه، ثم نادى شيماء فدخلت ومدت يدها إلى رويضان بالهوية التي حصلت عليها، وجلست قبالة ابن عمها وهي تقول :

- أتمنى لك الخير، وأنت راجل شهم وألف بنية بالديرة تتمناك، وأنت تدري أن عمري صار كبير؛ ولو تأخرت بالزواج وانت ما حصلت على الهوية، ما ألقى اللي بيتزوجني بعدها، وأنا بصراحة ماني مضطرة أتزوج واحد من البدون، وأنجب منه عيال مالهم مستقبل ولا هوية ولا أعرف وش مصير عيالي بعد. فالله يوفقك ويسهل أمرك، وأتمنى أن تتمنى لي الخير مثل ما أتمناه لك.

بقي رويضان من آثار الصدمة صامتا لا يقوى على الكلام، يحدق فيها والدمع يسيل من عينيه دون إرادة منه، حتى غاب عن مسمعه ما تقوله أو يقوله عمه، ودخل في تيه لا يعرف كيف يخرج منه، وما أحس إلا بيد عمه تمسكه من ذراعه؛ وتودعه خارج البيت وتوصد الباب خلفه، وراح يسير في الزقاق عاجزاً عن فهم ما حصل، حتى بلغ منزلهم، دخل غرفته وأغلق الباب، وبقي فيها لسنوات حتى أضناه المرض، وتدهورت حالته، وصار يهذي، ويفقد السيطرة على أعصابه فيضرب أهله، إلى أن أدخلوه عن طريق أحد معارف أبيه مشفى الأمراض النفسية، ليقضي فيها ثلاث سنوات دون أن تتحسن حاله، ثم أعادوه ليظهر للناس في الحي مجنوناً؛ يجوب الأزقة، مرددًا عبارته التي حفظها الجميع عنه وجرت على الألسن بعد أن فتك فيه المرض

وأماته، ليدفنه أبوه في المقبرة التي تقوم شواهدها خلف الحي على بعد عدة كيلومترات في عمق الصحراء، وقد كتب على شاهد قبره : " لطالما لمنا الحصان؛ كلما خسرنا السباق "

****

من يملك الذهب دون الحب ، كمن يخزن الريح في معطفه المثقوب!

" نحن البشر طبقات من العبيد، يعلو بعضها فوق بعض، فالحاكم عبد لجهة ما، وخدمه عبيد له، وهم بدورهم يملكون عبيدهم الذين يستمتعون في استعبادنا في هذا الحي كل مساء، وأبي عبد عند واحد منهم، وأنا عبد عند أبي ، وهي ستصبح عبدة عندي، وتستمر حياتنا في العبودية إلى مالا نهاية"

عبارات كان يرددها ماجد في نفسه، وقد حفظها من كتاب، أنهى قراءته قبل مدة، فهو بالرغم من أنه لم يرتد مدرسة إلا لسنوات قليلة، لكنه تمكن بما وهبته الطبيعة من ذكاء فطري، وبما له من إرادة، أن يطور قدرته في القراءة، بالرغم من أنها كانت بطيئة، لكنها كانت مطيته الوحيدة للخروج من العِيلة والحاجة، فلكم كان ينتظر صلاة الجمعة، ليرافق أباه إلى ذاك المسجد الجميل النظيف المريح المفروش بالسجاد الفاخر، المتدلي من سقفه ثريات براقة، والذي ظل في أول مرة دخله فيها محلقاً بعينيه في تلك الثريات، ينظر إليها، ويتخايلها مرة تحمله فوقها، وأخرى تسقط على رؤوس المصلين، ليلتقط منها بضع حبات من زجاجها المشتعل إشعاعًا، ولكم كانت تسافر فيه بعيدًا روائح العطر التي كانت تفوح من ملابس وأجساد المصلين النظيفة، فيما يبقى هو وأبوه في مؤخرة المسجد بجانب الجدار، يغطيان أرجلهما بسجادة خاصة، يحملانها معهما من البيت، خشية أن يرى أولئك الناس اتساخ أقدامهما، بالرغم من أنهما توضآا في المسجد، وبالرغم أن أباه كان يحضره

مرات كثيرة باكرًا ليقوما بالاستحمام في المسجد، لوفرة الماء الحار والبارد فيه، ولكم كان ينصت بعشق وحب للخطيب الذي كان يقول كلاما لم يكن يفهمه في بداية الأمر، ولكنه كان يمتصه عميقاً كما كانت تمتص أنفه الروائح التي يختلط فوحها في أنفه من هنا وهناك مع فضاء ذلك المكان الذي تمنى لو أنه يصبح إماماً فيه يوماً ما، ليعتلي المنبر، ويقول للناس خُطَبه التي يعتقد أنهم ما سمعوا مثلها من قبل، وكان يلازم أباه في كل أسابيع الثقافة التي كانت تعقد في بيوت الأثرياء، علمًا أن أباه كان يصطحبه ليساعده، ويحوز على وجبة شهية، فيما كان هو ينشد أن يتلقف كلمات من هنا، وكلمات من هناك، كلما مر بين الحضور. حتى أهداه أحد المحاضرين كتابًا، يتحدث فيه عن تطور الخط العربي، يوم رآه متلطياً في الزاوية، يصغي وقد أخفى نفسه وراء كرسي فارغ خلال ندوة الثلاثاء، التي كانت تعقد مساء كل أول ثلاثاء من الشهر الميلادي، فأخذه من يده، وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكتاب، لتبدأ بعدها رحلة العمل عليه مع علي ليلًا نهارًا، يفك ألغازه، ويفهم بعض كلماتها، ملازماً على ذي الحال شهورًا، قاربت السنة حتى تمكن بعدها من القراءة، والكتابة بشكل مكنه من أن يذهب عميقاً في فهم ما يقرأ عن هذا العالم؛ الذي يثقل قاطنيه بما لا يفهمونه ولكنهم يحسونه، وبدأت رحلتا فرحه وألمه؛ تسيران معا بشكل متلازم، وما زالتا معًا إلى يومه هذا!

سمع ماجد جوهرة تهمس " زنى، زنى ! " فعرف ما أنهك جسدها النحيل، وأحس بارتطام عذاباتها في جدران روحها الهشة، بعد أن استشعر صعوبة الأمر عليها كأنثى، وكيف لها أن تقر بفعل الزنا، فأقصى مايمكن أن تقر به المرأة العربية هو الحب، وراح يتخيل ملامح التوتر على وجهها وهي تجيب عن أسئلة المحقق، عاجزا عن تصور أن هذا الوجه الطفولي الأسمر الرقيق، بعينيه الواسعتين، وأنفه الدقيق، وذقنه البيضاوية، يمكنه أن يخفي جماله وحسنه، بالرغم من أشد المواقف قسوة. فانحنى على جبينها، وطبع قبلته التي حطت فوقه برقة جناح الفراش، وبحرارة رمل الصحراء التي آخر حدودها عند أسفل الجدار خلف غرفته الضعيفة هذه.

وعاد لتساؤلاته الفكرية العبثية، فلقد طورت القراءة عقله، وبقيت الصلاة حاجزًا بينه وبين التخلي عن دينه، بالرغم من كل علامات الاستفهام التي استحقها هذا الدين جراء ما عليه الناس من واقع، فأي زنى يمكن أن يرفعه على نفسه أمام قضاة نبت الخداع في جلودهم كصوف الخراف، وتيبست ملامحهم جراء الكذب والنفاق بعد أن استمرؤوا تأويل النصوص، وتحريفها لصالح من يدفع، وما عاد بامكانهم هم أنفسهم أن يتعرفوا على وجوههم في المرايا! وأي شرطي سيحقق في هكذا فعلة، وهو يلازم ليلًا نهارًا حافة العذاب والقهر مع أناس يكتمون الحق في تقاريره بأموالهم، ونفوذهم؟ وهل زنى العاشقين، أشد دنسًا من زنى أرواح الظالمين ؟ وتذكر أنه قرأ في مقالة عبارة

تصف الخطب الشعبوية، فوقف، في وسط الغرفة أمام النور الخافت، وراح يلقي بصوت كالفحيح خطبة، كان قد أعدها بنفسه يومًا، ليلقيها أمام أناس، تخيل أنهم يصلون خلفه، غير أن ذلك الوقت لم يحن بعد، فما المانع من أن يلقيها الآن، وهل هناك موقف أحق من هذا الموقف ليلقيها فيه ؟! وتحول فجأة إلى مشهد مسرحي، تلاه ركوعاً، ثم ألقى برأسه على ركبته، وراح يبكي، ويتمتم مشهده، بعد أن أخفى وجهه بين ذراعيه، فأفاقت على نحيبه، ونهضت، واحتضنته، وراحت تبكي معه، وتطمئنه وهي تقبل شعره بأن الله سيحلها، وراحت تلهج بالسبع المنجيات، التي حفظتها سمعًا عن امرأة، كانت تأتي الحي لتقديم دروس الدين للنسوة، والتي أكدت لها أن في هذه الكلمات حلاً لكل الهموم والمشاكل.

لقد أحبته أكثر بعد أن عرفته عن قرب، فقد حرمتها الظروف فرصة القراءة والكتابة، لكنها لم تحرمها الأذن التي تصغي وتتذوق ما تسمع؛ وإن لم تفهم ما يؤمن به هذا الشاب الذي يختزن في عقله المكور تحت شعره الأجعد الكثيف الكثير من الأفكار، تلك التي حرضته أكثر من مرة على الكتابة والنشر، إلا أنه تمنع وأبى ورفض إيمانًا منه بأن عليه أن يتفرغ لحبها لا غير، وسيعود عليّ يوماً وفي حقائبه الكثير من الكتب التي سيجلبها إلى هذا الحي، لتتسع بها الأزقة الضيقة، وتستقيم، ولتغدو مع قدومه البيوت من الاسمنت، وتتسع لكثير من الأمل. ثم تذكرت كيف كان يحفظ عن عليّ كل

كلمة يقولها، وكل عبارة يكتبها، وكل نصٍ يؤلفه، كما لو أن هذا الشاب قد غدا مخلص هذا الحي المنتظر، ومسيحه الآتي، فالكل يؤمن به، والكل يتتبع خطاه، ويسأل عن أخباره، وينتظر رجوعه بفارغ الصبر، ويستف الحلم فوق الحلم، لا يساورهم شك أن عليًا سيحقق كل أمانيهم، وسيشفي كل مرضاهم، وسيجعل من حيهم المتهرّىء هذا جنة أبدية، ولكم كانت تظل أمه البسيطة تبخر البيت المرقع بعشرات القطع من ألواح الصفيح والكرتون صبحاً ومساءً، وتفتح فيه المسجل الأسود الذي فقد بعضًا من أزرار التشغيل، ومفاتيح الصوت بفعل الزمن، فتضع فيه الكاسيت، وتدخل راس السكين في حفرة التشغيل، وتكبس ليتعالى صوت القارئ يونس أوسليس يتلو سورة الكهف، ليعلم الجيران أنه صباح الجمعة، ثم سورة يس مغرب كل يوم، على الرغم من تلك السور التي كان يصدح بها صوت المكبر المنبعث من مسجد الحي الذي يتسع لقرابة خمسين مصليًا ليس أكثر.

وثار فيها كلام لنص جعلت ماجد يردده على مسمعها عدة مرات، حتى حفظته، لشدة ما أحبت كلامه، وراحت تهمس به فوق رأسه الذي ضمته إلى صدرها :

" كثيرون في الحياة يتلفون الكثير من حياتهم، دون أن يدركوا أنهم يتلفونه في سبيل الحب، ولتسم لي أمرًا واحدًا نُقدِمُ عليه غير الحب، فكل ما ننتجه في حياتنا من مال وبناء وعمل وخوف وحرب وموت وقتل وسلم وصراع

وجهد وسفر وذهاب وإياب كلها كلها يدفعنا إليها سعينا إلى الحب. إنه الحب محركنا ومسكننا ومحرضنا ومحيينا ومميتنا وبانينا ومدمرنا. فهل رأيت سعيا لغير الحب؟ حتى ظلم الظالمين ينتجه حبهم للقوة، سل الليل يا علي وهو سيحدثك عن حجم الحب الذي تورطت فيه أرواحنا وأجسادنا وأفعال كليهما في الحرب والسلم. "

لقد غدا علي بعيدًا، وماجد الذي ينتظر عودته، يحن إليه ويشتاق، خاصة في أحلك المواقف، فكم كان يشد على عضده، ويعينه على أوجاعه، كلما عاد مساء من عمله في الحراسة الأمنية، في إحدى الشركات، التي تستفيد من جهوده، وتستغله، فلا تأمين له، ولا طبابة، ولا بدلات، كل هذا لأنه لا يملك أوراقا ثبوتية، كغيره من سكان هذا المخيم الموجع الرحيل عنه، والموجع أكثر البقاء فيه، فالعالقون فيه، لا يملكون لغدهم إلا الصبر وتجرع الأمل، وكان يمر بمنزل عليّ مهما تاخر الوقت قبل أن يذهب إلى منزله مطمئناً عليه، سائلاً عن دراسته، وآخر ما في رأسه من أفكار، وقراءات.

وتذكرت أنه أخبرها كيف كان عليّ يمسك بالقرآن ليقرأ منه قليلاً؛ ويقول: آه يا هذا الدين الذي وعدتنا بالكثير نحن الفقراء، كم حولتنا إلى بغال تجر عربات الراكبين باسمك إلى حروبهم، ومواسمهم، وبيادرهم التي لا ينالنا منها إلا التعب، والخسارة، والحزن، وعلى جلودنا توزع مياسم جلداتهم، لنجري بهم أكثر كلما أرادوا الهجوم، ولنعود بهم إلى مخابئهم كلما فاجأتهم الهزيمة،

فيقع منا من سقط سقوط الورق عن الشجر، ويداس بأقدام تمسح أكفها منا بأية وسيلة تزيل أثرنا، لنحمل وزرهم، ولا يحملون جميلنا، ويتكثف الظلام في سماواتنا، لتشع سماواتهم بالنور.

ثم يبتسم لها وهو يقول : "أنا لا أخفي وجهي الحقيقي خلف قسوة الحياة والمواقف، الناس أحق بحقيقتي وأنا أحتاج ثقتهم".

فتسدل جسدها على أحزانها وتعبها، ثم تمطر آمالها تلاشي العتمة في أطراف الصباح، وتستفيق على حب، يحشرها بين ضلوعه طوال الليل، حتى يستفيقا فجرًا، لتعد له زوادة العمل، وتغلفها بقطعة قماش، تصرها وتصنع في أعلاها عقدة ربطها لتكون مسكة، لا يجيد صنعها سواها، ثم تجلس عند أسفل الفراش، تمرر إصبعها على كفي قدميه، فيسحبها، ويتكور في نومه متكاسلاً، فتلحقه إلى حيث ثناها، حتى يستيقظ، ويباشر التدخين. تلك العادة التي لم تستطع أن تجعله يقلع عنها، حتى أخبرها ذات يوم وهو يشد جديلتي شعرها الأسود الناعم إلى عنقها تحت ذقنها، أن السيجارة تنافسها المكوث في حياته! ثم يقبلها، ويضحكان، ويعدّ نفسه، ويغادر الغرفة راكضاً، ليلحق بالحافلة التي ستقله إلى العمل.

****

ما ضر الشمس لو عميت كل العيون؟ كذلك هو الإبداع.

حين يصبح الموت قضية علمية، أكثر مما هو مسألة عاطفية، تغدو رحلة البشر في كوكب الأرض حالة أقل وجدانية، وأكثر إخضاعا للتجارب والبراهين.

هذا ما كان يدور في رأس عليّ داخل قاعة التشريح في جامعة كوينزلاند في برزبين في استراليا، قرب ضاحية سانت لوسيا على الضفة الغربية لنهر برزبين الذي يتلوى كثعبان أسطوري في أحشاء هذه المدينة، والذي استمد اسمه من اسم حاكم نيوساوث ويلز، السير توماس بريزبين، بعد أن اكتشفه جون أوكسلي عام ١٨٢٣، قبل وفاته بخمسة أعوام، والذي تطوع في البحرية الملكية البريطانية وهو في السادسة عشر من عمره، ليعيش ثلاثة وأربعين عاماً، وترفده عدة روافد كبولمبا، ونورمان، ولوكير، ليبلغ طوله ٣٤٤ كم.

وقف عليّ (نواف) بمريوله الأبيض أمام جثة اسودّ لون بشرتها، وامتقع، وغابت من ملامحها أية تفاصيل توحي بشيء من تاريخ حياتها. أمسكت يده المرتجفة بأصابع قدمها، فأحس بأظفارها الطويلة باردة تحتها، وشعر كما لو أنه يقبض على شيء منه، وراحت الأسئلة تنبت في خلايا دماغه، عن قدرة الانسان في تقبل التعامل مع هذه الجثة؛ التي كانت بالأمس قدمها التي يمسك بها؛ تخطو فوق التراب، وتسير في الشوارع والأزقة، وراح يمشي معها في مخيلته، فيدخل معها سوق أحذية لتشتري حذاء، ويسير

معها فوق سجادة غطت مدخل فندق، وها هي تطل من تحت غطاء النوم في السرير، حتى غاص بعيداً في تلك الحياة التي غادرت تفاصيلها هذه الجثة، وهو يمرر أصابعه فوق ساقيها وأفخاذها، ثم بسطها فوق بطنها، وراح يتخيل، كميات الطعام التي هضمتها معدتها، ثم ضغط بسبابته التي انتقل بها إلى ما فوق القلب، وراح يتساءل، هل كانت حياته مليئة بالحب، أم كانت تقوم على الكراهية، والفتك بالضعفاء؟ ووقعت عيناه على ملف كتب عليه اسم صاحب الجثة، فتح الملف، وراح يقرأ بياناته الاسم والعمر وأسباب الوفاة، حتى استقرت عيناه على عبارة : "أتبرع بأعضاء جسدي لصالح الدراسة في كلية الطب في جامعة كوينزلاند"، ثم التوقيع والختم الرسمي، فتبين له أن الجثة كانت لدكتور سابق في جامعة كوينزلاند. شهق شهقة خوف، وتراجع إلى الخلف مستغفرا الله، وهو يقول في نفسه : غير معقول، لا يمكن أن أصدق، أن هذه الجامعة العريقة تضع بين يدي طالب غريب مثلي – يحمل أوراقا مزورة – جثة لأستاذ، لو عاش لفترة إضافية، لكنت تلميذًا في إحدى قاعاته الدراسية، يمسك بيدي نحوى حلمي.

ثم تذكر كيف يولد الأطفال في إناء الموز، حيث لا يختمر إلا فقرهم، وحزنهم، في ذلك الحي الصفائحي، فتفوح روائحهم المكثفة عفونة، كلما زعقت الريح بين ثنايا الألواح. ثم تذكر تجربته التي دفعت السلطة الدينية لإيقافه عدة أيام على ذمة التناصح والإرشاد، عندما أقام ورشة فنية مع

بعض شباب الحي وأطفاله، فأنجزوا العشرات من الأقنعة التي لونّها بأكثر المواد بدائية، من تلك التي وفرها من التربة، ونفايات الفاكهة، والأقمشة ، فخلط ما حصل عليه من أقمشة، ونقعه بالماء والسولير لأيام، ثم زاد له بعض المحاليل من بقايا المعادن التي نقعها في وعاء آخر، ليحصل بعدها على لون فريد من خليط ألوان الأقمشة التي تحللت مع محلول بقايا المعادن الصدئة، وحصل على لون آخر استخرجه من قشور التفاح والبرتقال والموز وغيرها من الفاكهة، التي اعتمد في جلبها على كل نساء الحي العاملات في القصور، واستحدث آخر من محلول التراب والرمال، وقام بتلوين تلك الأقنعة التي تعددت ملامحها بين متعب، وحزين، وفرح، وغير متأثر، وقد أبدع منها العشرات.

ثم قام بتعليقها على جدران البيوت الممتدة إلى جانبي الزقاق، من الجهتين، و ثبت في داخل كل قناع شمعة صغيرة، ثم أشعلها، ليبدو مشهد الزقاق، أكثر من خيالي، ما دفع الحي إلى السهر طوال تلك الليلة في الزقاق، يتجول سكانه بين أعمال هذا المعرض البوهيمي، الذي ما ألفوا من قبل ردود أفعال كالتي أحسوا بها تجاهه تلك الليلة، وتناقل الناس أخبار المعرض، حتى فوجئوا عصر يوم بسيارة تحمل رجلين من السلطة الدينية، يرافقهما رجلان من الشرطة، تجولوا في المعرض، وفي نهاية الجولة، قام أحدهم بتحطيم الأعمال كلها بعصاً كان يحملها في يده، ثم قصدوا بيته بعد أن استدلوا

عليه، وطلبوا منه مرافقتهم إلى مركز الهداية، أبقوه فيه ثلاثة أيام، يؤدي الصلاة في وقتها، وبين الصلاة والأخرى، يجلس إليه رجل دين، يقوم بنصحه، وإرشاده، حتى انتهى الأمر به إلى توقيع تعهد، يؤكد فيه على عدم إتيان مثل هذا المنكر ثانية، خاصة أنه إثم يحمل وزره ووزر من عمل به، فهو من المحدثات، وهو بدعة ضلال، تحرّض الناس على الشرك بالله، ثم أطلقوه، مؤكدين له أن هناك من كلف بمتابعته من أبناء الحي.

إلا أن كل الذي حصل له في تلك الأيام، لم يستطع أن يفصله عن المتعة التي حققها من تلك التجربة النادرة التي جعلته يتحول في أعين أبناء الحي إلى بطل ومبدع عبقري، وكيف كانت وجوه الناس في تلك الليلة تشع بشتى الألوان من الفرح والحزن والخوف والدهشة، والسطوة والغضب والتيه، والشرود، والتعب. وكيف كان الناس يلتقطون بجوالاتهم الصور التي انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي، وتباهى البعض من العاملين معه في المعرض، والتقط صورًا ذاتية تظهر المعرض من خلفه، وآخر صور مقطع فيديو، ينقل فيه الحيوية التي اشتعل بها الحي في تلك الليلة، واستثمرت بعض الصحف الالكترونية الخبر، ووظفته بطريقة تلمع الحياة الثقافية والفكرية في البلاد، متغافلة بعمد أو بغير عمد عن احتجاز عليّ لثلاثة أيام في واحد من مراكز التناصح الجبري.

عندما وصل إلى الحي راح يتجول في الزقاق، متأملا بقايا الوجوه المحطمة، وتلك الأقنعة التي تمزقت، دون أن تظهر ما خلفها من حقيقة، فما كانت تلك الأقنعة تخفي خلفها أية أسرار، أو خفايا، بل كانت مجرد انفعالات نتجت عن تقاطع ملامح الناس في روح وخيال ذلك الفتى، فأبدعها، لتكون شاهدًا على أوجه حقيقية، تقنّع خلف تبجح ملامحها كثير من الموروثات التاريخية البالية التي رغم ما بلغته البشرية من جرأة وتقدم، لم يتجرأ أحد بعد في هذه الصحراء، على المساس بحدودها التي ترسبت على أعقابها عشرات الطبقات من الغطرسة، والخوف، والإصرار على خنق كل روح تلوح بفرحها من بعيد، وتحول هذا الموروث إلى فزاعات تجلت أشخاصًا يطلقون لحاهم، ويقصرون سراويلهم إلى ما فوق الكاحل، ويسيرون بأقنعة متجهمة، تدعي أنها تنظف أرض الله، وتهيء العالم لقدوم المنتظر.

استفاق على حدة الدمع الذي يجري فوق وجنتيه جراء اختلاط الذاكرة بالخوف من الجثة التي لم تحرك ساكنا أمامه، فسلط عينيه على جبينها القاتم، والذي اتسع ليتصل بصلع الرأس الممتد إلى ما خلف أذنيها، وهو يتساءل : " ترى هل ستنتج البحوث يوما، آلية يدرك الباحثون بها مخزون الذاكرة في خلايا دماغ ميت ؟ وإن حصل فكم من القرون سيحتاج المرء لمراجعة كافة المواقف والصور في ذاكرة جثة واحدة كهذه ؟"

ابتعد علي عن الجثة خطوات، وأخذ يلتقط أنفاسه التي راحت تتهدج في صدره بعد أن تذكر موقف الدين من الميت والتمثيل فيه وجواز ذلك من عدم جوازه، فهو بالرغم من كل الكتب التي قرأها عن العلمانية، وبالرغم من كل الخطوات التي خطاها في درب التحرر من الموروث ظل أسير تربية ركزت أسنة رماحها في تضاريس فكره وروحه سياط الشيخ في مدرسة تحفيظ القرآن التي كانت تتباهى بأعداد الذين تخرجوا من طلابها وقد أتموا حفظ القرآن، فتقيم لهم الحفلات، التي تحصل على تمويلها من أولئك الذين يحضرون لالتقاط الصور مع أولئك الأطفال الذين تظهر صورهم في اليوم التالي في الجرائد والصحف إلى جانب مقالات تصف نهضة البلاد الإيمانية التي عادت على المجتمع بالخير والأمن والسلام والتي لولا مثل هذه الخطوات لعم الفساد وانتشرت الفوضى، ولكان حالهم كحال دول الجوار التي راحت تنهار الواحدة تلو الأخرى بسبب تفشي الفساد والانحلال الأخلاقي والابتعاد عن تعاليم الدين والشريعة.

خرج عليّ قاصدًا المغاسل ودورات المياه، خلع رداءه الأبيض، وعلقه إلى مشجب في الجدار، وبدأ الوضوء، فلفت انتباهه وقوف فتاة شقراء، استندت إلى الباب وقد تكتفت، وراحت تراقبه بهدوء، حتى أنهى وضوءه وراح يلبس جواربيه بعد أن مسح قدميه المبللة بالماء، ثم انتعل الحذاء،

ووضع رداءه على كتفه، وخطا صوب الباب يريد الخروج من دورات المياه، فمدت بساقها معترضة طريقه، وسألته:

- إذا أنت مسلم؟ لقد خمنت ذلك منذ أن رأيتك لأول مرة في الجامعة!
- نعم أنا مسلم، وكنت أتوضأ لصلاة المغرب، فهل عندك مانع أو اعتراض ؟
- أبداً. بل على العكس أنا مسرورة بأني تعرفت إلى شاب مسلم عن قرب، فقد كنت أسمع الكثير عن الإسلام، دون أن أعرف أيا من المسلمين .

وسحبت ساقها من أمامه فاسحة له المجال ليغادر، وخطت خلفه تتبعه، إلى أن اتخذ له ركنا، ففرش الرداء على الأرض، وكبر رافعا كفيه، وبدأ تلاوة الفاتحة جهرًا. كان صوته شجيًا عذبًا، راحت تتبعث نغمات مقام الصبا من حنجرته كما لو أنها موسيقا، تتبعث من آلة كمان تعزف منفردة، وراح صدى صوته يتردد في البهو، الأمر الذي أكسبه رخامة جعلتها تتربع وتجلس أرضاً، تاركة روحها تلاحقه في تهويمات سلام ولدها صوته، لم تعرفها من قبل، بل أحست أنها بحاجة إلى احتضانه وعناقه والبكاء على كتفه.

أتم علي صلاته، وهي جالسة خلفه مغمضة جفنيها مستسلمة لسماع أنغام وعبارات لم تفهم منها إلا كلمة الله، ثم سمعته يقول : " السلام عليكم ورحمة الله " مرتين، فضمت كفيها إلى صدرها وتنفست بعمق، بعد أن أدركت أن

ما قاله هو دعوة للسلام الذي يشتهر بها المسلمون في تحيتهم على مستوى العالم وما أن استدار لها من مجلسه حتى صفقت له بفرح وهي تقول :

- واو .. واو. لك صوت ساحر، هل يمكن أن تترجم لي ما كنت تقوله وأنت تصلي بصوت موسيقي عذب؟

فترجم لها علي ما يفعله المسلم في صلاته، ثم راح يقرأ على مسمعها القرآن تجويداً، وهي تنظر إليه بسكينة وحب حتى نهض وحمل رداءه، ومشى قاصداً القاعة التي كان في داخلها قبل وصولها.

****

بين الحب والرغيف معركة لطالما انتصر فيها الرغيف

يسكن ماجدًا حلمٌ العودة بجذوره إلى فترات طويلة، وهذا ما دفعه لقراءة الكثير من كتب التاريخ، بحثاً عن جذور عائلته، التي تبين له أنها تعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل مجيء الإسلام إلى هذه الأرض، وأحد أقدم أجداده، كان من تجار القرنفل في الساحل الشرقي لأفريقيا، ما يعرف اليوم بزنجبار، تلك الجزيرة التي توارث أحفاد قبيلته، قصة تحريرها من البرتغاليين على يد الإمام سلطان بن سيف، الذي طردهم من سلطنة عمان والساحل الأفريقي كله، بمؤازرة، العديد من أبناء القبائل العربية التي استصرخت بعضها البعض بفعل رابطة الدم، والنسب، والعرق، حوالي ١٠٦٠ للهجرة، حيث شاركهم أحد أجداده المعروف بطراد هوزان أبو الطبر، تلك الحملات التي قصمت ظهور البرتغاليين، وأعادت زنجبار إلى أيدي التجار العرب القدماء، منذ أيام السندباد البحري، وقد أقام جده طراد في تلك الجزيرة، وتزوج من نسائها فتاة تصغره بعشر سنوات من السرادقة، اسمها ميَّاء، عاشا معًا فترة طويلة من الزمن لا يفهم كلاهما الآخر، إلا بالإشارات، فهو يتكلم العربية، وهي لا تعرف غير اللغة السواحلية، التي وإن حوت مفردات شبيهة بالعربية، إلا أنه ليس باليسير أن يفهم المستمع ما يدور بين المتحدثين بها، خاصة مع تباين اللهجات، والسرعة في النطق، ولقد كانت هذه اللغة منتشرة على طول الساحل المحاذي للمحيط الهندي في كثير من دول أفريقيا، وبعض

الخليج العربي، وفارس، فأنجب منها هذا النسل الذي حمل منه ماجد بقايا ملامح تلك السلالة، من قامة نحيلة الجسد من الخصر صعودًا إلى الكتفين، عريضة الردفين، يبدو لمن يتأمل مِشيته من الخلف كما لو أنه نصف امرأة في جزئه الأسفل، ونصف رجل في جزئه الأعلى.

بعد سنوات، ماتت ميَاء زوجة طراد، فحمل أطفاله، وأركبهم البحر معه في زورق عربي من تلك الزوارق التي كانت تصنع كلها دفعة واحدة، على عكس الزوارق التي تصنَع كأجزاء ثم يتم تجميعها، كان الفصل شتاء، والريح تقتلع كل ما يعترض طريقها في البر والبحر، ظل يجذف تارة وينضح الماء من قلب الزورق أخرى ليالٍ وأياماً دون مأكل أو مشرب، حتى بلغ سواحل عمان، ليفقد في رحلته تلك طفلين من أبنائه، ابتلعتهما مياه المحيط الهندي، وليبلغ شواطيء عمان بثلاثة ممن تبقوا من عائلته، أحدهم، يعود نسب ماجد إليه مباشرة، وأثناء عبوره في ولاية الرستاق مر بعين الكسفة والتي لا زالت إلى يومنا هذا، تلك العين التي أمر القائد العباسي محمد نور، والذي أطلق عليه العمانيون لقب محمد بور لقلة خيره، أن تطمر عين الكسفة بإلقاء الصوف والأشواك فيها، ثم ردمها بالتراب والحجارة، انتقاما من عصيان عماني، صعّب عليه دخول المنطقة، فانفجرت العين من مكان آخر، هو الذي مر به طراد مع أطفاله الثلاثة، فوجد ماءها دافئا، الأمر الذي دفعه إلى أن ينزل وأطفاله في مياهها الحارة حتى العنق طوال الليل درءًا للبرد،

والتعب، ثم واصل طريقه حتى استقر بهم الحال في هذه الأرض، حيث تزوج من جديد بامرأة أنجبت له فتاتين، خلفتا وراءهما قبائل لا زالت أفخاذها إلى هذا اليوم تتصل ببعضها البعض بصلة الرحم والقرابة ورابطة الدم.

ويذكر ماجد كيف كانت العائلة تتناقل سوارًا من عظم العاج المطعم بالفضة أحضره الجد معه من زنجبار التي شكلت محطة بحرية لتجارات متعددة عبر التاريخ كالبهارات والتوابل والعبيد، والعاج الذي يستجلبونه من غابات أفريقيا، واكتسب ذلك السوار بُعدَه الأسطوري، من خلال قصة رواها طراد ابو طبر لأبنه الأكبر، وهو يسلمه السوار، ويوصيه بأن يسلمه بدوره لابنه الأكبر، ولتستمر مسألة تناقله إلى أن يأذن الله ويأتي أحد الذين ستقودهم الطريق إلى مكان هذا السوار، وتزعم القصة، أنه صنع من ناب فيل أبيض، أتي به من الهند، بعد أن قام مهراجا، أحد أحفاد المهراجا بقتل ذاك الفيل ليلًا، ليدعي بعدها أن الفيل قد تحول إلى نمر وفر في الجبال، وتقول الحكاية أن المهراجا الكبير جد والد المهراجا القاتل قد تعهد برعاية هذا الفيل الأبيض؛ الذي يعتبر مقدساً في الهند ، وأخذ يُجَوّعُ أتباعه وأهله ليطعم الفيل ويرعاه، ثم انتقلت رعايته إلى ابنه الأكبر، ثم إلى حفيده الذي ورث اليسير عن أسرته، وكاد أن يفلس، الأمر الذي دفعه للتخلص من الفيل، واختلاق قصة تحوله إلى نمر، ثم قام بتهريب أنيابه، إلى زنجبار، حيث بيعت بأثمان باهظة، مكنته من استعادة ثروة جده ومكانته، وقام أحد

الحرفيين الزنجباريين، بصناعة سوارين مطعمين بالفضة من عاج هذا الفيل الأبيض لتاجر أهداهما بدوره إلى حاكم الجزيرة البرتغالي، وأن جده طراد تمكن من قتل حارس هدايا الحاكم البرتغالي، وسلم الهدايا إلى سلطان بن سيف اليعربي، فمنحه الأخير هذا السوار، وأبقى معه السوار الآخر، وتعاهد الاثنان على أن يتم تسليم السوار للابن الأكبر من كل جيل، وإخباره بقصته، وكيف تم تحرير زنجبار وطرد البرتغاليين منها، ليتمكن جيل ما من كتابة تاريخ هذه الفترة من حكاية هاتين العائلتين، وليحفظ حامله ذكرى الصداقة بينهما، وأنه سيأتي يوم يسعى فيه واحد من حاملي هذين السوارين للبحث عن الآخر، والتعارف من جديد، والاجتماع ثانية، لإحياء تلك العلاقة، واستذكار تاريخ جديهما، ومطابقة الروايتين، وفاء لذكراهما، ولكم طالب ماجد عليًا، بمساعدته في إيجاد حل لتعلم اللغة السواحلية، خاصة أن عليا كان مهتما بها، وحفظ العديد من مفرداتها التي بحث عنها في مواقع الانترنت، فلربما كان حامل السوار لا يتحدث سواها، و ليكون هذا الطقس دليل أصالة القبيلتين اللتين تتناقل أجيالها السوارين.

لكن جدته لأبيه تقول أن عمه الأكبر، كان يحمل السوار معه في كل تنقلاته، وقد مات غرقاً في البحر، حيث اختفت جثته، واختفى معها السوار، بعد أن أكله (بو دريَا) وهي تسمية فارسية، تعني أبو البحر، والذي هو كناية عن شخصية أسطورية تتسلل إلى السفن والزوارق من بعد صلاة

العشاء، إلى ما قبل صلاة الفجر، لتتلف السفن والزوارق التي تتمكن منها، وتأكل أحد البحارة، وتغادر. وما موت ولدها الذي أكله بو دريَا إلا استمرار للعنة، بدأت مع اختفاء طفلي طراد هوزان في تلك الليلة العاصفة، ولا أحد غير الله يعرف ما هي المعصية التي ارتكبها طراد هوزان في غزواته، في زنجبار، وقد أغضبت بو دريَا، ليصبح عدد افراد هذه القبيلة الذين قضوا في البحر أكثر من مئة مخطوف.

إلا أن ماجداً لم يقتنع بهذه القصة نهائياً، ولا زال يسكنه شعور الشك بأن جدته لأبيه، والتي تزوجت بجده رغماً عنها بعد أحداث قتل وثأر، حقناً للدماء قد سرقت السوار من قبيلتهم، وهربته إلى أهل أبيها في قبيلتها، ليكون في حوزتهم دليلاً على أصالتها، وأحقيتها في سيادة القبائل، ولا زال ماجد يؤمن بأنه سيجد السوار، وسيسترده، وسيسعى للبحث عن حامل السوار الثاني وفقا لما أوصى به جده طراد هوزان من جديد.

فتح المسجل ليسمع كاسيت أغان للفنانة الزنجبارية كي دادا (فاطمة بنت بركة) المولودة في قرية مفاجيمارينغو، من أب يعمل في بيع جوز الهند، والملقبة بملكة الطرب وموسيقا الأونياغو ، وكانت الأغنية بعنوان (جزمنى جزمنى) والتي تؤديها على تخت من الآلات الشرقية مكون من القانون، والكمنجات والعود والتشيلو والإيقاعات، وقد حازت كي دادا في أوربا شهرة واسعة أثمرت جائزة ووميكس (WOMEX) العالمية للموسيقا سنة

٢٠٠٥، والتي انطلقت سنة ١٩٩٩، بغرض خدمة الموسيقا التي تنشر التراث والثقافة والمعرفة، والارتقاء بها من المحلية إلى مستوى العالمية، وقد كانت تختار الجهة المنظمة للجائزة، خمساً وأربعين محطة إذاعية لبث الموسيقا، من خمس وعشرين دولة، تواصل اللجنة المحكمة الاستماع للموسيقا المبثوثة على تلك المحطات من بداية شهر أوكتوبر، ولغاية نهاية شهر سبتمبر. لتدخل معها كي دادا العالمية من بابها الواسع، تلك المطربة التي سخر منها كثير من الناشطين في مواقع التواصل الاجتماعي مثل فيس بوك ويوتيوب، من العرب، لشكلها غير الجميل، ولكونها عرفت من قبلهم في شيخوختها، متناسين عظمة الألحان التي قدمتها، بروحها الشرقية المتناغمة مع كثير من المقامات التي وصلت زنجبار عن طريق الخرسانيين والعرب الذين وصلوها، وراح ينفعل مع الأغنية الملحنة على مقام الحجاز، والتي تتحدث عن قصة فتاة، دنس شرفها شاب اسمه كي جيتي، والتي تقول كلماتها : أنظر.. انظر / للجريمة التي قام بها كي جيتي / اقتاد شخصاً ضعيفا / وكانت خدعته / إقناعها للعب / أو الرقص معه / اقتادها إلى الغابة / أغراها بالذهب / وهناك دنس براءتها.

ثم أشعل سيجارته، وراح يحادث نفسه في سرها، و يقول :

- نستبدل الوهم بالوهم، والأمل بالأمل، والهم بالهم، والحزن بالحزن، والفرح بالفرح، إلى أن نستبدل زماننا بزمان آخر، ومكاننا بغيره،

ويبقى السؤال عن سر العلاقة بين الحب والجنس والموت، فكل منها لا يُفهم إلا إن عاشه المرء، وجربه بنفسه.

ثم عاد ليفكر من جديد باللحظة التي ستطأ فيها أقدامها باب مكتب التحقيق، ليرفعا تلك الدعوة التي لا مفر منها، بغية تثبيت زواجهما، لأنه لن يورث ابنه ما عانى منه. ومد يده إلى صندوق معدني قديم مغطى بسجادة صغيرة، فتحه، وتناول منه كيساً، وراح يخرج من داخل ذلك الكيس بطاقات بلاستيكية، متشابه لونها، مختلفة الكتابة فوقها باللغة الأجنبية التي لا يجيد منها حرفاً، فأفاقت جوهرة من نومها على صوت الكيس، لتجده يعد تلك البطاقات التي تجاوز عددها الرقم الذي تعرفه، وسألته عنها، فأسند رأسه إلى الجدار، وأشعل سيجارته، ومج منها نفساً عميقاً، أطال حبسه في رئتيه، كما لو أنه يود الاختناق، ثم قال :

- هذه بطاقات صراف آلي!

ولمَا لم تفهم ما قاله، ذكرها بذلك الصندوق المعدني على جوانب الطرقات أمام مجمعات الأسواق، شارحا لها أن تلك الصناديق، في جوفها الكثير من المال، يقوم أصحابه بسحبه من الصراف عن طريق هذه البطاقات. فانفعلت، وخافت وسألته :

- هل هي بطاقات حقيقية، وستعرضنا للمشاكل؟

فطمأنها، وأخبرها أنه كان يحصل عليها بعد أن تنتهي صلاحية عملها، من أصحابها، كونه رجل أمن في البنك، تقوم الإدارة بإعطائها له ليتلفها، ولكنه ظل يحتفظ بها، لتذكره بعجزه عن الحصول على واحدة مثلها، لأنه لا يملك أوراقا ثبوتية، وليتذكر دوما أنه من البدون.

ثم يطلب منها الاستعداد للذهاب إلى المحكمة لرفع دعوى الزنا، وليكن ما يكون، فهو لا يبالي بمشاعره، ولا بمشاعرها، لأنه لا يريد لأبنائه أن يرثوا عنهما هذا الحال، وأقل ما يمكنه أن يفعل لهم هو تثبيت هذا الزواج مهما كلفه الأمر، ليكون خطوة جاهزة، في حال تم إقرار مرسوم منحهم الهويات الوطنية.

ويعود ليجول بنظره في جدران الغرفة، وليطيل النظر في وجهها، معاتباً نفسه على الخطوة التي أقحمها فيها، فما ذنبها لتكون أماً لأبناء لن يحصلوا على الهوية الوطنية بتلك البساطة، فكم من جيل انتظرها، دون أن تأتي، وكم من جيل مات، وتم دفنه ليضيع قبره، واسمه، لأن الحزن الذي يتوارثونه يتراكم بسرعة تجعله يبلغ من السماكة ما يمنع الرازحين تحته من القدرة على الرؤية بوضوح، وراح يقرأ فقرة كتبها عليّ بخط يده على ورقة، وقامت جوهرة بتأطيرها بزخرفات من الحنة اليدوية، ثم لصقتها فوق قطعة خشب، وعلقتها إلى الجدار:

" بين الحب والخبز شردتنا المحاولات. نحاول أحدهما فيختارنا الآخر. ومن هذه القفزات البهلوانية تعلمت عطش الرغبات. فتحية لجسدي الذي اشد ما يغويه حب وخبز، فبين الحب والرغيف معركة لطالما انتصر فيها الرغيف".

****

أجمل الحنين حنين الجسد الى الجسد!

في الحرب لا يهتم القاتلون لما في قلبك أو رأسك، ولا يعنيهم بمن أو بما تؤمن ، إنهم يهتمون فقط بلباسك والجهة التي أتيت منها، وبما تملك، وبشكوكهم حولك.. وبالرغم من أن كل القتلة يقضون في حروبهم جبناء يرتعدون من الخوف، فيما يتبجح مخادعوهم بالبطولات فوق المنابر.. وقد خلفوا وراءهم ملايين المجانين والمعاقين والجرحى والقتلى والمشردين.. ستظل وحدك مسؤولًا عن ترميم ما هدموه، وخاصة بيوت وأسر أولئك الذين ماتوا حزنًا نتيجة خداعهم.. ولا يمكنك أن تتملص من ذلك مهما حاولت.. أتدري لم ؟! لأنك تعرف جيداً أن صليبك هو أملك الذي لن تلقي به عن كتفيك مهما حييت.

عام ١٩٩١ قامت الدولة بتقديم الوعود لنا بالحصول على الهوية الوطنية، وقد تعهد لنا بذلك ضباط الأمن الذين زاروا بيوتنا لإقناعنا في القتال إلى جانبهم، دفاعا عن أرض لا نملك فوقها إلا الوعود، ولا نملك تحتها إلا جثث موتانا التي يمكن للدولة أن تنكرها على ذويها في أية لحظة أرادت. ثم قامت الدولة يومها بتسليمنا السلاح والسيارات، وألبستنا ملابس عسكرية، وخوذًا، وقالت في تلك الجهة عدو يريد أن يقتلنا جميعاً، ويسلبنا حقوقناً، وأرضنا.

كان الواحد منا حجرًا في جدار حماية الدولة من العدو الخارجي، لكننا لم نكن جزءاً من أحجار بناء تلك الدولة من الداخل، أو جزءاً من النظام

السائد فيها، وكم يبدو الأمر سوداويا لدرجة الضحك المبكي كلما جلسنا، نروي لصغارنا، كيف كنا نتمكن من قيادة السيارات العسكرية على طول جبهات القتال، وفي العمق الذي سمحت لنا الحرب التوغل فيه، غير مبالين بالموت أو الوقوع في الأسر، لأن أعيننا كانت تظل ملتفتة إلى شبابيك الدوائر الحكومية التي ستقوم بتسليمنا تلك الهويات التي أقنعنا تعدد المشاكل الناتجة عن عدم حيازتنا عليها، بعدم جدوى كل حياتنا بدونها. والأشد غرابة، أننا كنا نتعرض للتوقيف من قبل الشرطة، التي كانت تصادر سياراتنا الشخصية، والتي لا يتجاوز ثمن الواحدة منها ربع مرتب ذلك الشرطي الذي كان يحرر مخالفاتنا، كان يتم الاعتراف باسم الذي كان يقودها فقط في تلك المخالفات، حين يوقّع على محضرها، إن تم ضبطه يقود في شوارع المدينة التي لا زالت تسد الأبواب في وجوه الكثيرين منا، وتحاصرنا خلف جدران هذا المخيم المقيت، وكان لتلك المخالفات وجها خفياً يجعلنا نعلق بعض آمالنا عليها أثناء التحرير، إذ أنها كانت تشعرنا، أن أسماءنا وتواقيعنا حقيقة ومعترف بها، ليتحول الأمر إلى تباهي بعض منا بعدد المرات التي وقع بها على مخالفات من هذا النوع، ولنحث بعضنا البعض على الإكثار من تحمل تلك المخالفات وتثبيت أسمائنا في محاضرها آملين أن تشكل مساهمة ولو بسيطة في إثبات انتمائنا لهذه الأرض وفي دعم حقنا بالحصول على الهوية الوطنية.

لا زلت أذكر يوم كانوا يأتون بجثث إخواننا الذين ما عاد للهوية أية قيمة أو جدوى بالنسبة لجثثهم، وقد سقطت في تلك الحرب العبثية، فما عاد بوسعهم أن يكبروا ولا أن يشيخوا مع أهلهم وأحبابهم، ولا زلت أذكر كيف كان يُدَس في جيوب أثواب أبائهم قليل من المال؛ لا يساوي ثمن الأعلام التي لفوا بها، كاعتراف ضمني على أنهم من أبناء هذا الوطن. وكيف كان يأتي القادة المعزون، ثم ينصرفون إلى جنانهم المقامة على ضفاف الكوثر والعسل واللبن؛ يتمددون تحت قطوفها الدانية، مخلين لنا ليال طوال من الحزن والنواح، والانتظار اللا مجدي، والفقر، والصمت المميت، وبقايا روائح العطور التي فاحت من أكفهم على أكف صافحتهم، ما جعل بعض الناس يتركونها أياماً دون غسلها حفاظا على أثرها، ثم يمضون الليالي في تحليل يلائم هواهم عن جدوى استشهاد أبنائهم في تلك الحرب، معللين أنفسهم بأنْ يساهم سقوطهم في تعجيل مرسوم تجنيس ذويهم، وكم بات بعضنا مصدوماً حين كان يصدر مرسوم تجنيس بعض الشهداء غير المتزوجين، فيمنحون أرقاماً بهويات وطنية، لا يمكن أن يستفيد منها أي من ذويهم بشيء، فما من ورقة تثبت صلة قرابتهم بأصحاب تلك الأرقام التي كتبت فوق ورق ضمن ملفات حفظت في أدراج دوائر حكومية باردة .

كنا نقاتل فوق تلك الأرض بسلاح لم نتدرب عليه، وبملابس لم تكن بمقاسات أجسادنا، ولا بمقاس أحلامنا وطموحاتنا، وإلى جانب أغراب، لا

تجمعنا بهم أية رابطة، نسمعهم يرطنون بلغة، تشعرنا بالريبة والخوف أثناء كلامهم، فيتوهم الواحد منا أن مؤامرة تحاك ضدنا، لذا كنا نصوب أفواه بنادقنا باتجاه الجبهة، ونبقي عيوننا إلى الخلف خشية الغدر.

كنا نجتمع للصلاة خلف السواتر، فيما هم يقبعون في المتاريس الرملية، يحتسون خمرتهم متهكمين نصلي وقلوبنا لا تسأل الله تحرير ذلك التراب المحتل، ولا النصر لنا، بل نسأله ألا يخلف من وعد وعده، ويمنح أبناءنا بعد سقوطنا وتوقف هذه الحرب هوية وطنية، تمكنهم من استبدال كوخ الصفائح المعدنية، ببيت متعدد الغرف، وبجدران وسقف إسمنتي يحمي أجسادهم من المرض، والحر والبرد، ويواري عورات نسائنا عن عيون المتلصلصين.

أجمل الحريات حرية تجعلك تمشي طريقها وحيدًا، فيما يطلق عليك من تأخر عنك النار في ظهرك، ويزرع من سبقك الألغام في دربك، وأنت تدرك أن الدرب صعبة ولكن الوصول حتمي!

تنفس علي بعمق، وتنهد كل شعوره بالغربة، وهو يكتب هذه الأسطر، مردداً بصوت مرتفع جعل الناس في الحديقة العامة داخل الحرم الجامعي، يلتفتون إليه :

" تحية لاولئك الذين يركبون التيه بحثا عن الذي لن يبلغوه".

يا علي ترى هل يعرف الذين ماتوا أي غضب يسببونه لنا بموتهم، حتى وإن كنا لا نعرفهم ؟ لكن بمجرد سماعنا خبر موتهم يشتعل الغضب، ذلك الغضب العاجز الذي لا يؤتى جراحه إلا فينا، نحمله فينا ونكمل أحاديثنا وصمتنا وضحكنا وفرحنا وخوفنا وكل تفاصيل حياتنا، دون أن نخلعه، لا بل قل نخلع أجسادنا ولا نخلعه.. فلو كان بمقدورنا ألا نغضب، لكان بمقدورهم ألا يموتوا .

توقف علي عن الطباعة على جهاز اللاب توب الذي كان يحمله معه، ثم بحث عن قصيدة كان قد كتبها، وجهزها، ليرسلها بواسطة الإيميل، إلى جريدة تصدر في بلاده لتنشرها، باسم نواف، ذلك الشاعر الذي باتت الجريدة تطالبه بالمزيد من الأشعار والمقالات، نظراً لازدياد عدد متابعيها في الأنترنت، ولاقبال الناس على تناقلها، وراح الناس يبحثون عن صور لنواف، دون أن يتمكنوا من أيجاد أية نسخة منها، فقد اتخذ على نفسه عهد أن يبقي نوافاً في ظلام، طالما أنه ليس علياً، وأن كل ما ينتجه ويبدعه، ويحققه، هو ملك لنواف فهو أحق به، ومن يدري ربما كانت مشيئة القدر أن يحصل ما حصل، فيموت نواف العاجز، ويموت معه علي العاجز أيضا، ليتحدا في نواف يمنح كليهما ما يحتاج ، فيحصل علي على ما يسمح له بأن يكون، ويحصل نواف على ما يجعله قادراً، غير عاجز، ولينال كل ممن شارك في هذه المسألة نصيبه، فيستمتع أبوه بأخبار تفوقه الدراسي، ويتناقل سكان الحي أخبار تقدمه، واقتراب عودته ليحقق لهم انتصارًا، يوازي عجزهم وفشلهم

لسنوات، ولتحصل أم نواف على شعور بالرضى كونها تمكنت من الاحساس بأسرتها التي لا يعلم إلا الله وحده حجم المعاناة الذي حرم أسرتها الكثير مما كانت تحصل عليه أسر الآخرين من مال وملابس وطعام وألعاب؛ الله الذي سلبها نواف ليعوضها بعليّ وبأبيها الذي ما وفر السعي لمساعدتهم ليلاً نهاراً.

وصدرت في صبيحة اليوم الثاني في الجريدة، في الصفحة الثقافية، كلمات قصيدته :

وعلى الرصيف
التقيت بعضاً من وطني
جائعاً أسندَ الكتف جدارا
ومشردًا غابت في الحزن ملامحه
فأدمن الصمت ستارا
وصغيرةً لم تغسل البسمة وجهها
فتهافت من حولها الإنسانُ عارا
وبحثت في الحوانيت لعلي
أجد حاجتي
فوجدت كل ما ينبي بخوف
ولم أجد تلك الديارا
فما عاد للأرض هوية

والفضا اكتظ وصار
ملعب النيران تهوي
والغيوم السابحات سوداً
تهطل الصبح مواتاً
أخضر لا يرجو سقيا
أين تلك السماء يوم
كانت تمطر الأرض البوار ؟

وفوجيء مساء باستلام رسالة بريدية من رئيس التحرير، يطلب فيها منه أن يستعد لإجراء حوار صحفي حوله، وأن الجريدة تنتظر منه أن يخبرها عن الوقت المناسب لإجراء تلك المقابلة. لا بل إنها نشرت خبراً بالخط العريض في إحدى صفحاته، تطالب الناس بترقب اللقاء الأول والحصري مع الشاعر نواف العنزي، والذي يحمل لقرائه العديد من المفاجآت.

وحده أبو نواف زوج أخته، كان يعيش ألمًا وحزنا مكثفين مركبين، وقد بلغت معاناته حد دخول كآبة، اضطرت الأطباء لوصف أدوية عديدة للحد منها، جعلته تلك الأدوية حساسًا، بكّاءً، تطغى على ملامحه إمارات التعب عن بعد، وهو يسير متأبطاً نسخة الجريدة التي تنشر قصائد ابنه نواف، الراقد تحت التراب، في قبر يمر به، فيسأله من يلتقيه في المقبرة، عن سبب تواجده هنا، وعن أخبار دراسة ابنه نواف، فيمسح بكفه كومة التراب فوق القبر،

ويخبرهم عن تفوقه الدراسي، و يمسح بكمه الدمع المنساب من عينيه، ثم يبرر لهم أسباب دمعه، حين يلاحظ استغرابهم، أن صديقه الذي يرقد في هذا القبر كان زميلَ دراسة في المرحلة الثانوية، وكان متفوقًا وطموحًا جدًا، وقد تذكره حين سمع أسئلتهم

****

رمل هذه الصحراء مالح بما يكفي ليحميها من الفساد

أن تكون الجغرافيا صحراء شاسعة تمتد لآلاف الكيلومترات المربعة أمرًا ليس بمقدور أحد منا نحن الناس العاديين دراسة أسبابه، لكن أن نقيم نحن صحراءنا التي نشيدها بإرادتنا داخل تلك الصحراء، فنعزلَ الناس خلف مفاهيمَ قاسية تعزز قطع التلاقي وتؤسس للقطيعة، ونحددَ المسموحات والممنوعات، فنضيقَ الحريات والفكر والتعاون، ليحلَ محلها الانكفاء خلف الأسوار الشاهقة لبيوت صممت بأجمل ما يمكن للخيال إبداعه، واعتقل جمال تصميمها في سجون التورية وراء معتقدات بالية، ليظل جمالها محجوبًا خلف أفكار صحراوية تعزز التلطي بأفكار تميت الإنسان فينا لحظة بلحظة، وتدمره شر تدمير، فنتحول إلى ذئاب تسعى لنهش عمقنا بأنياب، نشحذها برمال الصحراء الملتهبة فينا يوماً بعد يوم، فتلك مسألة يحق لنا جميعًا الخوض فيها والموقف من مغذيها.

تتمدد الصحارى فينا رغما عنا، وما عاد الدِين بقادر على استصلاح ما تبقى فينا من طين، ولا عاد بوسع الحب أن يحافظ على ما تبقى فينا من مساحات خضراء، فقد غابت العلاقات العاطفية التي كانت تلهب أطلال ديارها مخيلة العشاق، وتمكنهم من القصائد التي ما عاد لنا قدرة على قراءة أبيات من مطلعها، واستعضنا عن جمال صورها وصياغتها وموسيقاها وعاطفتها العذبة بروايات ساخرة عن أسباب كتابتها، جاعلين من شاعرها

شخصية كاريكاتورية تثير الضحك في بعض زوايا صحارينا الداخلية المحصورة .

كانت سبابة أبي علي تمر فوق الكتابة باللغة الأجنبية التي سطرتها يد ولده، وقد استلم منه رسالة ورقية، كما أوصاه أبوه، كتبها بخط يده، ووضعها في مغلف مؤطر بمعينات حمراء وزرقاء، وقد ألصق عليها طوابع تكلفة نقلها من جامعة كوينزلاند في برزبين في استراليا إلى مكان أبيه عبر زوج أخته والد نواف، لتعبر تلك السبابة شحنات حسية لا يمكن لأحد أن يدرك أثرها غير أبي علي الذي ظل يتردد في البحث عمن يقرأ له الرسالة، إذ يجب أن يكون شخصًا أمينًا ثقة، بحيث لا يشيع ما فيها من أخبار وتوصيات، ولا يذكر أمام أحد شيئًا عن ظروف ولده، ولا عن مكان وجوده، لكي لا يبدأ التساؤل خارج دائرة المخيم عن كيفية وصول هذا الابن إلى استراليا بالرغم من عدم حيازته هوية وطنية.

كان ماجد يرتب بعضاً من كتبه فوق الطاولة الصغيرة التي تصدعت في زاوية البيت رواية الرجل الخراب لعبد العزيز بركة ساكن و رواية الخلود لكونديرا، وشيء غريب في رأسي والتي كلما قرأ مقطعا منها ثارت في نفسه شهية السفر إلى تركيا للبحث عن ذلك البائع الجوال ليبتاع منه تلك البوظة التركية الساخنة المصنوعة من اللبن الفريدة بلذتها كما يصفها أورهان بوماق، وفي رأسه آلاف الحوارات التي علقت بذاكرته من برامج تلفزيونية عما يجري

في المنطقة من أحداث وانقلابات عسكرية وثورات فشلت بمجملها لأننا شعوب تعرف كيف تثور ولأتفه الأسباب، ولكنها لا تعرف كيف تستثمر في تلك الثورة مستقبلها الذي يتحول إلى شظايا مع وفرة الزعامات التي تصعد سلمها، وتبدأ توظيفها لصالح جيوبها مسلطة على الجغرافيا والبشر جنرالات لا يمكن لأحد أن يحتمل غباءهم القاسي.

تنحنح أبو علي في الباب ، وردد مرتين " يا الله " طالبا الإذن بالدخول ، فنهض ماجد من مكانه ملبياً النداء وخطا صوب الباب، فيما انشغلت جوهرة بتغطية رأسها الحاسر، وفتح الباب ملحاً على أبي علي بالدخول، لكن الأخر عاند وآثر الجلوس على حافة الباب موليا ظهره للداخل ووجهه لجهة الزقاق، وهو يطلب من ماجد أن يجلس بجانبه لأمر ضروري. لبّى الأخير طلبه، وهو يسأل جوهرة أن تصلح كاسة شاهي، لعمها أبي علي، والتي ردت بدورها من مكانها : سم أبشر أنت وعمي أبو علي.

وضع أبو علي كفه على كتف ماجد؛ وصمت بعد أن همّ بالكلام، الأمر الذي استنفر حمية ماجد فقال :

- أبشر عسى ما شر ؟ فديتك بس اطلب .. محتاج فلوس .. محتاج مشوار .. محتاج خدمة رقبتي لك سدادة .. اعتبر علي موجود .. أنا هْنا.

تنفس أبو علي بعمق، وأدخل يده تحت غطرته وراح يحك شعر رأسه، ثم عدلها وعدل عقاله فوقها، وقال :

- هذا الأمل فيك، لكن القضية أصعب من الفلوس، وأصعب من المشوار، وما أقدر اثق بغيرك لهذا الأمر !

تفاعل ماجد مع كلمات أبي علي، واستدار بكامل وجهه نحوه، وقال له :

- فديتك.. ثقتك بمكانها، بس قول!
- علي أرسل لي رسالة، وما أقدر أثق بأي شخص لقراءتها،

ثم لعن عمر الجاهل الذي لا يفقه القراءة والكتابة، وقال :

- وانت تعرف انا في هذه الشغلة ما أختلف عن الحمار، أريدك تعاهدني على أن اللي تقراه ما أحد غيري وغيرك يعرف بيه، وأنا أطمن أهله وأصحابه بطريقتي.
- أفا عليك أبو علي، وهذه محتاجة توصيه ومعاهدة، ومع هذا أعاهدك على ما طلبت، ترى علي أعز من أخوي، وهو أملي وأمل كل أهل الديرة، وننتظر ردته الكم والنا بالدقايق والساعات والأيام، وكل ما صليت لله دعيت له بالتوفيق والنجاح، على الأقل واحد منا يوصل عسى يلاقي حل للناس.

سحب أبو علي الرسالة من جيب ثوبه الجانبية، وناولها لماجد الذي راح يفتحها بتأن، ليجد بداخلها ورقة ملفوفة على ورقة أخرى من فئة الخمسين دولار، ففردها، وراح يتأملها مستغرباً، إذ أن المألوف أن نرسل لعلي المال لا أن يرسله لنا، ثم ناولها لأبي علي الذي سأله قائلا :

- وش ذيه؟ عموما اقرأ وخلنا نفهم وشو السالفة..

وبدأ ماجد القراءة :

" بسم الله الرحمن الرحيم..

والدي الحبيب.. أهلي الأعزاء.. وأهل ديرتي الطيبين ..

سأبدأ من حيث بدأت دهشتكم.. من ورقة الخمسين دولارا هذه، فقد ربحتها في مركز تسوق في المدينة هنا، وقد عاهدت نفسي أن أرسلها لك يا أبي، وأنا أسأل الله أن تكون بخير، وأرجوك في الوقت ذاته أن تفعل ما أطلبه منك بهذه الخمسين دولار.. خذ أمي إلى الخياطة أم سعود، وأطلب منها أن تخيط لها ثوباً جديدًا، فقد لمحتها عدة مرات تستر نفسها بثياب من تلك التي كانت تنبشها من حاويات الملابس المرمية قرب المسجد، بعد أن كانت تذهب إليه من وقت لآخر بحجة الدروس الدينية، وقد تمكنت مرة من اكتشاف الأمر بعد أن تتبعتها، لأتبين أنها كانت قد علمت بوجود تلك الحاوية، وعرفت مواعيد وضع الملابس فيها بعد صلاة كل جمعة، إذ كان

الناس يمرون بها وهم في طريقهم إلى الصلاة، وراحت تأتي بها جميعها، وتقضي ساعات في البيت تختارها، وتحدد لمن ستعطي كل قطعة منها، وتبقي على الذي لا ينفع للبس، فتصنع منه مخدات ومجالس للبيت بعد أن تخيط أغطيتها عند أم سعود التي كانت تفرض عليها أن تحتفظ لها بأفضل ما تجده من ثياب في تلك الحاوية.

أما عني فأنا بخير، ودراستي بأفضل حال، وليتني أستطيع أن أصف لكم حال الناس هنا، فكل شيء مختلف، وكل ما حولي فرض علي الكثير من الجهد والوقت لأفهمه..

ولقد بدأت أعمل لساعات ما بعد الدراسة في نادي الجامعة، مقابل بعض المال الذي يساعدني في دفع مصاريف ما كانت بالحسبان، ولكن هذا لا يعني أني أعاني من شحة في المال والمصروف، إنما ولأني هنا وحدي أحتاج لأن أملأ حياتي بكثير من التفاصيل والعمل حتى لا أقع تحت ثقل الوقت وأنياب الشوق لكم، وحتى لا أشعر بالملل والضجر..

أقبل رأسك ويديك، ورأس أمي ويديها، وسلامي لجميع أخوتي في الديرة، وأخص منهم ماجد وعبيد وأبو فيصل وأبومنصور وهلال ونايف والجميع.

واسلموا لمحبكم عليّ ."

حك أبو علي جبينه، وهو يتساءل عن غموض في هذه الرسالة، ثم التفت إلى ماجد وسأله :

- أريدك أن تقسم بالله أنك قرأت كل كلمة وكل حرف مكتوب!

وأقسم له ماجد وأغلظ في قسمه مؤكدا له أنه قرأ كل حرف في الرسالة، ثم ناوله الرسالة والمغلف، وطلب الشاي من جوهرة، فناولته الابريق والكاسات، وراح يسكب الشاي وقد انشغل أبو علي في إعادة الرسالة إلى داخل المغلف، ووضع الخمسين دولار في محفظته التالفة، وهو يتمتم : عسى الله يجيب اللي فيه خير.

ثم بدأ أبو علي يثرثر على مسمع ماجد والأخير يصغي مندهشا بما يسمع:

- أنا قلق على علي يا ماجد، حين جاءني أبو نواف، وسلمني الرسالة، لمحت في عينيه حزناً حرضني على الحذر، وهي المرة الأولى التي ألمح فيها مثل هذا الحزن في عيني أبي نواف، فهل حقا ما لمحته موجود، أم أن نفسي توسوس لي بذلك؟ ثم على علي أن يفهم ونهائيا أن اسمه قد بات نواف وعليه أن يكون نواف، وأن ينسى علياً وإلا ضعنا كلنا في خرابة ..
- لا أفهم عليك ما تريد قوله يا عم أبا علي، ماذا يدور في رأسك ؟!

- الذي يدور في رأسي كثير يا ماجد، وأخاف البوح به، فلطالما ظلت نار الصدر محتملة ما دمنا نكتم أنفاسها بعدم فتح أية منافذ تهوية لها حتى لا تشب وتأتي على ما يقف في طريقها !
- والله أنت تزيد حريتي حيرة يا عماه، أية نار وأية نوافذ؟ أرجوك وضح لي فأنا لا أفهم لغة الألغاز.
- ألغاز الحياة أعقد من أن يختصرها أمي مثلي يا ماجد، فعلي اليوم في تيه متداخل ويشبه إلى حد ما لعبة الدببة الروسية المكونة من دب كبير في داخله دب أصغر، وفي داخل الدب الأصغر دب أصغر منهما وهكذا حتى يخرج من جوف أصغرها دب غير قابل للتفريغ من الداخل، ولا يمكنه احتواء أي صغر فيه لتناهي صغره .. علي كان هنا في تيه الفقر والعوز، وهو كما تعرفه حساس دقيق مع نفسه ومحيطه، وقد غادرنا إلى تيه الغربة ولكن عن طريق تيه آخر لا يخفى عليك، وكلما وضعت رأسي على المخدة ليلاً تراءت لي كل هذه المتاهات بكل تداخلاتها، لذا صرت أحلم بعلي يسير ليلاً حافي القدمين يبحث عن شربة ماء في درب طويلة مظلمة، فأفيق من نومي مضطربا قلقاً، لا أعرف بعد إفاقتي تلك نوماً.. وكأن علي غادرني، وقد أخذ معه راحتي ونومي وطمأنينتي التي كنت الوذ بها من وقت لآخر.

- وكل ربك يا عم.. ما يصير إلا كل خير.. وعلي رجل يعرف كيف يتدبر أموره وهو الآن يدرس الطب وقريبا يعود إلينا طبيباً.. وصدق ربك كريم .
- ونعم بالله يا ولدي، ولكن قبل أن أغادر أريدك أيضاً أن تعود نفسك على أن اسمه بات نوافا، وما عاد علياً، فلا تذكر اسم علي على لسانك أمام أحد، فأنت أعرف بالمستور كله.

غادر أبو علي، وخلف وراءه ماجدًا يوغل تقدماً في تيه، لا يعرف أي من سكان هذا الوطن الصفائحي التخلص منه، وراحت تساؤلات مرعبة تصدم ماجدًا في تقاطرها إلى رأسه، ماذا لو فكرت بمغادرة هذا المحيط بكامله، فإلى أين ستتوجه، وأنت لا تملك أية هوية، تمكنك من طرق باب يمكنك من العبور خارجاً، وماذا لو اعتبرت الأمر مجرد وقت؛ وقد ينجلي بعد سنوات؟ وكيف يكون رد فعلك لو أنه لم ينجل، وكبر رضّع هذا الوطن الصفائحي، وعجزوا عن الحلم بمجرد العبور الذي تتساءل عنه؟ ثم راح يتذكر كل تلك الوعود التي ألهبتهم في حرب الصحراء تلك، عندما وعدهم المسؤولون الذين كانوا يزجونهم في سجون مفتوحة، أسوارها طبيعة تلك الصحراء القاتلة من رمل وضياع مؤشر بوصلة ورصاص يخترق الصدور من الأمام والخلف وشظايا تمزق الأجساد كلما انزلقت نيرانها من السماء.

كان المسؤول الذي يلتقي بهم عند الحدود الخارجية لصحراء الموت والحرب يعلق جزرته بعصاً، ويدليها أمام أعينهم المنصبة عليها، فيجرون خلفها لاهثين لبلوغها وقضمها والحصول على هوية تنقذ منهم ما يمكن إنقاذه مهما كانت تكلفتها، وكان يعد بأنه سيجعلهم يخلعون بزاتهم العسكرية هنا ليدخلوا مدنهم بثياب المواطنين الحاملين لتلك الهوية الحلم، وتذكر كيف انتهت الحرب، وكيف عادوا دون أن يجدوا ذلك المسؤول عند الحدود في تلك الخيم التي كانت تعدّهم وتجهزهم للموت، وكان أول السم الذي تجرعوه احباطًا أسود لا يمكن للضعيف من هؤلاء أن يحتمل جرعة زائدة منه، وأتتهم وعود بأنهم سيقابلونه قريباً وقريباً جداً، وفي مكتبه، فهو عاكف على انجاز مهام كبيرة، وكل ما عليهم فقط أن يقوموا بالتوجه إلى مكتب كان مجرد غرفة معدنية تسمى بالحاوية، يصدر عن مكيفها الذي يخفف من حرارة جوها في الداخل صريراً يرشد الباحث إليها دون أية مشقة، إذ أن أحد الموظفين الحكوميين كان يقول أترى ذلك المكتب الذي يصلنا صوت مكيفه إلى هنا، إذهب إليه، ويقوم العديد منهم بالتوجه إلى المكتب؛ ليدخلوه من باب بلاستيكي ضيق، ليتوقف الواحد منهم أمام موظف يبدو من النظرة الأولى إليه بشعره الأشعث ووجهه غير الحليق ومنفضة السجائر التي تغص أمامه بالأعقاب أنه لم يحصل على إجازة منذ أسابيع طويلة، ثم تذكر كيف سجلوا أسماءهم وأسماء ذويهم البالغين على اعتبار أن من هم تحت السن القانونية سيتم الحاقهم مباشرة بمعاملات ذويهم عنده في قائمة ورقية، وكيف

كان يرد على كل أسئلتهم ب : "لا أعلم !"، فإن سألوه متى تصل هذه القائمة إلى الجهة المختصة ؟ رد ب :

- لا أعلم !

وإن سألوه متى سيتصلون بنا ؟ أجاب وهو يمج سيجارته ويعرك عينه بعقدة إبهامه الأيسر :

- لا أعلم!

وإن سألوه هل يتوقع أن يحصلوا على نتائج مما يقومون به أخبرهم بلا أعلم، حتى تذكر كيف بات اسم هذا المكتب الذي اشتهر بينهم باسم مكتب لا أعلم.

****

آه يا وطني كم خنتني وما خنتك !

أسئلة مربكة تجتاح علياً كلما دخل إلى مختبر التشريح في جامعة كوينزلاند في برزبين في استراليا، ولكنها ليست بحجم الإرباك الذي أحسه عندما دخله عصر يوم بعد أن قرأ خبراً في النت عن التحضير لعملية نقل رأس من جثة معدومة الحياة إلى جسد معدوم الرأس، وأن صاحب هذه الرغبة مليونير روسي، وتكلفة العملية أكثر من عشرة ملايين دولاراً، وسينفذها فريق طبي يتجاوز المئة وثمانين طبيباً، يرأسه الطبيب الايطالي سريجيو كانافيرو، يعملون معاً وعلى مدار سبع وثلاثين ساعة، بعد أن ظل على مداري ثلاثين عاما، يجري دراساته لهذه الخطوة التي ينتظرها العالم.

كان يقف أمام جثة لفتاة عشرينية قتل اصطباغها بالأسود كل ملمح أنثوي فيها، فأمسك برجليها؛ وقد شعر أنه انتقل إلى عالم يلجه لأول مرة في حياته وبالتحديد إلى ما قبل ألفي عام، فرأى نفسه يصلي ويقدم القرابين في معبد الرب غانشيا الذي حظي برأس فيل من قبل والده شيفا والذي عاش ألف سنة، وشاهد رأس الماعز على جسد داكشا براجاباتي بن براهما بعد أن قطع رأسه شيفا، ثم أفاق من غيبوبته القصيرة جدًا، وفي رأسه عشرات التساؤلات التي يعجز الطب عن الإجابة عنها قبل نجاح العملية، فالمخزون المعرفي والخبرات التي يحتويها دماغ المتبرع بعد زرعه في جسد له خبرات مختلفة وكليًا، كيف ستحصل مسألة التفاهم بين جزأين متناقضين صارا في جسد

واحدًا؟ وما هو مصير رغباته وشهواته ومشاعره؟ فهل سيحب هذا الجسد ما كان يحبه من قبل؟ أم أنه سيلبي رغبات رأسه الجديد؟ وماذا لو كان هذا الرأس لشخص شاذ جنسياً، وقد غرس في جسد لشخص صوفي نقي السريرة؟ فأي الحالين سيتبناها هذا الجسد الجديد؟ وماذا لو كان رأس المتبرع لرجل زرعناه في جسد أنثى؟ ولمن ستعود صلة القرابة والرحم في هذا الجسد الجديد، ألأسرة صاحب الرأس أم لأسرة صاحب الجسد؟ والميراث والصداقات والماضي والمستقبل، وبأي اسم سينادى، هل باسم صاحب الجسد أم باسم صاحب الرأس، ووو...؟

وأحس بالضيق يطبق على صدره، وشعر أن عليه مغادرة المختبر بأشد سرعة ممكنة بعد كل هذه التساؤلات التي يعجز عن فهمها وإيجاد أجوبة لها، وهو عليّ ال بدون، باسم نواف المعاق الميت المدفون منذ زمن وربما قد تحللت جثته، وكلما عاد لتذكر هذا الأمر شعر بأن جسده يتفتت بين كفيه، ويكاد يتطاير غبارًا أمام عينيه دون أن يتمكن من اللحاق به.

جلس على مقعد في حديقة الجامعة مقابل الأعمدة التي تحمل قناطر عربية التصميم، يمتد خلفها ممر دائري لو تابعته بناظريك إلى أقصى اليمين لوقعت عيناك على مدخل الجامعة الذي يتطاول ببنائه المستطيل عالياً، تتوسطه ثلاثة شبابيك مستطيلة متناسقة في تباعد المسافات وتوزيعها على ارتفاع جدار المدخل، وتحتها ثلاثة لا تختلف عنها في شيء ثم أسفلها

جميعاً ثلاثة أخرى بالمواصفات ذاتها، ليصبح مجموعها تسع نوافذ أنيقة جذابة، تجعل الناظر من بعيد يعيش فضول سؤال : لماذا هي تسع نوافذ؟ وعلام تطل هذه النوافذ التسع ؟ لكنك إن دخلت من البوابة، تكتشف أن المبنى كناية عن ثلاث طبقات، وأن لكل طابق ثلاث نوافذ مستطيلة، تمتد من أرضه حتى سقفه لتدخل النور والهواء إليه.

أمسك علي بالقلم والورقة، وراح يكتب ما كان يفكر فيه، ويدونه على شكل خريطة برمجة دماغية ليتمكن من تخزين كل سؤال يبحث عن إجابة له، ثم كتب :

يا علي هل يكبر الموتى في موتهم ويهرمون ثم يموتون من جديد، وهل يدفن الموتى موتاهم كما نفعل نحن الأحياء؟ وهل تتحلل جثث الموتى بعد موتهم من جديد؟ يا علي إن أجمل الموت موت فوق صدر أنثى تبتسم في وجهك وأنت تغادرها بلا رجعة.

اقتربت إيزابيل من علي ولاحظت انشغاله في الكتابة، فتسمرت مكانها قبالة جلوسه؛ وظلت واقفة تنتظر انتهاءه مما يفعل، لتجلس بجانبه وتتحدث إليه.

إيزابيل فتاة استرالية من أب ألماني وأم تشيلية، حملت من كليهما خليطاً من الملامح والتكوين الجسدي، فهي نحيلة وبيضاء البشرة بشعرها الأسود الطويل، وقامتها الرقيقة المتناسقة الأجزاء أميل إلى الطول منها إلى القصر، ذكية ولماحة، تدرس التمريض في الكلية التي يدرس فيها علي اختصاص

الطب، ولقد تعرفت إليه في مختبرات التشريح، فلفت انتباهها تردده الدائم على قاعة التشريح ومكوثه فيها لساعات طويلة في فترة ما بعد الظهر، حتى أنها صارت تتعمد الحضور في وقت حضوره، وتستلطف الحديث إليه، وتشعر بأهمية وجودها إلى جانبه لتقوية لغته الانكليزية بلكنته التي كانت تدفعها إلى الضحك كلما لفظ الحروف المتقاربة برخاوة ودون تشديد كحرف ال p، وتطورت العلاقة بينهما، حتى بات كل منهما يرتاح للآخر، وصارت تطلب منه زيارتها في منزل أسرتها لتعرفه إلى أهلها، وليتذوق الطعام الذي تطهوه أمها من وقت لآخر، لكن علي كان يصر على رفض الدعوة وعدم تلبيتها، ذلك بسبب خشيته من رداءة تصرفاته أثناء تناول الطعام، فهو لم يعتد أن يأكل بالشوكة والسكين، إضافة إلى أنه لا يستمتع بنكهة الطعام إذا لم يتناوله بأصابع كفه الخمسة، الأمر الذي جعلها تحضر له معها من حين إلى آخر بعض السندويتشات والعلب البلاستيكية الحافظة للأطعمة، وتتركها معه لتعود وتأخذها منه بعد أن يتناولها ليلاً في غرفته.

كانت إيزابيل جريئة، تملك قدراً عاليا من الحرية والاعتداد بالنفس، فلم تكن تتورع عن الرقص في أي مكان تملكتها فيه رغبة التمايل مع الايقاعات، وكانت تضحك بصوت مرتفع، وتغني في أي مجلس وإن سخر البعض من قلة العذوبة في صوتها، وكانت تمسك بيد علي، وتركض أمامه، فيجاريها

هو عبر ممرات الجامعة، وفي داخله أكثر من اضطراب وقلق وخشية من ماض دفين وموروث عميق.

تنبه علي لوقوف إيزابيل، فتوقف عن الكتابة، وتقدمت منه وجلست إلى جانبه، وهي تسأله عن الموضوع الذي كان يتناوله في كتابته ، وسألها علي:

- إيزابيل، هل تشعرين بأية مشاكل جراء كونك تحملين هوية اختلاط الأنساب؟

وردت إيزابيل بسؤال : هل تقصد هوية الأب والأم، والجذور مع إقامتي هنا؟! لعلمك ما شعرت يوماً أني أعاني أية مشكلة من هذه الناحية، بل أنا أشعر أحيانا بالثراء والغنى كوني سليلة ثقافات لا تربط بينها أية صلة.

- ولكن إلا يرهقك أن أبويك يتحدثان لغتين مختلفتين، وأنهما ربياك على لغة مشتركة بينكم أنتم الثلاثة؟ وأي لغة من اللغات الثلاثة التي تحيطك تفضلينها أكثر؟
- أنا يا علي أهتم للتواصل مع الآخرين، ولا أهتم لقواعد اللغة ونحوها وصرفها، ما دمت أفهمك فلا آبه لباقي التفاصيل، وإن أردت سأصطحبك إلى مركز الصم والبكم لترى وتتعرف عن قرب إلى أهمية التواصل بين الأفراد خاصة إذا كانوا بحاجة إلى ذلك وبأية وسيلة، وسترى هناك أن لغة الإشارة لها من المشاعر ما لكل أبجديات البشرية كافة، ولكن قل لي يا علي ماهو تعريفك للهوية؟

وروى لها علي تساؤلاته التي راودته قبل قليل في قاعة التشريح والتيه الذي دخل فيه جراء تفكيره بالعملية المترقبة في فترة أعياد الميلاد، وخطورة البحث عن هوية لهذا الكائن الجديد.. ثم صمت وقد ترقرقت في عينيه الدموع، الأمر الذي دفع إيزابيل إلى تمرير كفها اليسرى على شعره، والنظر إليه بوجهها مباشرة وهي تحدق في عينيه الباكيتين صامتة غير معلقة بأكثر من تلك الابتسامة المتعاطفة مع مشاعره، وتركته يكمل ذرف دمعه بلا أية معوقات.

هدأ علي ومسح خديه من بقايا الدمع المنحدر عليهما، ومسح أنفه بكم الثوب الابيض، فانفجرت ضاحكة من حركته العفوية، وتنبه هو لذلك فسارع وتناول منديلا من جيب المريول الأبيض واكمل مسح أنفه، ورحل بعيدًا بنظرته الشاردة، والصمت يجعله أكثر جاذبية وإبهاماً.

انزاحت إيزابيل بجلوسها صوبه قليلا حتى لاصق فخذها فخذه، ووضعت كفها على كتفه الأيمن وقالت :

- اسمع يا علي .. منذ أن عرفتك وأنت تصلي، وأنا على شعور بأنك تخفي سرًا عني، وأن هذا السر يرهقك حمله يوما بعد يوم، فلم لا تخفف عنك ذلك وتحكي لي ما تخفيه، وأنا أعدك بالتزام الصمت في حال عجزت عن المساعدة ؟

تبسم علي وأدار وجهه صوبها، وابتسم في وجهها، وهو يردد :

- لا تقلقي لست أخفي عنك شيئاً، وأنا لست ارهابياً، فلم تلحين عليّ بسؤالك هذا كلما التقينا؟

هزت إيزابيل رأسها عجزاً، ثم سألت علي عن ماضيه، وهي تضمر في نفسها رغبة عسى أن يخفف عنه ذلك حزنه الذي مهما حاول تلافيه وإخفاءه، طفا فوق صفحة ملامحه؛ كما تطفو بقع الملح فوق رمال الصحراء بعد أن تجف من مياه الأمطار، قائلة :

- علي كيف هو الحب في بلادكم؟

تمتم علي بحسرة مردداً :

- الحب في بلادي ؟! آه يا إيزابيل، لوكان الحب في بلادي كما نحلم؛ لانبتت رمال صحارينا في كل حبة رمل زهرة بلون ابتسامتك!

احمر وجهها خجلاً ، وتفتحت عن فرح عامر ما تحسسته من قبل وهي تهمس :

- واااااو ، علي أنت تتحدث عن الحب بعمق نادر! أكمل أرجوك أكمل!
- لقد جن قيس بن الملوح من قسوة المجتمع الذي كان يحرض على الحب والعشاق، ولم يجنّ من أنوثة ليلى وفتنة جمالها، ولو أنه أتيح

له أن يتحدث إليها كما أتحدث إليك لما وصلت إلينا أوجاعه، ولا تراقصت الحمى في جسده من شدة الشوق ولوعة الفراق!

- أتقصد أنكم لا زلتم تستنكرون العلاقة بين المرأة والرجل والحديث عن المشاعر؟
- عندما يموت فيك ضوء أنر عزيمتك بالصبر والإصرار واترك الله يفعل ما يشاء.. هذه هي قاعدة الحب الأولى والأخيرة يا إيزا.
- أحب أن تدلعني من حين لآخر بمناداتي إيزا، أنت الوحيد الذي يفعل ذلك، ثم إنك تنطقها بلكنتك الخاصة، فتأتي عبر شفتيك الكسولتين وأنت تتحدث بالانكليزية كما لو أنها حبة كرز تذوب على طرف لسانك.

وأحس علي بالحرارة تدب في جسده، فهذه أعمق مرحلة بلغها في حياته في حديثه إلى إمرأة، وأكبر في داخله ذكاءها العاطفي وقدرتها على التعبير عن مشاعرها، ففي بلاده لا يمكن للمرء أن يعبر عن مشاعره إلا من خلال الشعر الذي يبلغ قليله مسامع الناس، ويظل كثيره طي الكتمان خشية نتائجه، وحدها الأغاني تشكل الطريق الآمنة لعواطفنا وقول ما نحمله نارًا في تفاصيلنا، فهناك لا يكتب الشعر إلا لغاية، ثم تأتي الأغنية محمولة على أجنحة الموسيقا لتتحدث عن حبنا بالجملة، فيغدو محمد عبدو بأغانيه سفينة آهاتنا التي تعبر بنا محيط الخشية والحذر من المجتمع، ومع أغانيه تغدو

تمايلات رؤوسنا واهتزازات أقدامنا مع الإيقاع وجهاً مقبولاً من إنسانيتنا المخفي ضعفها خلف أقنعة مصطنعة من التثاقل وتقطيب الحواجب اكراماً للتدين وإقصاءً لكل من يحاول الاقتراب من عوالمنا الجوانية، حيث نخبئ ضعفنا العاري عن العيون والألسن، فيموت الواحد منا وهو يرسم على وجهه ملامح تشبهه في لحظة التقاط صورة في استوديو يصورها آسيوي ما عرف الكاميرا، قبل أن يأتي إلى أطراف ذاك الحي الصفائحي، ويفتح استوديو هناك !

- يا إيزا مات قيس مجنوناً وماتت ليلى في مخدع رجل لاتحبه لأن ثقافة البدوي التي أنا ربيبها تحرم مشاعر قيس على ليلى وتحلل جسد ليلى لمن لا يحس بمشاعرها! وإن كنت تريدين معرفة رأيي الشخصي في الحب فالأمر مختلف؛ إذ أن الحب عندي هو أن ندرك كيف تشع النضارة من وردة نبتت على حافة مجرى مياه آسنة؛ وأن نجعل من قلوبنا حدائق خصبة التربة، يغرس البعض فيها حقده، فتنبته رياحيناً!

وهتفت إيزابيل بصوتها المليء بالأنوثة : علي.. علي.. أنت تتحدث بلسان السماء وليس بلسان البشر، كيف تفعل ذلك يا علي؟ هل تعتقد أن لغتكم حقاً هي لسان من السماء؟

ثم حدقت بخطه فوق الورق الذي كتب عليه قبل وصوله، وسألته بحذر :

- هل يمكن أن أطلب منك شيئاً؟
- بالطبع إن كنت أملكه سأفعل! اطلبي.
- هل يمكنك أن تعلمني اللغة العربية قراءة وكتابة، فمنذ أن لمحتك تكتب أسرني كيف تتمكن من جر القلم بيدك من اليمين إلى اليسار، وبحروف متشابكة أنيقة تباعد بينها مسافات متشابهة، كل هذا يشدني إلى لغتك أكثر فأكثر.
- لك ما طلبت، ولكن عليك أن تتمكني من أصعب صوت في أبجديتنا على الإطلاق، وهو أول حرف من اسمي : ع .. هيا رددي خلفي ع ..

وراحت إيزابيل تحاول نطق الحرف ع بعده، فتخونها أوتارها الصوتية مرة، ويخونها أخرى سقف حلقها في تشكيله عند مدخل الحنجرة، فيخرج تارة أعمق من مكان خروجه بقليل أو أبعد منه بقليل، وتستمر المحاولات حتى ينفجرا معاً بالضحك، وتشعر بأنه بدأ يسخر من عجزها في فعل ذلك، وقد راح هو يشعر بالحنين لديرته التي اشتعلت فيه مع تلك اللحظات البريئة بينه وبين إيزا.

ويتذكر كيف أنه ما لمح في حيهم المتكئة بيوته وأزقته على بعضها البعض بؤساً وانتظاراً وصمتاً حباً جريئاً فرحاً، ويتذكر أنه لم يلمح طوال حياته هناك زوجاً يحضن زوجته، ولا أباً يحضن طفله، أو صديقاً يعانق

صديقه، وأنه ما سمع شاباً وفتاة يضحكان بروح الفرح التي انتابتهما هنا بتاتاً، وراح ينقّب في عمق ذاكرته عن ملمح مشابه، حتى عثر على ابتسامات بعض الفتيات المارات في الحي غروباً وهن في طريق عودتهن من الخدمة في القصور والبيوت، بعد أن نفرن من هذا الزقاق صباحاً، كل منهن إلى رزقها .. وراح يتساءل عن سر تلك الابتسامات التي ما كانت تطفو إلا مع خطوات العودة، فهل كانت فرحة الغريب بالرجوع إلى موطنه الذي يظل مربوطاً إليه بحبل سرته مهما نأى، أم هي ابتسامات الشكر كونهن نجين من كمائن يوم طويل في تلك البيوت والقصور؛ التي لا يعلم ما خلف أسوارها من قصص ورغبات إلا من اعتاد دخولها.

****

سوق الملح

تمكن ماجد من دخول اليمن بتوصية حصل عليها من أحدى الشخصيات النافذة في البلاد، وقادته الطريق في السيارة التي ركبها بعد أن عبر الحدود إلى صنعاء القديمة وتحديدًا إلى سوق الملح، ذلك السوق القديم المشهور، الذي يشغل مساحة كبيرة من الحيز الإنساني للمدينة، ويكمن جمال هذا السوق الكبير في الترتيب والاختصاص لما يضمه من أسواق متعددة يختص كل واحد منها بمنتجات معينة كسوق المحدادة وسوق العسوب(الجنابي) وسوق المنقالة "للحبوب" وسوق المنجارة و سوق البهارات وسوق البز "الأقمشة" الحريرية ، والمدر (الأواني الفخارية).

دخل ماجد يتجول في سوق الملح بضم الميم تارة للدلالة على جمال مقتنياته، وتارة بكسرها، وقد شده جمال الألوان فيه وبريقها وتنسيقها وعطرالمحتويات المنبعث من كافة الأصناف، دون أن يغيب عن خاطره ولو للحظة أنه قدم إلى هذا السوق بحثاً عن سوار جده الضائع، يطارد وهماً بعد أن سمع من أحدهم كلاماً؛ يؤكد فيه أنه لمح مثل هذا السوار في سوق الملح في صنعاء القديمة، والذي هو من الأسواق العربية المعروفة في تاريخهم والذي يعود بناؤه إلى ما قبل الإسلام، وقد مر به الشاعر الفرنسي مؤلف (المركب السكران) رامبو بعد أن وصل عدن في صيف ١٨٨٠ عن طريق جاوى، فقد تطوع مع الفرقة الأجنبية في الجيش الهولندي ليتمكن من السفر

مجانًا، منذ أن ترك منزل الأسرة بسبب نار الحرية التي تشتعل فيه دون انطفاء، خاصة وأنه كان على غير تفاهم مع أسرته التي خلفها وراءه في شارلفيل بعد أن توقف عن كتابة الشعر وهو في سن الواحدة والعشرين، ليبدو من سيرة حياته أنه كان ملولًا ضجرًا صاخبًا، لا يمكن أن يحتمل ايقاعات الحياة البطيئة .

في عدن التقى رامبو ضابطاً فرنسياً متقاعداً اسمه دو بار، وظفه في شركة فياني – مازران بارديه – في الإشراف على النسوة اللاتي كن يقمن بتنقية البن قبل تصديره إلى مارسيليا مقابل ستة فرنكات فرنسية يومياً؛ والتي لم تكن تكفيه لتحمّل مصاريفه اليومية من طعام وسكن، الأمر الذي جعله يشعر بالاستغلال والاستعباد، كيف لا وغلاء المعيشة في العالم هو أبرز أساليب ترويض الناس وشغلهم عن التفكير في شؤون أرقى، خص الأثرياء أنفسهم بها، الأمر الذي دفعه للتفكير بالانتقال إلى هرر في الحبشة حيث ستفتح فياني – مازران بارديه – لها فرعًا جديدًا، إلا أنه عاد ليلح على إدارة الشركة للموافقة على عودته للعمل معها في عدن، بعد أن مل من هرر، وتحققت له رغبته تلك بعد سنة من إقامته فيها، ليعمل بعد أن قامت الحرب بين الإنكليز والعثمانيين والمصريين، مهرباً للسلاح بين عدن وهرر الأفريقية عبر ميناء تاجورة قبالة سواحل جيبوتي.

وما كانت سيرة رامبو لتعبر مخيلة ماجد الذي قرأ عنه كتاب (رامبو وزمن القتلة) لهنري ميلر، عبوراً فجرّ فيه كل هذا الشرود، بعد أن وقف يتأمل صورته المعلقة إلى صدر جدار حانوت لبيع التوابل في سوق الملح، التقطت له وهو يضع في كفه بعض أصناف التوابل ويتفحصها.

واصل ماجد تجواله بين الحوانيت يتنقل من سوق إلى سوق بحثاً عن شيء؛ لم يفصح عنه لسببين أولهما الكتمان، وثانيهما أنه لا يريد أن يبدو بمظهر الغبي وهو يسأل عن سوار يصفه وهو الذي لم يره من قبل، وأن بامكان أي شخص أن يريه أي سوار في محله، ويقنعه بأنه سوار جده الذي يبحث عنه بعينه، خاصة بعد أن انتشرت في الفترات الأخيرة ظاهرة النسخ والتقليد لأي شيء يطلبه المرء من الصين إلى حلب إلى دمشق، فتارة يتم عرض صورة كمان بيتهوفن، ويعلن عنه للبيع بسعر زهيد، وأخرى يعرض فيها مسدس مذهب يحمل اسم صدام حسين، وما ذلك إلا مجرد بحث عن طرائد غشيمة توقع بها أفخاخ مخادعين، اتخذوا منها وسيلة للعيش، ظل ماجد يسير متأملا محتويات المحلات، متجنباً الاستفسار عن أي شيء يقلبه بين أصابعه، وذلك بسبب مدخراته المحدودة التي يحملها في جيبه والتي لا يعرف إلى هذه اللحظة، كم ستطول إقامته في صنعاء، وان طالت كم عليه أن يدفع بدل الاقامة فيها والطعام وغيرها من مصاريف؛ قد لا

تكون بالحسبان، أضف إلى ذلك أنه حريص جدًا على ابقاء أجرة طريق العودة كاملة دون أن يمسس منها هللة واحدة.

بلغ ماجد سوق العقيق، دخل محلًا يمكله عجوز يمني، يلبس عمة في أعلى نقرة رأسه، يحك من فترة إلى أخرى مقدمة رأسه الأشيب، ثم يعدل تلك العمة التي يبدو أنها لم تتعرض للغسل أو التنظيف منذ أسابيع ليست بقليلة إلى الوراء. دخل المحل، يجانب في سيره محتوياته الأنيقة من سبحات تدلت من تعليقها، كما لو أنها أمطار من جمار تتساقط دون أن تبلغ القاع، إلى جانبها خزانة تشع من خلف زجاجها الرقيق حبات عقود اللؤلؤ، كما لو أنها ذلك البرد الذي ينهار دفعة واحدة على أسقف بيوتهم الصفائحية في مخيم منفي أبداً عند حدود المدينة، فتمتلىء الأزقة بحباته؛ ليشعل تراكمها أطفال المخيم البائسين بفرح لا يوصف، وعلى الجدران تدلى كثير من الحلي التراثية التي ذكرته بفترة أقبل الناس فيها على جمع قصاصات لصور ولوحات من الصحف والمجلات، ألصقوها على جدران أكواخهم الداخلية؛ لتضفي على المكان اتساع المساحة وامتداد فضائه إلى ما هو أبعد من الصفائح المعدنية المتآكلة جراء الحر والمطر والريح والبرد عاماً بعد عام، وتساهم في سد بعض الثقوب التي كان يتسرب منها الهواء البارد شتاء والحار صيفًا، تقابلها مساحة خصصت للخناجر الفضية المنقوشة بشكل يجعل العين تعجز عن الإشاحة بنظرها عنها، وأساور فضية نازعته نفسه عشرات المرات، ليشتري

واحدة منها لجوهرة، لكنه كان يعود ليلعن في سره العجز والشح ألف مرة وهو يعيد في رأسه حساباته المالية؛ دون أن تمكنه كل تلك العمليات الحسابية من بلوغ حل، ثم انشغل بمرأى كيف توزعت في قلب المحل على الأرض بسطات حوت مئات الأحجار الكريمة التي بدت إلى جانب بعضها البعض كالجمار الملتهبة في جوف منقل، يغازل بعضها البعض ببريق العقيق والفيروز واللازورد والزمرد والكهرمان وغيرها، وأخرى تحوي أختامًا فضية ومعدنية استجلبت من الهند وفارس والمغرب وغيرها من الدول التي تمر بها القوافل البحرية التي تتوقف في عدن لتسلم التجار بعضاً من بضائعها فتنتقل منها إلى صنعاء، لتباع هنا في سوق الملح الذي يحج إليه مئات ألاف من السائحين الغربيين على مدار العام.

طال مكوث ماجد في المحل، وهو يتجول فيه ويقلب بتأنٍ الموجودات بناظريه، دون أن يفصل أية قطعة فيه، حتى تقدم منه البائع العجوز، وسأله إن كان يحتاج أية مساعدة، وتردد ماجد في مفاتحته، لكن فراسة الرجل الخبير دفعته إلى سؤال ماجد، فبعد أن حكّ الرجل ناصيته، وعدل عمته في أعلى رأسه كالمعتاد، حدق في عيني ماجد وقال له :

- أنت تبحث عن شيء محدد، وتخشى السؤال عنه، وهذا ليس من طبيعة عملنا في هذا السوق، إذ أننا هنا نتعامل مع زبائننا بمنتهى السرية والخصوصية كما لو أنك تزور عرافًا، فيمكنك أن تسألني

عن أي شيء تريده وأنا بعدها سأجيبك، وسأنسى أنك قد مررت بمحلي وسألتني.

حك ماجد حدود ذقنه بين وجهه وعنقه، وتنحنح، ثم قال للبائع :

- إني أبحث عن سوار من العاج كتبت عليه عبارات، وقيل لي أن أحدًا لمحه في هذا السوق.

هز البائع رأسه، ومط شفتيه قليلًا إلى الأمام، واستدار إلى حيث مقعده، وألح على ماجد بالتفضل والجلوس، ليستفهم منه تفاصيل أكثر عن السوار، خاصة أنه ليس أول من يمر به سائلًا عن مثل هذا السوار، لحق به ماجد ثم جلس على طنفس بُنّي من جلد جمال فتية لنعومة وبره، أجردت بعض البقع فيه؛ فامحت أثار الوبر فيها، جلس صاحب الحانوت مقابله في مقعده الخشبي الداكن لونه، وبادر يسأله:

- وش تبي تشرب ؟
- ماء يكفيني لو سمحت.

صب له كوب الماء ومده به إليه، وبادره بسؤال جعل ماجدًا يتوقف عن الشرب، وقد أبقى حافة الكوب المعدني الأبيض – الكيلة – عند حافة شفته، وهو ينظر إليه بحذر :

- هل أنت تبحث عن قطعة السوار شقيقة تلك القطعة التي كانت مع سلطان بن سيف اليعربي؟
- ومن أخبرك بقصتها؟

همهم التاجر بأصوات ارتطمت في تجاويف فمه المطبق الشفتين، دون أن يفهم ماجد أيا منها، ثم قال له:

- أتعرف كم عمر هذا السوق يا بني؟ عمره أكثر من ألفين وخمسمئة سنة، وقد ذكر هذا السوق في النقوش السبئية.

وتناول من صندوق بجانبه الأيسر لوحاً حجرياً، ومسحه بكفه، وأعطاه إلى ماجد وطلب منه التأمل فيه، معلقا :

- هذه قطعة من النقوش السبئية التي تتحدث عن هذا السوق، لقد حمل أجدادنا الأحجار من جبل نقم في همدان، ليبنوا هذا السوق الذي بدأ يُعقد في الخامس عشر من شعبان كل عام ويستمر لثلاثين يوماً ومنذ قبل الإسلام، ومازال يحمل في تجاويفه روح القبائل العربية عامة واليمنية خاصة، أنا من نزار جد نبيك الثامن عشر، وقد ورثت هذا المحل عن جدي، وجدي ورثه عن جده، وجدي نزار واحد من الحكماء الذين أشاروا على الناس في بناء هذا السوق، وأنا أحد فروعه التي لا زالت تعرش على جدرانه في هذه الأرض منذ أكثر من الفين وخمسمئة عام، ولقد ورثت هذه التجارة أبا عن

جد، فهل تظن أن في العالم قطعة نادرة لم أعرف عنها أو أني لم أسمع بها؟

تناول ماجد جرعة ماء، ووضع الكوب على الطاولة الحجرية التي أمام التاجر النزاري، واعتدل في جلوسه، وقال :

- سأخبرك قصة السوار الذي أبحث عنه، ولكن إياك أن تستغلني أو تستغفلني، فأنا أحمل جوعاً عمره قرون من الحرمان والتيه وغياب الاستقرار.

ثم قص عليه حكاية جده طراد هوزان أبو طبر وكيف حصل على السوار، والرجل يصغي مبتسماً، كما لو أنه يعرف سلطان بن سيف وطراد معرفة شخصية، الأمر الذي جعل ماجد يتوهم أنه قد يخرج له السوار من أحد سراديب المحل التي راح يتخيل وجودها خلف كل قطعة معلقة في هذه الجدران.

حك الرجل ناصيته، وعدل عمته، وتناول بيسراه قدمه اليمنى وضعه فوق ركبته اليسرى، وراح يداعب أصابعها، ويسأل ماجدًا عن حاجته لهذا السوار، عدا أنه إرث من جده، وأن صاحب القطعة الثانية دون شك من ذوي الجذور النقية، إلا أن كل هذه الأسباب ليست كافية للبحث عن مجرد سوار من العاج.

- أسمع يا عم ! أنا لست أعتقد بأن السوار ذو قيمة مالية كبيرة، ولكن لهذا السوار قيمة أعمق بكثير من قيمته المالية عندي، وأنا من المؤمنين أن عثوري عليه سيغير مجرى حياتي وحياة الكثيرين من أبناء عمومتي، أولئك الذين جمعوا تكاليف رحلتي هذه بالحرمان والصبر على المهانة والذل.
- إذن أنت من ال بدون ؟

وسقط سؤال التاجر النزاري على رأس ماجد كالصاعقة، وتبين له أن هذا الرجل ليس مجرد بائع يقتني ما لا يعلم، ليبيعه لمن لا يعرف! بل هو خبير أنساب، ويدرك تفاصيل مقتنيات محله من ألفها إلى يائها، ولا شك أنه على اطلاع كاف برحلة السوار، ولا شك أنه يملك معلومات عنه أكثر مما نعرف نحن ورثة طراد مجتمعين.

****

صحراء في جوف الصحراء

بعض الناس كالأعياد لباقي أيام السنة، يطلون على صباحاتهم بكل فرح وعذوبة، وبعضهم يشبه بدايات أيام الأسبوع الوظيفية المليئة بالتثاقل وبطء الزمن وجلافة الملامح فلا يلقون التحية على بعضهم البعض إلا بكل تكلف واضطرار.

تطور نظام الحياة بشكل سريع جداً، خلال سبعين سنة من انطلاقة دول نشأت فوق الرمل الطافي على النفط؛ الذي يملأ جوف هذه الصحراء؛ بعد أن تمكنت من التهام ما التهمته عبر التاريخ والزمن، ولكنها عجزت عن التهام القبيلة العربية التي عرفت كيف تروضها وتمتطيها، وتركبها نحو المستقبل بكل ثبات وثقة، فكم من قافلة عبرت هذه الصحراء ولم تبلغ وجهتها، وكم من جيش غارت قوائم خيله في رمالها، وظلت أثاره شاهداً على عجز كل الذين أتوا من بعيد، وانتهى الأمر بهم إلى واحدة من حالتين : إما أنهم عادوا أدراجهم مع أول سراب أرعبهم تلألؤ أفقه أمام أبصارهم ، أو أنهم غاروا عميقا في جوف رمال هذه الصحراء التي حولتهم إلى نفط، ينبعث دخانا من فوهات آبار تنتشر في امتدادها كالبثور التي تتركها حمى الجدري على أجساد طفولة مشردة لم تلق من العناية أبعد من مشقة التحمل.

في الحرب لا أحد يتفهم سبب هزيمتك، والكل يبحث عنها ويفندها ويفصلها، ليوغل فيك جَرحاً وإيلاماً، وفي الانتصار لا أحد يسألك عن كيفية

وأسباب الانتصار، بل يفد الجميع إليك مهنئين، باحثين عن مقاعدهم إلى ولائم الانتصار، ونحن كعرب نتقن البدايات، ونحسن التخبط في النهايات، وكل ذلك بسبب تداخل الأولويات وغياب مخطط جدولتها الزمني للتمكن من انجازها، فالله لدينا أول الأولويات ما دمنا نتحدث من على مجالسنا في الندوات والمحاضرات والمساجد، ولكنه فجأة يصبح آخرها أمام مصالحنا المادية والشخصية البحتة. وما أن يبلغ الفتى من فتياننا مرحلة التعليم الجامعي حتى تغدو أبرز أولوياته الحب والزواج، وكم من الآباء ينفق عمره وجهده في بناء بيت يتباهى به بين الناس، فيما لم يقدم لأولاده أدنى الجهود لتعزيز تحصيلهم التعليمي، حالنا كأفراد ومجتمعات لا يختلف عن أحوالنا كدول وشعوب، يصبح أمن الدولة أعظم أولويات السلطة، وآخرها حقوق الناس وحاجاتهم ومتطلباتهم، لذلك تنبت في عقولنا كل يوم حرب نعرف كيف نبدأها، ولا ندرك كيف ننهيها، ففي عام ١٩٢٥ احتلت إيران الأحواز العربية على الساحل الشرقي من الخليج العربي ولأن تحرير الأحواز لم يكن من أولوياتنا، تقدمت تركيا واستقطعت من سوريا لواء الاسكندرون، وكونها بلد يرتبط بنا برابط الدم، أيضا أجلنا هذه الأولوية حتى تمكنت إسرائيل من احتلال فلسطين في سنة ١٩٤٨، وتستمر هذه التخبطات إلى ما لا نهاية، لأننا نحسن القفز في الفراغ دون احتساب النتائج.

في حضارة الفايكينغ يرتقي الإنسان ليصير بمآثره وبطولاته إلهاً، وفي حضارات أخرى ينحدر الإله ليصبح إنساناً، رحلتان متناقضتان، بينهما فجوة مرعبة من التراكيب الفكرية والفلسفية التي لا يستهان بالوقوف عندها، وما بينهما طرح آخر لحضارة؛ تقول بأن الإله أرسل من قبله رسلاً صَعَّدَتْ الانسان إليه، ولا زلنا إلى يومنا هذا لا ندرك كيف يمكننا إيقاف الصراع بين هذه الآلهة الثلاثة.

ولأن أجمل ما في الماضي انتفاخاته الحلوة، والتي تزوقه لنا، وتنئيه عنا، فتمكننا من الارتقاء فوقه ورؤيته بنظرة مسقطية من علٍ، انتفخت مواضي الحضارات كلها، وبقيت كل تلك الانتفاخات لا تقنع إلا ذويها الذين لا زالوا على الرغم من كل ما أريق من دماء؛ وما أهدر من جهود، تعيش حنين العودة إلى إرثها المنتفخ في عقليتها وحدها فقط على حساب إرث باقي شعوب الأرض، وبالتالي مزيداً من الحروب والصراعات والجدران الفاصلة والدماء. وبقي الإنسان عبداً رغم كل ادعاءات التحرر، وما من عبيد كذبوا آلهتهم.

هذه هي مقالة نواف التي نشرت في الجريدة المحلية بنسختيها الورقية والألكترونية، وقد سارع أبو نواف لشرائها، وقراءتها، دون أن يستطيع التخلص من هواجسه، وكآبته وقلقه، فقد تقدمت حالته النفسية في تدهورها الصحي، وباتت جرعات الأودية التي وصفها له الأطباء لاتفعل فعلها،

وصار يفضل البقاء خارج المنزل لفترات طويلة من اليوم؛ ليجنب نفسه وأم نواف الصراعات والمشاكل التي لم يعد بمقدوره السيطرة عليها، خاصة وأنه قد تجرأ، ورفع صوته بتهديد زوجته بأنه قد يلجأ إلى فضح المستور كله، إن لم تتركه وشأنه، وكان رد فعلها على قدر من الحماقة التي دفعتها لرفع سقف التحدي معه، وهددته بترك البيت إن تجرأ وفعل، وبأنها لن تتوانى عن اثبات شراكته لها بما حصل.

جلس أبو نواف في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه ظهر كل يوم، وأمسك بالجريدة، وراح يقلب صفحاتها مفتشاً عما نشرته لنواف، حتى استقرت عينه على اسمه في رأس العامود الذي ادرجت فيه المقالة، وفجأة انهار وأجهش بالبكاء، الأمر الذي أثار حفيظة الناس في المقهى، فسارع أحدهم إليه بكوب ماء، وقدم آخر له المنديل، والتم حوله عدد من المتواجدين في المقهى يتساءلون عن أسباب بكائه، وراحت الأسئلة تصطدم بمسمعه كالشظايا، وهو في نوبة فجيعته، وتعالى صوت بكائه كما لو أنه طفل أربعيني، وراح يضرب بقبضة يده على صدره وهو يردد نواف، نواف، نواف.. والجريدة أمامه على الطاولة الزجاجية، مطوية لتخفي كل شيء، ولا تظهر إلا اسم نواف في رأس المقالة، الأمر الذي أثار حفيظة شخص في منتصف عقده الثالث من العمر، يضع على عينيه نظارة طبية شفافة، سحب الجريدة بهدوء، وراح يقرأ المقالة بصمت، والآخرون منشغلون بأبي نواف، يرهقونه

بأسئلتهم التي لا تلقى منه جواباً غير البكاء، وضرب الصدر بقبضة يده، حتى أتم قراءة المقالة كاملة، وراح يتتبع الخيوط بين مضمونها، واسم الكاتب، والاسم الذي يهتف به الرجل، ثم قرب كرسيه ليجلس بجانبه، ومد إليه بسيجارة، تناولها أبو نواف فأشعلها له، وسحب منها سحبته الأولى على الرغم من أنه لم يجرب السجائر من قبل، وراح يستعيد هدوءه، ويتنبه إلى مكان وجوده، والناس من حوله، حتى لمح الجريدة في يد الرجل، فاستلها من كفه بحدة جلية، ووضعها تحت إبطه، ما عزز في نفس الرجل اعتقادا مفاده، أن خلف هذا الرجل سراً لا بد من اكتشافه، فقال بصوت مسموع :

- لقد كتب الأستاذ نواف مقالة رائعة، وأنا من المعجبين بكتاباته، وأنتظر ما تنشر له الجرائد بالساعات.

تنهد أبو نواف، واستعاد هدوءه مع انتهاء السيجارة التي دخنها، ثم سأل الرجل وأكمل كلامه:

- هل بالامكان أن أحصل على سيجارة أخرى من فضلك ؟!

وبعد أن أشعلها وراح يدخنها، قال :

- انه ابني الوحيد ، وهو يدرس في أستراليا، وقد مضى وقت طويل على غيابه، وأنا أفتقده.

- ولم لا تأخذ أم العيال، وتذهبان لزيارته؟ منها تغيرون جو، ومنها تشوفون ولدكم وتطمنون عليه!
- لا أريده أن يعلم بوضعي الصحي، وأنا كما رأيت، صارت نوبات الحزن والبكاء تحصل لي في أي مكان وفي أية لحظة، دون أن أقوى على التخلص منها!
- الله يعافيك ويلطف بك، ولكن ما تشرفت بحضرتك؟
- أنا مساعد العنزي موظف، تقاعدت مبكراً لظروف صحية، بعد أن عملت في وزارة الطاقة لعشرين سنة، فما عاد بامكان المؤسسة احتمال غيابي عن العمل، وكثرة إجازاتي المرضية، وظروفي النفسية التي باتت تزعج الجميع في الدائرة، فقررت التقاعد مبكرًا، وكان لي ما أردت.
- ولكن ما شاء الله عنك أنت بألف خير، وصحتك مثل الحصان، ما أسباب تدهور حالتك النفسية؟

وشعر مساعد بالريبة، فنهض من مكانه، واستأذن الرجل بحجة موعد الدواء، وغادر؛ يخطو مسرعاً في الشارع؛ ليعبر بين السيارات كما لو أن ريحاً سكنت ثوبه الأبيض، وراحت تشق الزحام فيه، ليغيب في المنعطف الذي دخله، بعد أن راح يركض، وهو يتلفت خلفه خشية وريبة.

الانسان لا يخرج من أي شيء يدخله مهما كان صغيرًا، فوعينا وادراكنا للأشياء التي نعيشها، يبدأ عندما تتحول فينا الى حنين وذكرى، عندها تخرج بنا منا، ذلك لأننا أول ما نبصرها بعيوننا، وآخر ما نبصرها بأرواحنا، وهكذا تدرك الحقائق.

كانت بائعة الماء الصغيرة في الطريق، سمراء نحيلة، بربطتي قرني شعرها " النيغرو " فوق رأسها، و سحنتها الغبراء من أتربة الشوارع وريح وحر الظهيرة، بابتسامة سلبت منها براءة الطفولة، تسير حافية، فوق الاسفلت المشتعل، بسروالها الباهت اللون؛ لكثرة ما تمرغت به في قيلولتها عند اسفل الجدران، وقميصها الملطخ ببقع لن تتذكر مصدرها..
تدني بيدها الهزيلة قارورة الماء الصغيرة، من نوافذ السيارات المظللة، فيتستثقل سائقوها الالتفات إليها؛ ويتجاهلونها خشية خسارة شيء من التكييف، فقد أدوا صلاة الظهر قبل مغادرتهم مكاتب عملهم بقليل. وهي لا تطلب صدقة، هي تبيع حاجة لطالما اشتراها الناس من أماكن تليق بهم، ومن باعة تربطهم بهم مصالح، آه ما أظلم الحياة حين يغدو الفقر صحراء في جوف الصحراء.

هذا ما كان يراه مساعد الذي بات من خلال تجوله في الشوارع مشهدًا من مشاهد المدينة، وصار مشهده مألوفًا، ومرتبطًا بكثير من الأمور التي يحدد الناس مواقيتها بمروره أمامهم، فلكم بقي يراقب المحال والناس في سياراتهم

من مكانه وقوفاً على الرصيف، فيلوّح لطفل ركب بجانب أبيه، ويتبسم لآخر ضحك له من خلف زجاج السيارة، ويخبئ وجهه ممازحاً رضيعاً على يد أمه في المقعد الخلفي.

كان قد دخل الزقاق المؤدي إلى منزل خْنيف أبي علي والد زوجته، عندما لمح رجلًا أجلس طفله الصغير على فخذه، وراح يزقمه بالملعقة اللبن من زبدية صينية بيضاء، ويقول له : قل لي؛ ما الذي يدفع عصفورًا لبناء عش لفراخه؟ وهل تعلم كم قشة يحتاجها؛ ليبني عشًا بحجم زبدية اللبن التى أطعمك الآن؟ وهل تخيلت المسافات التي يحتاج أن يقطعها بحثًا عن تلك القشات؟ وكم يكلفه رصفها و" شقعها " فوق بعضها البعض من تركيز لتأخذ شكلها الهندسي المدهش ؟ أتراه يفكر ولو للحظات قبل أن يفتح جناحيه في الجو باحثاً عن مراده في جدوى ذلك ؟ وهل يتمنى العصفور أن يبني له أحد ما عشه ؟ أم أنه يقضي ليله يصلي رافعًا يديه عسى أن تهبه السماء عشًا ؟

لا يا صغيري .. إنها إرادة الحياة فيه، نعم. فهي ليست بذلك الأمر المعقد يا عصفوري الصغير، إنه ينفذ، غير عابىء بالنتائج، ولا مبال بمسافة الزمن؛ الذي سيكلفه مسيره في هدفه، ولا يشكك للحظة في احتمالية أن تبعثر الريح ما أنجز، لا بل يفعله مغردًا مفعمًا بالفرح والإيمان. فهل ترى أن عصفورًا بحجم تكور خدك الصغير أجدر بالحياة منك ؟

تجاوز أبو نواف ماجداً دون أن يلقي السلام عليه ، فناداه ماجد ، وسأله :

- إلى أين تذهب يا مساعد ؟
- إلى بيت أبي نواف!

وأجهش بالبكاء، وراح يردد نواف.. نواف.. ويدق صدره بقبضته، ثم التفت إلى ماجد وقال له :

– تخيل أنه بات أبا نواف أكثر مني، وتخيل أني لم أستلم من نواف منذ أن رحل عن الديرة، رسالة واحدة، وآه كم تمنيت أن أقرأ من حروفه التي باتت تزدحم بها الجرائد، كلمة أبي مساعد، ولو كذباً يا ماجد، أليس صاحبك هو؟ ألا يراسلك أو يتصل بك، فلم لا تقل له ما يحز في نفسي، لقد كان نواف رغم كل اعاقته، يشرئب وجهه فرحًا وحبًا ما إن يسمع صوتي وأنا أفتح باب غرفته لأدخل عليه، وتعلو صيحاته وتمتماته غير المفهومة تعبيراً عن فرحه بدخولي، يباشر بتحريك شفتيه تعبيرًا عن أنه يريد تقبيلي، ذلك الذي كان جثة غير مجدية، كان في داخلها روحاً تحمل من الذكاء العاطفي، ما لا يمكن لعلي وكل مقالاته وأشعاره أن توصله لي مهما كتب وتفاصح، قل له ذلك، وردَدَ بصوت عال : قل له ذلك عن لساني ..

ثم أدار ظهره وخطا بعيدًا عن ماجد الذي أحس بكلماته، تثقب قلبه كالمسامير وهي تثقب الخشب، حتى لو أنك تمكنت من اقتلاعها، لن تستطيع إغلاق فتحات تلك الثقوب مهما حاولت.

****

لمن يشتهي الحب: " اجعل من ابتسامتك ارجوحة للمتعبين "

يحكى أن شابًا فقيرًا، فكر في أن يصبح موسيقيًا، فتملكته الخشية من تحقيق ذلك لقبح وجهه الذي كانت قد شوهته حمى الجدري، فما كان منه إلا أن استشار أمه التي نصحته بألا يفعل لغياب كلي للوسامة في وجهه، وأخبرته أنه سيكون نشازًا فيما لو ركب رأسه وقرر ذلك متناسيا نصيحتها، ثم أخبرته أن الموسيقا لا يمكنها أن تصنع الوسامة، ونصحته بدراسة علوم الدين، لأنه سيحقق من خلالها نجاحًا كبيرًا، وسيفد إليه الناس بأعلى وأدنى مراتبهم يستفتونه، ويقفون في بابه منتظرين فتواه، وعمل الشاب بنصيحة أمه وبرع في ما طلب، وزادته تقوى و ورعا لحيته التي ازدان بها وجهه وصدره، وصار الناس يتحدثون عن هالته.

تتغلغل في هذه الحكاية فكرة عمق التراث الديني، وتشير بدورها إلى أن الموسيقا مهما تجلت عذوبتها لن تمكن صاحبها من السلطة، ما يقزم الجانب الروحي للموسيقا، إذ يمكن للموسيقي أن يمارس طقوسًا دينية، ولكنه لن يتمكن من إمامة الناس للصلاة واقتيادهم إلى جنات عرضها السماوات والأرض، وذلك يدلنا على أن الاسلام الاجتماعي جعل الموسيقي مؤمناً من الدرجة الثانية، ولو أننا راقبنا الناس عند اصغائهم لعازف، سنلحظ عدم التأدب في فعل ذلك مقارنة بإصغائهم لخطيب في مسجد، إذا لا يتقبل المجتمع من المبدع إلا جزءًا محددًا من شخصيته، مهملاً بعد ذلك باقي

الأجزاء، وهنا يفقد الموسيقي هويته كفرد، وكثير من الموسيقيين في الجزيرة العربية ارتدوا عن عزفهم للموسيقا، لأنهم من أسر يؤثر فيها بالتزامها الديني، فتجبر أبناءها بكم الانتقادات الهائل والمرهق على التوقف عن العزف، وتدفعهم إلى التوبة والحج، واستحضار الصراع النفسي في أعماق أرواحهم، ليفنوا حياتهم فاقدي الهوية بين عازف تعيش في أطراف أنامله روح الكون الابداعية، ومتدين يسعى لاستعادة هويته التي انتزعها منه الناس بسبب تلك الروح التي تسكن أطراف أصابعه، ويمضي ما تبقى من العمر مهمشا من قبل أشخاص يصرون على تثبيت هويته كزنديق، وآخرين لا يرون في تدينه أكثر من توبة قد لا تقبل.

التقى ماجد خلال رحلته إلى صنعاء ومن خلال جولته داخل سوق الملح برجل لا يرتدي الورزة اليمنية بل البنطال والقميص الغربيين ويلبس فوق قميصه المثني عند كميه سترة صدرية بنية؛ تدلت منها عدة سلاسل يبدو أنها ذهبية، يطلق شاربين بدا سوادهما متناقضاً مع بياض شعر رأسه الذي طال ونَعُمَ أكثر مما ينبغي .

كان الرجل يجلس في مدخل محل لبيع الآلات الموسيقية، على مقعد ذي سيقان معدنية تشد بعضها الى بعض قطعة قماش خضراء من ذلك الذي تصنع منه خيام الجنود والكشافة، وقد أمسكت يده بآلة عود يراها ماجد لأول مرة في حياته، تحلق من حوله بضعة شبان ورجال، راحوا يصغون إلى

عزفه البديع، يستمتعون بصوته المقبول وهو يؤدي على أنغام تلك الآلة الصغيرة الغريبة بتأثيرها أغنية (بدا كالبدر)، وقف ماجد بينهم يصغي ويتأمل، ويراقب حركات أصابع الرجل على أوتار الآلة الأربعة، ويده التي تتنقل بالريشة تنقلاً راقصاً موزوناً، حسب الابطاء و الإسراع، وكلما طرّب بعزفه وآدائه، صاح شاب : آه.. ! حتى أتم الأغنية بكامل مقاطعها، واحتضن الآلة على فخذيه، ودس الريشة في جيب سترته الصدرية، وأخذ يمازح المحيطين به بكلمات صنعانية، لكن بلكنة أميل إلى الغربية، فيضحكون لركاكة نطقه أحياناً، فيطلب منه البعض أن يسمعه أغنية أخرى، فيما هو ينظر إلى ماجد، وقد لفت انتباهه بحذره الواضح، إذ بدا أنه غريب بالرغم من نسبة الشبه العالية بينه وبين الآخرين في السحنة وباقي تفاصيل الجسم، وقال له :

- يبدو أنك لست من صنعاء؟

ورد ماجد بعد أن طقطق أصابع كفيه:

- ولست من اليمن كله.

فضحك الرجل لما فعله ماجد بيديه، وقال له :

- وكأنك تنوي التعارك؟ من أين أنت؟

وبرر ماجد تصرفه بأنه مجرد حركة عفوية نتيجة التعب من السفر، واخبره أنه لا يعرف أحداً في هذا البلد، ولا في هذه المدينة. ثم سأله عن اسم تلك الآلة التي تبدو كما لو أنها عود ولكنها أصغر بكثير، وبالرغم من أن بعض المواد التي صنعت منها تختلف عن المواد التي يصنع منها العود، إلا أنها تشبهه؟

- نعم هي آلة يمنية قديمة جداً جداً اسمها القنبوس ! هل سمعت بالقنبوس من قبل ؟
- لم أرها، ولم أستمع لنغمها من قبل ! هل يمكنني أن أحاول العزف عليها ؟
- ضحك الرجل، وقال له : آلتي هذه لا يمكن أن أسمح لأحد أن يمسها، فقد كلفتني مبلغاً ضخماً جدا من المال، وهي بالنسبة لي مقدسة، كما أن عمرها يتجاوز مئة وخمسين سنة.

ثم تدخل شاب يمني يرتدي إزاراً وسترة سوداء ، وقد شد إلى خصره الجنبية والخنجر اليمني، يغطي رأسه شماغ ملون، فقد اعتاد اليمنيون لبس الشماغ الملون، بعد أن يلفوه بطريقة تميز أبناء كل محافظة وكل قبيلة عن غيرها من المحافظات والقبائل، وسأل ماجداً :

- متى وصلت اليمن ؟

فأخبره ماجد أنه وصل مع صباح اليوم، وأنه مضطر للبقاء فيه أياماً، ولكنه لا يعرف مكاناً يناسبه للاقامة، فبادر الشباب يدعونه للاقامة معهم في بيوتهم وبين أسرهم مرحبين به، حتى تدخل الرجل العازف، وقال :

- ما دام الأمر هكذا، فأنا وحيد في صنعاء، بالرغم من أني أقيم فيها منذ أكثر من ربع قرن، أدعوك لتقيم معي هذه الفترة، وقد تساعدني في ترتيب منزلي قليلاً مقابل بدل اقامتك، فقد مضى علي وقت طويل لم أقم بتنظيفه وترتيبه.

وتغامز الشباب مبتسمين فيما بينهم، وفهم الرجل العازف مغزى تغامزهم، فنهرهم ضاحكا، وصاح فيهم :

- يللا .. يللا انكلعوا من هنا يا مخانيث.

فغادر الشباب ضاحكين، يردد بعضهم : " والله ما حد خنيث غيرك "

بقي ماجد برفقة الرجل الغربي والذي بدأ يجمع حاجياته، ويستعد للمغادرة، بعدها سلم على صاحب المحل، وأوصاه أن يرسل له مايقع تحت يده من مراجع، فهو مضطر لإنهاء عمله على الدراسة بسرعة فقد داهمه الوقت، وعليه إرسالها إلى فرنسا ..

هز الرجل رأسه موافقًا، وأومأ لماجد بكفه مناديًا، وهمس له :

- أتعرف من هذا ؟

- لا وأنى لي أن أعرفه ؟!
- هذا جون لامبير، مستشرق فرنسي أتانا قبل خمسة وعشرين عاماً، وهو يقيم بين عدن وصنعاء ، ويبحث في كل مجالات حضارة اليمن القديمة من أيام سبأ.
- إذا هو عالم آثار، وقد يخدمني فيما أنا في صدد البحث عنه؟
- ربما يا ولدي فهو باحث كبير..

وتدخل الغربي منادياً ماجدًا ليتبعه، فسارع يحمل عنه بعضًا مما بيده، ومشى خلفه مرددًا :

- كثر الله خيرك، والله لولا دعوتك كنت بتبهدل، وممكن أبيت ليلتي في أي زاوية في الشارع!
- انا جون لامبير، ناديني ب لامبير، وأريد أن أعرف سبب قدومك إلى اليمن ما دمت لا تعرف فيها أحدًا، فهل فيك روح الرحالة التي أبحث أنا عنها ؟

خطا لامبير طرقاتٍ وأزقةً صعودًا، وماجد يلحق به صامتًا، متجنبًا أن يسبب له أي إزعاج، فقد استشعر من ذاته أن هذا الرجل الباحث لا شك حساس، وهو منكب في لاوعيه طوال الوقت على مراجعات دراساته وبحوثه ورسم خطط لأمور جديدة، وقرر ضمنياً أن يركز ويصغي لكل ما يسمعه منه

ويراه فيه، وأن يتعلم منه أكبر قدر مما يمكنه أن يستوعب، فهذه فرصة لن تتوفر لمثله في الحياة.

وقف لامبير في أول الدرب المكونة من مئات الدرجات الحجرية؛ والتي ينبغي عليه أن يصعدها ليبلغ منزله، وطلب من ماجد الذي سأله مذكراً :

- ذكرني باسمك؟ آه تذكرت ماجد ..

وراح يشرح له مشيرًا بيده إلى قمرات المنازل الممتدة على ضفتي الدرج بألوانها الزرقاء والبنية والصفراء، وغيرها من الألوان التي جعلتها أشبه بألوان الإنارة الليلية في السوق الذي يتوسطه البنك الذي يعمل فيه خاصة؛ عند أوقات ازدحام السير في ليالي عطلة نهاية الأسبوع، أحس بشيء يشده من يده، ويطالبه بالمضي خلفه بعيدًا في عمق التاريخ، فتسلق بنظره الدرج متابعاً إصبع لامبير التي أشارت إلى شرفة مفتوحة تطل من نهاية الدرج في العمق المرتفع، فبدا المنظر كما لو أنه صورة فوتوغرافية لمصور محترف، من تلك التي اعتادت أن تنشرها بعض الجرائد في صفحتها الأخيرة والتي كان يحصل عليها من مكتب مدير الفرع، بعد أن كانت تصله نسخته كل صباح، فيضعها مراسل البنك على مكتبه مع فنجان قهوة، لتظل مكانها إلى أن يغادر الجميع دون أن يلمسها أحد، فيأخذها ماجد؛ ليقرأها خلال نوبة حراسته الليلة، ثم يحملها معه إلى البيت؛ ليتم بعض المقالات التي لم يتسن له قراءتها أثناء عمله، أحس بالقشعريرة تسري في جلده، وعزز الأمر

لديه نسيم رقيق عبر تحت قميصه فوق جلده المتعرق من الصعود، فهمس لنفسه :

- ليتني أحضرتك معي يا جوهرة ليتني فعلت، والحَمل مقدور عليه في أي وقت آخر!
- من هي جوهرة يا ماجد؟ هل هي ليلى العامرية، أم أنها من أولئك الفتيات اللائي يعتبرن محظوظات كونهن لم يلتقين شاعرًا عربياً، يشبب بمفاتنهن ؟
- هي زوجتي يا خواجة لامبيير، واعذرني نحن البدو..

فقاطعه لامبير قائلاً :

- أعرف، أنتم تكرهون الخوض في الحديث عن نسائكم وأعراضكم، وأقدر لكم هذا الجانب.

يقيم جان لامبير في حي القاسمي القديم في صنعاء والزاخر بمبان ذات طابع معماري حِمْيَرِيّ في عمارات تتكون من ثلاثة طوابق، دخل وهو يشرح لماجد مكونات الطابق:

- " الحوي " هكذا يسمون الفناء هنا، فماذا تسمونهم في ديرتكم؟

تنفس ماجد بعمق وهو يقول : ستعرف كل حكايتي، دعني أولا ارتاح من عناء السفر.

- حسن سأطلعك على أجزاء البيت كله، هناك الديوان، إلى جانبه الكَمَّة وهي غرفة لتخزين الاشياء، وهذا هو المْفَرّج، وهناك غرفة الطيرمانة أي غرفة الجلوس. يمكنك النوم في المفرج، فهو قريب من الحمام، ادخل لتنال قسطا من النوم والراحة، إذ ينتظرك عمل ليس بسيطاً عندما تستيقظ!
- وماذا ستفعل أنت؟
- أنا؟ ههه.. أنا عندي الكثير لأعمله، ولكني سأترك كل شيء، لأطهو لنا ما نأكله، فلا شك أنك لم تأكل منذ أن خرجت من منزلك!
- لا. لا تقلق لقد أعدت لي الجوهرة زوادة من بعض الأطعمة التي لا تفسد مهما طال تخزينها، وكنت كلما جعت في الطريق، آكلُ بعضاً منها، ولا زال هناك ما يكفيني لأيام.
- لا بأس، ولكني بكل الأحوال سأطهو، لنأكل معاً، وبعدها نبدأ تعارفنا الذي لا بد منه.

دخل ماجد المفرّج لينام، و جلس لامبير يعد الخضار واللحمة للطهو، وإلى جانبه كتاب مفتوح يقرأ فيه، وهو يقطع الخضار، ويقلب الصفحات برأس السكينة، متوقفاً عن تقطيع الخضار تارة ليركز في قراءة فقرة استوقفته معلوماتها، أو ليدوّن على هامش الصفحة بعض ملاحظاته التي يرجع إليها عندما يستدعي الأمر، حذرًا في تنقلاته داخل المكان الذي امتلأ بصناديق

الكتب ورزماتها، فقد امتلأت رفوف الخزائن وأسقفها، وأسطح الطاولات، ما اضطره لفرش الجرائد على الأرض، وستف الكتب فوقها أكوامًا أكواماً، فبان المكان مكتظاً بالكتب والمراجع والأوراق والدفاتر التي دون فيها آلاف الملاحظات، كأسس لبحوث ينوي نشرها، وتصديرها إلى الناشرين في أوروبا، والتي تتناول حضارة مأرب وسبأ منذ نشأتها، ولكن هذا الموروث الزاخر؛ يجعله يغوص عميقاً يوماً بعد يوم، ويوغل في البحث وجمع المعلومات وقراءة المراجع وزيارة الأماكن والبحث الميداني فيها لدرجة أن صار يخشى اللا عودة منها !

مرت ساعتان أعد خلالها لامبير طبقا من الخضار واللحم بالفلفل الأحمر الحار، والذي ما كان يستطيع تناوله قبل قدومه إلى اليمن ولكنه مع الوقت تمكن من التعود عليه، وباتت نفسه تطلبه لما له من خواص في فتح الشهية، وأعد إلى جانبه طبقاً من الأرز الأسمر، الذي طهاه بماء الطماطم، مع بعض قطع الباذنجان المقلاة، وقام بفرش مفرش من النايلون فوق الأرض، وزع فوقه صحوناً وملاعق، ثم طرق باب المفرج على ماجد، وناداه لتناول الطعام، ومؤكداً أن عليه ألا ينام كثيراً ليتمكن من ذلك ليلاً.

جلس لامبير قبالة ماجد يقدم له الطعام ويرحب به على الطريقة اليمنية، فيما كان ماجد يقاوم الحرج والشعور بالخجل والاستحياء من مضيفه، وراحت يده تمتد إلى الطعام ببطء وإحراج، حتى بدأ لامبير الحديث معه ليخفف

عنه الشعور بالغربة وانعدام الألفة، فأخذ يسأله السؤال تلو السؤال دون أن يمنحه الوقت ليجيب، منتقلاً من سؤال عن أهله وعائلته، إلى سؤال عن عمله، وآخر عن مدينته، وغيره عن ثقافته، وأسعده أن ماجد يعرف القراءة، فأخبره بأنه يحتاج إلى مساعدته في قراءة بعض المراجع كونه يعرف العربية، ثم سأله عن سبب قدومه إلى صنعاء وهو الذي لا يعرف أحداً فيها.

توقف ماجد عن تناول الطعام، وغير وضعية جلوسه، فضم ساقيه أمام صدره إلى بعضهما البعض وطوقهما بذراعيه، وعقد أصابع كفيه وشبكها تحت ركبتيه، وراح يهز رأسه، ولامبير يراقبه بصمت، ثم بدأ يسرد عليه أسباب قدومه إلى اليمن تاركاً لنفسه أقصى مداها في البوح والحديث عن هم يحمله وكثيرون من قومه ومنذ قرون، دون أن يلتفت أحد للتخفيف عنهم، لعل هذا المستشرق يوصل وجعه وصوته إلى من يصغي، في عالم يولي الحيوان رفقاً وحباً يكفي ربعه ماجد وقومه، ليعيشوا بكرامة وسلام، وتذكر مقولة لعلي " أجمل الحريات حرية تلك التي تجعلك تمشي طريقها وحيدًا ، فيما يطلق عليك من تأخر عنك النار في ظهرك، ويزرع من سبقك الألغام في دربك، وأنت تدرك أن الدرب صعبة ولكن الوصول حتمي "

- جميل أن تحمل روح فيلسوف!

وضم ماجد رأسه بكفيه وقد وارى وجهه خلفهما، وراح يتحدث بحزن ووجع أثر في نفس لامبير، وحرضه على المزيد من الإصغاء :

- أسوأ عادات مجتمعي تجريم الوعي والرقي عند الصدام مع الجهل والغباء، فالوهم والخوف والخنوع نتاج التربية الدينية المعقدة التي تناقلتها مجتمعاتنا عبر سياط الشيوخ والمسؤولين. والخيال والخبرات والشجاعة والجرأة والأنفة نتاج تربية البحوث العلمية والمعرفة والتشكي، ولشدة ما تقدس أمتي الماضي، صرت اشتمّ رائحة النفتالين في عقلي. الماضي ليس مقدساً؛ الماضي عبء وبكل أمجاده.
- أف.. أنت خطير يا ماجد، من أين حصلت على كل هذا العمق في الوعي والتفكير؟

ثم راح ماجد يخبر لامبير قصة علي ونواف وكيف غدا علي نوافاً، وكيف دفن علي المميز، ونهض نواف من إعاقته، وانطلق في الكون يمشي ويحلق وينجز، فيما ظل علي داخل طينه يعاني ضياع هويته التي يحلم أن يمتلكها يوماً، وقد خسرها إلى الأبد، فلا هو قادر على أن يكون نوافاً، ولا هو يتقبل فكرة دفن علي إلى الأبد، وكيف بآلاف من الشباب الذين تمتلئ سجلات التجنيس باسمائهم في أدراج مكاتب وزراة الداخلية، وهم فقط ينتظرون أن تشرق عليهم هوياتهم الورقية ليصيروا بشراً موجوداً حقيقة في تفاصيل الجغرافيا ويوميات الوطن، وفي الملفات، وليحملوا أرقاماً ضوئية (ديجيتال)

بكامل معاملاتهم؛ فيصبحوا بعدها جزءًا من نسيج العالم الرقمي. ثم توجه إلى لامبير بسؤال :

- هل يمكنك أن تتخيل نفسك عالقاً في هذه المدينة وفي حي القاسمي وفي هذا البيت دون أية أوراق ثبوتية تمكنك من النزول إلى السوق التي تغص برجال الأمن والشرطة التي تبحث عمن يهدد استقرار وسلامة البلاد، وأنت أول المرشحين لمثل هذه التهمة، فقط لأنك لا تملك أوراقا ثبوتية ؟! أتفهم معنى كلامي وأبعاده يا خواجا لامبير ؟

وهز لامبير رأسه وهو يقول :

- أستطيع أن أتخيل وأن أحس ما تقول، فقد سرق مني جواز سفري مرة وأنا في الطريق إلى هرر في إثيوبيا، وبالرغم من تلك التجربة أنا واثق أني لن أحتمل ما تتحدث عنه لفترة طويلة من حياتي، ولكن يا ماجد، لا توار حزنك باطباق جفنيك، فالحزن البهي أجمل من أن تحبس دموعه.
- الوجع الجسدي يخفف من الوجع النفسي يا سيد لامبير. خاصة اذا كنت مستقلا بوجعك، انا ليس لي نصف آخر؛ لاني أنا الأنا والهو ..أنا لا أقبل الانقسام مطلقاً، لذلك أشعر أن علي أن أمضي العمر مسافراً هرباً من وجع فقدان الاستقرار.

- اسمعني جيد يا ماجد : لا تبحث عن الخير في غير منبته، وأسوأ التكرار تكرار الذات، والسفر أقسى وأطول دروب تكرار الذات، بالرغم من كل ما فيه من وهم التجدد والتغيير، لكنك في آخر المطاف تضطر النظرإلى نقطة انطلاقك، لتتمنى عندها لو أنك بقيت هناك وما غادرت بتاتاً، فلكل مسافر هجرتان : هجرة من وطنه وهجرة إلى وطنه، وما بين الهجرتين في كل يوم ألف هجرة، وهجرة منه وإليه، والهجرة من الوطن أهون بكثير من الهجرة إليه، لأن حقائب الرحيل ليست كحقائب العودة، فحقائب الرحيل تحمل في جوفها كل دافىء وعذب من ذكريات ورائحة الوطن، فيما حقائب العودة تحمل موتاً بارداً باهتاً، فهجرة العودة تكون محملة باليأس والهزائم بعد أسفار أثخنتها الخناجر والسكاكين، لتقف وحيداً مودعاً من اتخذتهم أهلاً لك طوال سنوات، محاولاً العودة إلى أهل لا يمكنك أن تعرف حقاً إن كانوا قد بقوا أهلا لك أم لا.

ثم توقفا عن التحدث في الوجع؛ ليجيب عن أسئلة ماجد حول كل تلك الكتب المكدسة، وإن كان بامكان ماجد أن يقرأ فيها، و راح لامبير يحدثه وهو يغوص في تفاصيل جعلته ينسى ما أتى بسببه إلى صنعاء، ولامبير يشرح له مخطط خريطة معلق خلف ظهره وقبالة جلوس ماجد إلى الجدار.

****

جرادتا عبدالله بن جدعان

خلال سنواته الجامعية، تعرف لامبير إلى باحث يهودي يؤمن بفرضية تدعمها بعض الأدلة، تقول تلك الفرضية أن بني اسرائيل هم أقوام هاجرت من بلاد كوش القديمة (شمال السودان و جنوب مصر)، مروراً بشرق السودان و استقرت فيما تعرف حالياً باثيوبيا، ثم انتقلت عند طريق باب المندب الى اليمن، ومنها عبرت الساحل الغربي للبحر الأحمر الى بلاد الشام (الأردن و فلسطين)، والفلاشا اليهود هم أحفاد الكوشيين الذين استقروا في الجزء الشمالي الغربي من اثيوبيا المعاصرة، و تقول تلك الفرضية أن هيكل سليمان لا يوجد في القدس كما تروج له الكتابات الصهيونية، وانما موجود في اثيوبيا، وأن قصص مملكة سبأ و الملك سليمان كلها حدثت في إثيوبيا، و ليس في فلسطين.

وتقول الفرضية أن موسى كان واحداً من كهنة المعابد الدينية في كوش، وعلى وجه التحديد في واحد من تلك المعابد التي أقامها اخناتون، بعد إحداثه ثورة دينية أوصلت الناس ولأول مرة إلى فكرة عبادة إله واحد، ونبذت تلك الثورة عبادة الآلهة المتعددة. ولكن تلك الثورة فشلت، وأدت إلى الإطاحة باخناتون والقضاء على ثورته الدينية وملاحقة المؤمنين بهذه الديانة الجديدة، ما حمل العديد من كهنته وأتباعهم على الهروب، فقرر موسى الفرار من الدولة الكوشية المتمركزة في شمال السودان و جنوب مصر، ثم تبعه آلاف

الكوشيين، يدفعهم إيمانهم للسير وراءه ألاف الاميال؛ لا لشئ إلا لإيمانهم بأن من يقودهم لديه السلطة الدينية، حتى بلغوا شرق السودان الحالي، حيث تمكن موسى من تكليم ربه على أحد مرتفعات جبال السودان الشرقية، ثم انتقلوا إلى إثيوبيا التي انتعشت فيها اليهودية ليتم فيها بناء هيكل سليمان .

راقت تلك الفرضية للامبير وسخر حياته للبحث فيها تحت جناح البحث في الموسيقا والتراث الفني اليمني القديم، ولما كانت مملكة سبأ في اليمن القديم، توصل لامبير إلى احتمالية أن تكون قصة الملكة بلقيس والملك سليمان؛ قد دارت بين اثيوبيا أو بلاد الكوش قديماً واليمن وليس بين اليمن وفلسطين، وهذا ما يبرر انتقال الديانة اليهودية إلى اليمن عبر باب المندب، ومنها انتقلت إلى فلسطين مع قوافل تبّع التي خرجت في قرون ما قبل الميلاد إلى الشام وفلسطين في أكثر من مرة.

بدأ لامبير رحلته إلى اليمن بهدف نيل الدكتورا في الموسيقا اليمنية وتحديد في الإيقاعات فاستهوته آلة القنبوس، وعشق الروح التي كانت تسيل على أوتارها أثناء اصغائه لعزف الكوكباني؛ الذي اشتهر بمهارة العزف على هذه الآلة التي عُرفت في اليمن قبل الميلاد بألف سنة، والتي كانت تصنع كقطعة واحدة من شجرة الدباء أوالحور تلك الأشجار الفارعة التي عرفت بعشقها للماء، تعلم لامبير العزف على القنبوس، وراح يغني الأغنية الصنعانية؛ والتي تقول الدراسات أنها أصل الموشح الأندلسي الذي انتقل إلى المغرب

العربي مع جنود زياد وابنه طارق؛ الذين كانوا غالبيتهم من اليمنيين، فاشترى قنبوساً يفوق عمره المئة وستين عاماً كان من ممتلكات الفنان محمد الجماعي، وحمله إلى أحد أحفاد أشهر صانعي آلة القنبوس في اليمن محمد الوديدي، وأغدق عليه لصيانته وتجديده دون المس بروحه، ولا زال يحتفظ به ليعزف عليه ويغني، ويشارك في الأماسي الغنائية التي تعقد، كلما استدعى للمشاركة فيها كباحث في هذا المجال.

إلى الجدار الذي عن يمينه نظر ماجد ليرى إطاراً يضم لوحة بالفحم لفتاتين إحداهن تغني والأخرى ترقص، فراح ينظر إلى إحداهن ويطيل التحديق فيها، حتى نبهه لامبير قائلاً :

- جرادتا عبدالله بن جدعان يمنيتان ، وهما أول من غنتا عند العرب قديماً ، فتنت في صوتهما ورشاقتهما دون أن ألتقيهما، فقمت برسم تخيلي لهما، وعلقته كما ترى، لأني أحب أن أحمل ملامح الأشخاص الذين أعتقد بأهميتهم في رأسي. وتلك الصورة التي يظهر فيها ذلك العازف بردائه الممزق هي لمتوشلخ بن محويل بن عاد، والذي ذكر أنه كان معروفاً في أرض الأحقاف، واللوحة الاخرى هي لعلس بن زيد؛ وهو يمني أيضاً، كان ذا صوت عذب جداً لذلك لقب بذي جدن، بمعنى صاحب الصوت الطروب، وذاك الذي يحمل آلة الإيقاع هو طويس، وقد اشتهر في زمن خليفة المسلمين الثالث

عثمان، وهو أول من أدخل الإيقاع المنظم على الغناء، وأسس لما بنى عليه زرياب فيما بعد، ولقد رسمتهم جميعها كأشكال تقريبية من مخيلتي.

تبسم ماجد وهو ينظر إلى لامبير باعجاب، وقال له :

- أظن أن علس ذي جدن كان يدعى إلى الموائد والمناسبات ليغني، لذلك جعلتَ له كرشاً كبيرة تتسع للطعام والهواء، وجعلت أصابع طويس رقيقة لأنه عازف إيقاع، ولربما كان يعمل خبازاً..

فضحك لامبير، وهز برأسه يمنة ويسرة مندهشاً من ذكاء ماجد الفطري، وقال :

- أظنك أعمق مما توحي به ملامحك، وستكون بيننا صداقة مفيدة لكلينا، ولكن قل لي: ما الذي كنت تبحث عنه في سوق الملح ؟

مط ماجد شفتيه والتفت إلى لوحة جرادتي عبدالله بن جدعان، وراح يركز بنظره على سوار في ساعد الفتاة التي رفعت يدها إلى أعلى، وهي تؤدي رقصة، وراح يتنامى في مخيلة ماجد صوت الإيقاعات والموسيقا، وهبطت الفتاتان من إطار اللوحة إلى أرض المكان وراحت الراقصة تتمايل بجسدها الرقيق القصير، فيما كانت الأخرى تصدح بصوتها الذي تهتز عُرَبُه كما لو

أنها أوتار ذاك القنبوس المسند إلى زاوية المكان، ولم يطل به الوقت حتى تنبه إلى كلام لامبير:

- لا تستسلم لهما فلطالما حملتاني بعيدا خلفيهما، دون أن تدلاني إلى طريق العودة.
- لا تخف علي، ولكنه السوار الذي في يد تلك، لست أدري إن كان هو السوار الذي أبحث عنه أم أني واهم، فبالرغم من أن هذه اللوحة هي من وحي مخيلتك، إلا أني أرى أن هناك خيطاً خفياً، يربط بين السوار الذي أبحث عنه، وذاك الذي رسمته في يد تلك الفتاة.
- ربما توارد خواطر، فلست أرى أن لقاءنا هذا؛ لم تدبره الظروف التي جعلت المشترك بيني وبينك هو ذاك السوار الذي لم تخبرني حتى الآن قصته.

وراح ماجد يسرد على مسامع لامبير قصة سوار جده المفقود، ويحدد نقاط بحثٍ، عليه أن يبدأ منها، و أولها هنا في اليمن في سوق المُلْح .

****

لن يكون من يتكيء على غيره ليكون !

الثقافة التي تنتجها السياسة ثقافة مدمرة وسيئة مهما جملناها، والشواهد كثيرة في العالم، حيث اختزلت هذه الثقافة الحريات وحقوق الناس بخطب الأيديولوجيات التي تنتجها وتسيطر عليها. وهي على عكس الثقافة التي تنتج سياسة، لأنها ثقافة تشع بالحرية وتقدم نماذج جديرة بالحياة.

حمل كل من تقدم بطلب رقماً، ووضعه في مكان يسهل الوصول إليه، وحرصاً منه على عدم فقدانه قام البعض منهم بكتابته على جدارن المنازل أو على أوجه الأبواب الداخلية، لتقع عليه الأنظار عند الدخول وعند الخروج لعل رؤية هذا الرقم تكون فألاً لقراءته في قوائم مراسيم التجنيس التي قد تصدر في أية لحظة، وبدأ الجميع رحلة انتظار لن تنتهي في الوقت الذي يحلو للآملين.

بعد مرور أيام على إقامة ماجد في بيت لامبير، لاحظ عليه الأخير عدم الارتياح، فراح يلح عليه لمعرفة أسباب ذلك، وراح ماجد يخبره ما تداولته الصحف من أخبار وقعت على الناس كالصاعقة، والتي كان ملخصها : القبض على عصابة تستغل الناس بمراسم تجنيس وهمية، وراح يقرأ في مخيلته الأحداث، ويعيد قرآتها، لعله يجد ما يُكذّب ما بلغه من تطورات، ولعلهم يزودونه بخبر جديد يقول : أن الأخبار كانت تتحدث عن عصابة في بلد آخر، لا في بلده ، إلا أن الحقيقة نادرًا ما تضل طريقها، فقد ورد

في تفاصيل الأخبار، أن مجموعة من المزورين قاموا في تحضير ملفات وهمية ممهورة بتواقيع وأختام، لا مجال للشك في رسميتها، ليقتنع الناظر إليها لمجرد رؤية الأختام التي تحملها بأنها أوراق تجنيس رسمية لا لبس فيها.

وفي التفاصيل أن مسؤولاً رفيعا في الدولة، شكل فريقاً محترفاً من الموظفين المتقنين لفن التزوير والتعامل مع المغفلين، فأعد هذا الفريق طلباتٍ وأختامًا، وجهز الإجراءات بالشكل الروتيني الذي لا يبعد أدنى الشبهات عن مسار المعاملات الرسمية، وأعطى ذاك الفريق مواعيد وفقاً لأبجدية الأسماء، يقوم فيها المتقدم بعرض أوراقه؛ للتأكد من سلامتها واستيفائها الشروط الكافية، لينتقل إلى مرحلة ملء الاستمارة، التي تختم، وتمهر بتوقيع الموظف المسؤول عن المكتب، فيحصل كل صاحب طلب على رقم، يخوله المراجعة ومتابعة مسار تنقل المعاملة بين الدوائر المختصة، وصولاً إلى تلك الخطوة التي لم يتنبه لها كل أولئك الضعفاء الجشعين، ففي إحدى المراجعات؛ نمي إليهم من قبل أشخاص تم تجنيدهم لهذه المهمة تحديدًا، أوكلت إليهم مهمة نشر إشاعة تفيد :" أن الحصول على جواز سفر أفريقي بسعر يناسب ظروفهم، قد يسرع لحاملي أرقام الطلبات درج أسمائهم في مرسوم التجنيس بضمانة أشد من أولئك الذين لديهم أرقاماً ولا يحملون جوازاتٍ، وحدد مصدر تلك الجوازات بدول أفريقية هي : بوركينا فاسو أو بينين أو أنغولا.

وأعطي المراجعون كروتاً تحمل رقم هاتفٍ في حال قرروا الاتصال للحصول على واحد من هذه الجوازات، وحددت لهم القيمة المالية لكل جواز، مع ترك هامش للتفاوض على السعر وفقاً للدولة التي يصدر عنها الجواز، الأمر الذي عزز قناعة الجميع في مصداقية هذا الفريق، وأثار شهيتهم على التنافس حيال ذلك.

وراحت الاتصالات تتوالى على هاتف ذلك المندوب الذي كان يطلب صورًا شخصية بمقاسات محددة، ويؤكد على ضرورة تأمين نصف المبلغ عند الاتفاق وتأجيل النصف المتبقي إلى حين استلام الجواز، وأعطى سقفًا زمنياً مناسبًا قرابة الستة أشهر لاستلام تلك الجوازات، التي سيحصلون عليها من دول أفريقية وبشكل قانوني لا يقبل الشك، مدعماً كلامه بامكانية تجديدها عند انتهاء صلاحيتها من سفارة تلك الدولة، ثم أخبرهم بضيق المدة الزمنية المتاحة لتقديم الطلبات من أجل الحصول على جواز سفر، وأن الأسعار بعدها ستتغير؛ إذ أن تكلفة المعاملة المنفصلة أكثر من تكلفة المعاملة التي تقدم ضمن لائحة جماعية لعدة جوازات معاً، مع احتمالية أن يتحول الحال بعدها إلى ما يشبه السوق السوداء، التي قد تجعل الناس يدفعون أضعاف المبلغ المتفق عليه الآن، وتقول الشائعات أن عدد الذين حصلوا على تلك الجوازات تجاوز الخمسين الفاً، تسلمها بعضهم بعد مرور ستة أشهر، فيما حصل آخرون عليها بعد ذلك بفترات تراوحت من شهر إلى شهرين وثلاثة

أشهر إضافية، ثم منح المراجعون فترة زمنية محددة بغية إرفاق جوازات السفر بطلباتهم التي تقدموا بها في بداية الأمر، وعاد كل المتقدمين إلى منازلهم بأرقام جديدة علقوها إلى جانب تلك الأرقام السابقة فوق الجدران، وفوق أوجه الأبواب الداخلية، ليبدأوا بعدها رحلة انتظار تشبه بحرقتها رحلة القوافل التي كانت تقوم بنقل الملح عبر طريق سالاراي البرية على ظهور الدواب في روما القديمة.

ومرت الأسابيع والشهور بالأمل، ثم راحت تمر السنة تلو السنة بالوعود والتصبر حتى راح الخوف يتغلغل في أفكار وعقول وأجساد وهِمَم الكثير من المتقدمين، ويتنامى حتى صار قلقاً، خاصة بعد كثرة المراجعات اللا مجدية إلى تلك المكاتب، التي راحت تختفي الواحد تلو الآخر، تاركة أوراقاً معلقة على أبواب أقفلت، ذكر فيها عناوين لمكاتب جديدة، وأرقام هواتف وأسماء لموظفين جدد، راح المراجعون يبحثون عنها دون أن يجدوا لها أثراً، وجربوا الاتصال بتلك الأرقام آلاف المرات، دون أن يرد على مكالماتهم المهزومة أي من تلك الأسماء التي ذكرت، ثم اختفت تلك المكاتب والأسماء نهائياً، ووضعت أرقام الهواتف جميعها خارج الخدمة، فكأن كل ما كان بات كمشة ملح وضعت في بركة مياه، واختفت، مخلفة أولئك الناس بعد ما حصل، كما لو أنهم أكوام فحم بللها المطر وما عادت تصلح لغير التلف.

" أوتدري ما هو الفحم يا علي ؟! الفحم غصن قطع من شجرة خضراء، لا أنت غرسته في التراب فاخضر ونما، ولا أنت أحرقته فاستحال رماداً ودخاناً، بل أشعلت فيه النار، وخنقته إذ طمرته بالتراب.. كذلك هو الانتظار بلا وجهة يا علي !"

لا فرق بين خروج المرء من وطنه وبين خروج المقدس من دائرة قداسته، فكلاهما هبوط من علٍ وتعرية، لا يشعر باثرها إلا من عاشها، وخَبِرَ أوجاعها، لذلك يبقى الله محجوباً عن خلقه، فرؤية المقدس تنال من قدسيته.

وضع لامبير اسطوانة سوداء فوق الفونوغراف ثم وضع إبرة القراءة الدقيقة في دائرتها الصغيرة وتركها، وراح يخبر ماجدا عن الموسيقا التي بدأت تتعالى منها :

- إنها "سبعون ألفا" أكثر مقطوعات ليون ياناتشيك الموسيقية اشتهاراً، التي ألفها عام ١٩٠٩ ، تتحدث عن عمال مناجم الملح في سيليزيا، وسيليزيا هذه منطقة كانت في البداية تابعة لبولندا حتى عام ١١٦٣ حين أخذتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وأصبحت إقطاعية، ثم أصبحت بعد ذلك دوقية تحت حكم ملك النمسا، إلى أن فقدتها في حرب السنوات السبع ضد بروسيا، وأصبحت ألمانية عندما تمت الوحدة الألمانية عام ١٨٧١، ثم إندلعت الحرب العالمية الثانية التي انهزمت فيها ألمانيا وذهبت سيليزيا إلى بولندا التي استعادتها بعد

٨٠ عام تقريباً. ليخلّد التاريخ أهم المعارك التي حدثت فيها وأشهرها؛ والتي عرفت بمعركة حقل ليغنيتسا، التي جرت يوم التاسع من أبريل ١٢٤١ في إطار الفتوحات المغولية حيث أباد الجيش المغولي قوة مشتركة من البولنديين والألمان من النظام التيوتوني وغيرهم.

كان ماجد يصغي للامبير من خلال تركيزه المبعثر، فكأن صوت لامبير يأتيه من البعيد عبر تركيز مخيلته على ما جرى بعد ذلك من أحداث، إذ انقسم الناس في المخيم إلى قسمين، راح كلاهما يُدِينُ الآخر، ويحمّله مسؤولية ما حصل، فاتهم قسمٌ قسماً من الناس بالجشع والطمع، الأمر الذي جعلهم ضحايا سهلة للمخادعين، خاصة وأنها ليست المرة الأولى التي يُستَغلُ فيها سعيهم للحصول على الهوية الوطنية، فاتهم قسمٌ قسماً آخر بأنه تسبب في عرقلة حصولهم عليها؛ لما أبدوه من تشاؤمات واجتذابات سلبية أحبطت الكثير منهم على مر مسيرتهم القاسية مع قانون التجنيس، وحملوهم شعوراً بالذنب في كل ما يحصل لأبنائهم من مشاكل بسبب عدم إيمانهم بأنهم يستحقون الهوية، فكأنهم ألفوا حياة التيه بلا أية أوراق ثبوتية يحملونها، وجاء رد أولئك لتبرير تلك الاتهامات التي وجهت إليهم أنهم لن يبذروا قمحهم في غيوم تحملها الرياح إلى سماوات مجهولة، ولن يبذلوا جهوداً على أمر يعرفون مسبقاً نتائجه، فأجدادهم لم يحصلوا عليها من قبل، وهم لن يحصلوا عليها مهما سعوا، ثم تذكر كيف راح الناس يتقاطرون إلى مراكز الشرطة

لتقديم الشكاوى ، فتلقي تلك المراكز القبض على بعض منهم لعدم حيازتهم أوراقا ثبوتية، أو أنها تسألهم عنها، ليردوا بالصمت أو بمحاولات شرح طويلة، الأمر الذي جعل المستمعين إليهم من الشرطة يكتفون بطلب هوية لتثبيت الشكوى في محضر رسمي، وبالتالي عادوا بلا تسجيل أية شكاوى، وشكك بعض العناصر في بعض المراكز بأصول عدد من الراغبين بالشكوى متهمينهم بالتسلل إلى بلادهم عبر الحدود البرية والبحرية، وفتحت بحقهم محاضر تحقيق، وصودرت سيارات أولئك الذين زلت ألسنتهم، فقالوا : أنهم قدموا إلى المركز بسياراتهم الخاصة، وتكاثرت القصص على خلفية ما حصل، وشاعت أخبار عن فرار ذلك المسؤول الذي حصد ثروةً ضخمةً جداً، من خلال ما جمعه فريقه من رسوم استلموها عند تقديم الطلبات، بالإضافة إلى رسوم الجوازات المزورة، وأن الكثيرين من أولئك الذين عملوا معه أودعوا السجن لفترة بسيطة ثم خرجوا لعدم كفاية الأدلة في التهم الموجهة إليهم.

لاحظ لامبير شرود ماجد وتقطب ملامح وجهه جراء الشعور بالعجز والهزيمة أمام قوانين وضعها الأقوياء للنيل من الضعفاء، فقال له :

- ربما يكون واقعك مؤلماً بالشكل الذي يصعب عليك وصفه، ولكن بإمكان مَنْ تحمل هذا الواقع الأليم أن يتحمل مشقة رحلة التغيير، فقط ابدأ بها، وتذكر أشخاصاً بلا أرجل تجاوزوا واقعهم، وفاشلين

بلغوا القمم وأخرين أفلسوا ونهضوا من جديد، فالأمر في منتهى اليسر إن كنت تملك الإرادة. تخيل أن خرطوم النحلة الرقيق ينتج كخلية عشرين كيلوغرام عسلًا في الموسم، فهل إرادتك أرق من خرطوم النحلة ؟ لا أظن، واعلم أن اتكالك على غيرك هو إضعاف لذاتك.

ثم أعاد ملء كوب الشاي أمام ماجد، وسأله :

- هل سمعت برامبو يا ماجد ؟

فهز ماجد رأسه وقال :

- لقد قرأت له بعض أعماله، منها " المركب السكران "

ورفع لامبير حاجبيه دلالة على إعجابه بماجد، وقال له :

- أو تعرف لم سكنت أنا في هذا المنزل بالتحديد ؟
- ربما لأنه مطل وجميل، أو لأن أجرته قد ناسبتك.
- لا، ليس لأي من هذا، بل لأن رامبو كان قد سكن قبلي في هذا البيت، يوم أتى إلى اليمن.

وأخرجت هذه الكلمات ماجداً من دائرة التيه التي كان فيها، وأدخلته بحالة من الشعور المفعم بالقداسة والجلال، فهو الآن يجلس مع رجل لم يعرفه من

قبل ولكنه كما يبدو رجل ذو شأن، ويسكن في بيت سبق أن مر به رامبو، ومن يدري، فربما هو ينام في الغرفة التي نام فيها.

وأكمل لامبير كلامه لماجد :

- لا تبتئس، فجميعنا سنذهب إلى عالم رامبو، ذلك الشاعر الذي تألم كثيراً في حياته القصيرة، لشدة فرط حساسيته التي كانت سجية من سجاياه وقد عززت مرضه، فالعالم الذي نحن فيه يا ماجد عالم حساس، وهذا النوع من العوالم لا يواسي الإنسان مهما تألم، ومواساة الإنسان لا تكون إلا في عالم اللا إحساس، وذاك العالم لا يقع إلا خارج الإنسان، ولبلوغه عليك أن تخرج من هنا إلى الأبدية التي قصدها رامبو، لقد كان يحمل رامبو في داخله صوتين قاتلين: صوت البحث عن خلاصٍ من الوجع المادي في هذا الكون، وصوت الإبداع الذي كان أشد قسوة عليه؛ والذي هو في الوقت نفسه سعيه للخلاص من الوجع الداخلي؛ الذي لا يسكت إلا إذا سكنت الحياة في الجسد.

كانت النغمات الموسيقية تتناثر في فضاء المكان تناثر فقاقيع الصابون الشفافة؛ تلك التي كان ينتجها ماجد من لعبة الطفولة التي كانت تأتيه بها أمه قبل وفاتها؛ من مخلفات النفايات التي كانت ترسل إلى مكبها الكبير قرب المخيم، ذلك المكب الذي أقامته الشركات الخاصة الموكل إليها إزالة

النفايات من المدينة بمحاذاة المخيم؛ عن قصد لإجبار ساكنيه على الرحيل عن المكان بهدف الاستفادة من الأرض التي أقيم عليها، إلا أن سكان المخيم دفعوا أثمان صمودهم للبقاء في بيوتهم الكثير من صحتهم وصحة أطفالهم والكثير من كرامتهم، فليس بالأمر اليسير أن يقبل المرء الإقامة بالقرب من مكب نفايات، حاولوا بكل ما أوتوا من إرادة منع قيامه في البداية، ولمّا فُرِض عليهم؛ راحوا يعيقون وصول الشاحنات التي تنقل النفايات إليه، ويعتدون على سائقيها، إلى أن بلغوا مرحلة التعامل مع المكب كأمر واقع، ثم صار يشكل مصدر رزق للبعض منهم، والذين كانوا بعد انتهائهم من جمع ما يصلح منه للبيع أو الاستخدام، يقومون بإشعال النار فيه، فيتعالى دخانه، ويهاجم المخيم، ليطرح العديد من سكانه في الفراش لأيام دون دواء أو علاج، وأحس ماجد بنشوة فرح في روحه، تشبه تلك النشوة التي كانت تعتريه، يوم كان يلاحق تلك الفقاعات محاولاً تعليقها على حافة المضرب البلاستيكي الصغير كلما أنتجها، وراح يفكر كيف تفسد المتع حياة الناس في المخيم، إولئك الذين خلقوا فقط للحزن والألم والمعاناة، وتذكر يوم كتب عبارة المتع المفسدة لأول مرة على جدار منزله، وراح يحاول شرحها لجوهرة التي وقفت تتأمل محياه المنفعل أثناء ذلك، وانهالت عليه بعدها بالقبل والعناق، وتذكر كيف أفسد حياته بالبحث عن المتعة في القراءة والإصغاء للموسيقا والبحث عن كثير من تلك الأمور التي شوهت ماجداً القديم، ذلك الذي خسره منذ أن صحا على رغبة التغيير والسعي للحصول على السوار

والهوية الوطنية. ودون سابق تنبيه منه راح يصفق للموسيقا التي بلغت إحدى حركاتها ذروتها في التعبير، ويقول للامبير :

- أنا أصفق لها لأحتضنها في تصفيقي، فقد تحولت أنا وهذه الموسيقا إلى كيان واحد، فالموسيقا يا خواجا لامبير تفرض على المستمع أن يعيد بناء حوار مع ذاته، وليس مهما نوع الحوار، فسواء كان حوار تصالح أم حوار تخاصم، يبلغ المرء في هذا الحوار عوالم عجيبة، فالموسيقا تعلمنا مقاومة التحديات، وتجنبنا السقوط عند الهزائم، فهي أجمل أنواع الحنق والغضب والتمرد على الواقع، لقد حدثت في مخيمنا يا سيد لامبير كثير من حالات الموت التافهة، وكم أستغرب كيف تمكن أولئك الأشخاص من الموت في سبيل لا شيء، فقد ماتوا فقط لأجل تخيلاتهم المتوحشة عن عالم يصعب العيش فيه.

كان لامبير ينظر إلى ماجد و يصغي إلى ما يقوله بدهشة وإعجاب شديدين، فلم يسبق له أن التقى بشخصية عربية بسيطة مثيرة للجدل كما ماجد، فسأله عن سر وعيه وعمق طروحاته، وعن دوافع حبه للقراءة ؟

وأخذ ماجد يروي له زيارة بائعٍ جوالٍ إلى مخيمهم، وكيف قام ذلك البائع بخداع أمه بعد أن باعها أشياء رخيصة جداً بثمن غالٍ جداً، وغاب في تلوي أزقة المخيم، التي كان يبدو بريق الأبخرة المتصاعدة من رمالها كما لو أنه بريق حراشف أفاعٍ، من تلك التي كان يراها تسير في المساحات الصحراوية

الممتدة خلف المخيم بلا تناه، بعد أن أتت من بعيد قاصدة بقايا الطعام والجيف في مكب النفايات الذي يكبر يوماً بعد يوم، وكأنه في سباق مع هذا المخيم الذي يكبر كل عتمة بالقدر الذي تمكنه عزيمة ساكنيه منه، وبالرغم مما فاضت به حياة أولئك الأثرياء المتبجحين بها على هؤلاء الفقراء في كل شاحنة تنقلها إلى جوارهم، وحين عاد والده من عمله في المساء، وبعد أن غسلت له أم ماجد قدميه وقدمت له الطعام، روت له ما فعلت ظنا منها أن ما فعلته من صنوف النباهة، فطلب منها أن تحضر الأغراض والمبلغ المتبقي معها، ولما تبين له حجم الخديعة التي وقعت بها، ومقدار المال الذي سُلِبَ منها، تناول حزامه المعلق إلى الجدار، لف طرفه على كفه وأحكم قبضته عليه، وراح ينهال به عليها ضربًا، ويشتمها، ويسبها، ويلعنها؛ ويلعن الساعة التي عرفها فيها، ويحاسبها على التصرف من رأسها دون تخويل منه، فتتكور بجسدها المريض تحت صفعات حزامه في زاوية الغرفة، ويتكور ماجد في رحمها خلف الباب حزناً وبكاءً وعجزاً، إلى أن أعيا التعب أباه، فلبس نعاله، وغادر المنزل، ولم يعد إلا بعد أن نام الجميع في ساعة متأخرة من الليل حزيناً، يخفي عتابه لنفسه بوجه لفه بشماغ أحمر، فهو يعلم أنها وبالرغم من كل قسوته وسوء معاملته لها، تظل تحبه، وتحترمه، ولا توجه له أية كلمة جارحة مهما بلغ به الغضب، وكانت بالرغم من أميتها البشعة، تدعي النوم إلى أن ينام أطفالها، لكن ما إن تطأ قدمُ أبي ماجد العائد من سهرته متأخراً عتبةَ الباب، حتى تنهضَ من فراشها، فتعد له الطعام، وتقدمه

له، معتذرة عن فعلتها، ثم تمنحه ما تبقى من جسدها، وتتوسد ذراعه لتنام كما لو أن شيئا لم يكن.

ثم أخبره كيف راحت تبرر للابن فعلة الأب معها، بقولها أنها تستحق الضرب؛ لأنها لا تقرأ ولا تكتب، وأن أباه يدفع ثمن ما أضاعته من نقود أياماً وجهداً من عمره وجسده ومن اعتباره في خدمة الناس في البيوت، وأن عليه أن يتعلم القراءة والكتابة؛ كي لا يتعرض للخديعة، فيتلقى الضرب من أبيه، ومن أولئك الأشرار الذين يقيمون صروحهم على غباء الضعفاء وطمعهم المسير بهوجائية وضوضاء، تفننوا في استخدامها لخدمة مصالحهم في الحياة، وتذكر كيف كانت تجلب له الكتب والجرائد والمجلات من مكب النفايات ومن بيوت الناس في المخيم، وتجلس إلى جانبه، تحثه على القراءة والتعلم الذاتي، فسالت دموعه وغطى وجهه بكفيه، وراح ينتحب معتذراً للامبير عن هذا الضعف، ثم مسح دموعه بردنيه، وبدأ يخبره عن محاولاته في تعلم العزف على العود، إلى أن أقلع عن ذلك لعدم قدرته على شراء تلك الآلة؛ التي تعلق بها حين شاهد أحد العازفين يحتضنها، كما لو أنه يحتضن حبيبته الجميلة، ويداعب شعرها، فتتساقط منها النغمات كما لو أنها صباحات فرح، يصعب التقاطها لاختفائها السريع خلف الأرواح المنتشية في أجساد أولئك القاطنين وراء جدران، تخفي خلفها من المقتنيات ما يصعب على خيال هذا الطفل الصغير المحروم؛ أن يفهمه، أو يفسر عدم قدرة أسرته في

الحصول على هكذ آلة، يشهدها الكثير من تلك السهرات، التي كان يصطحبه والده إليها، ليساعده في خدمة من يقيمونها، فيستمتعون بالموسيقا والطعام والضحك والنساء، تاركين له ولأبيه النفايات التي كانا يزيلانها، وينظفان مكانها، ثم يجمعانها في أكياس، يضعانها عند مدخل القصر؛ لتحملها شاحنة النظافة إلى جوارهم، فينعفها سكان المخيم في اليوم الثاني بحثاً عن ما يناسب منها، لتخلف هذه الليالي فوق وجه أبيه صمتاً مكثفاً، يَعْمُقُ فيه تشرداً وغربة؛ تتشجر في دواخله وجعاً وحزناً وقرفاً ومزيداً من الضعف، ليقيم في تلك المشاعر المحبطة ردحًا طويلًا من الزمن عاجزًا عن مواراته؛ كلما نشد النوم مساءً.

ثم توجه ماجد إلى مضيفه قائلاً :

- إلا أني أرجو ألا تحولني يا سيد لامبير إلى شخصية من شخصيات كتاباتك، وتجعل مني موضوعًا تبني عليه مواد تأليفك، فأبشع ما يمكن أن يحصل للإنسان هو أن يصبح موضوعاً ليس أكثر، وتغدو مشاعره وظروفه وتفاصيل حياته المؤلمة سلعة يمكن تسويقها وبيعها للترفيه عن أولئك الذين أفر من تذكر سياطهم في روحي.

استغرب لامبير قدرة ماجد على كل هذا، وكيف له أن ينسحب من أسراره الخاصة إلى عالم جليسه، يشاركه كل تلك التفاصيل على مستوى عالٍ من التركيز والادراك. و يتساءل في نفسه عن السبب الذي يجعل حكومة تحرم

مثل هذا النوع من البشر حقه في هوية تمكنه من العيش كغيره، ثم أمسك آلته الموسيقية وراح ينقر على أوتارها، ويدندن مع موسيقاه كلمات، جعلت عذوب صوته وملامحه وانفعالاته أثناء غنائها، تولد في ماجد إحساساً؛ فرض عليه السؤال عن لغة ومعاني الكلمات التي يدندنها هذا المستشرق المليء بالغرائب، فأخبره أنها كلمات نص أمازيغي سمعه من مهاجر جزائري، التقاه في مترو ركبه من مارسيليا التي وصلها عن طريق البحر قادماً من أفريقيا وهو في طريقه إلى باريس، كان المهاجر يعزف على آلة الكمبري البربرية (لوتار) التي اشتهر بها المطرب محمد رويشة في جبال أطلس، ويغني:

" أحلام الفقراء كالعصافير الباردة في فصل الشتاء/ كسراويل الأطفال الفضفاضة/ تحتاج من يثبتها كلما انزلقت/ كقصة بين عاشقين بسيطين/ يزيد حبهما كلما شاركا الناس أسرارهما/ كصور جمعها مقطوع من شجرة عن مواقع التواصل الاجتماعي/ لا يعلم أياً من اصحابها/ لكنه وفي كل مساء/ يرسل إليهم أمانيه الطيبة وبعض القبل/ أحلام الفقراء ليست عظيمة/ مجرد أشياء بسيطة/ لكنها تحتاج إلى معجزات.

كلفت لامبير خمسة وأربعين يورو، ليقنع المهاجر الجزائري، بإعادة عزفها وغنائها وترجمتها إلى الفرنسية، وقد قام لامبير بتصويرها بهاتفه الشخصي.

ثم أخبره كيف أن ذلك الجزائري قد تخلى عن هويته، ليتخذ من مترو متنقل مسكناً له، يقضي العمر يحاول هوية يصنعها لنفسه بنفسه، ضارباً بالاستقرار والانتماء والأوطان عرض الحائط، فما قيمة جغرافيا تسأل كل صباح أطفالها النشيد وتحية العلم والجندية لوطن يصب في أرواح أبنائه الحزن والضياع عبر أغاني تقطرها الأرواح والأجساد المطحونة تحت رحى العوز في بكاءات مموسقة، يقال عنها ذاكرة المجتمع الانتمائية، لكنها ليست أكثر من صراخات سكان ذلك العالم السفلي في كل مكان.

ثم راح لامبير يسأل نفسه : ماذا يتبقى من الفرد حين يسمح للآخرين باقتحام أسراره، بعد أن يولجهم عمقها، لتسقط الخصوصية مع كل خطوة نخطوها داخل غابة الأسرار، والأمر الذي يعرض الحياة للتهدم والتحطم أمام أول اهتزازات قد تحيق بالعلاقات الشخصية، وكيف لبسيط كهذا الانسان أن يعي الفرق بين الانسان كذات والانسان كموضوع، ويخشى على ذاته من الموضعة والاستغلال؟

حضر علي بكل تفاصيله في روح ماجد كمهاجر، فهاج شوقه إليه، وراح يتواصل معه بمخيلته مستنهضاً كل الأفكار التي قرأ عنها في كتب الباراسيكولوجيا، موجها إليه رسائله:

- أتدري يا علي أننا عندما يحبنا الضعفاء نسيء الظن فيهم، وعندما يحبنا الأقوياء نشعر بالثقة بالنفس؟! يا علي، فأنا أحتاج إلى بعض

الهواء وكل الحب، ولكن انشغالات الكون في الموت الأسود تجعل الأمر أعقد من حاجاتي، فإله ينتظر عباده أن يحسموا خلافاتهم حوله، ومزادات تشتعل بتلويث شغف الناس بمنافسات مفككة، ونحن نستجدي الحب بما تبقى فينا من روح المغامرة، فما عاد بالامكان فتح نافذة على مصراعيها لكثرة غبار الحروب وقلة الأيدي الملوحة، وبالرغم من كل هذا لا نمل الانتظار.

سمع لامبير ما يقول، وسأله ممازحاً إن كان يخاطب جنياً، أم إنه يقول الشعر، ثم سأله عن علي الذي سمعه أكثر من مرة يردد اسمه، وما قصته هذا العلي؟ فهل هي واحدة من قصص عشاق الغلمان تلك التي يعيشها البعض، ولا يتجرأ على الحديث عنها؟

فما كان من ماجد إلا أن أسند رأسه إلى الجدار، وراح يغني شعراً نبطياً على مقام الحجاز، تاركاً لامبير يحاول مجاراته في العزف على القنبوس:

" ما دمت تنشد يا رفيقي عن الحال/ مالي على كتمانها عنك حيله

الصبر عن بوح الأحاسيس قتّال/ والبوح في بعض المواقف فشيلة

ولو كل ما يطري على البال ينقال/ ما كان شفت أن الثقيلة ثقيلة

أبطيت أكافح ضيقة البال بالبال/ وادفع بلا هواجسها كل ليلة

لين أقبلت مثل السحابة بهمال/ تشفي غليل اللي تزايد غليله

إن قيل ترعد قلهم : صوت زلزال/ وان قيل تبرق شف لها أدناة حيلة

ما بي تناقلها هل القيل والقال/ وتصير من بعد القصيرة طويلة

يا علي ماني عال ولو صحتي عال/ شفني من الصدمات نفسي عليلة

أشيل حمل لو يشيلنه جبال/ الله، وأمانه غيرة تصبح نثيلة

من كثر ما شفت بحياتي انذال/ بديت أشك إن النذالة فضيله

ما طاح من عيني رجل، طاحوا رجال/ ورجال يابن حنيف ماهي بقليله

المال، يابن حنيف، ملعون أبو المال / ذل العزيز، وعز ناس ذليله "

أصغى لامبير له بشغف حتى توقف عن الغناء، فسارعه بسؤال :

- هل هذه القصيدة من تأليفك ؟
- يا ليت! يا ليت يا خواجة لامبير، هذه كلمات واحد من أبناء جلدتي وهو شاعر عرفه الناس؛ وصار هوية لنفسه ولنا جميعاً، وإن لم يتمكن من حمل ما نسعى إليه جميعا حتى اليوم، إنه الشاعر خلف المشعان.

أسند لامبير القندوس إلى الزاوية التي كان فيها، وعاد باتجاه ماجد قائلاً :

- حين وصلت اليمن قبل سنين طويلة، كنت مثلك تماماً فاقداً للهوية، فلا أعرف أحداً هنا، ولا أحد يعرفني، ولا أفهم لهجتهم ولا لغتهم، ولا

هم يفهمون فرنسيتي، وبات وجهي وشكلي بالرغم من انفتاح بلادهم على السياحة؛ يشكل لهم تهديداً، فكنت ألاحظ النظرات الحذرة والمرتابة أثناء مروري أو تأملي لشيء ما في الشوارع التي أدخلها، إلى أن فهمت أنّ الأمر يتطلب شجاعة عالية، فقررت أن أحمل هويتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية، وما عدت أذكر أين أضع أوراقي الثبوتية، بل لم يعد أحد منهم يهتم لأي منها، فالهوية الحقيقية يا ماجد هي الثقة التي تنبع منك، وليست تلك الأوراق التي تكون أنيقة ومذهبة وملونة، فتدهشنا ببريقها عند استلامها.

يمكنك أن تنجز الكثير يا ماجد وبدون هوية، إن آمنت بنفسك، فالأمر لا يتطلب منك أكثر من الثقة بالنفس.

هل تعتقد أن كل الذين أنجزوا في التاريخ البشري؛ أنجزوا لأنهم كانوا يحملون أوراقاً ثبوتية ؟

لقد قرأت كل تلك الكتب التي تراها عن يمينك وعن يسارك، ومن أمامك وخلفك متراكمة في هذه الغرف، ولم يخطر لي سؤال هل كان أحدهم يملك هوية مميزة تمنحه النفوذ والخصوصية، أم أنه كان بلا هوية؟ وهل أن أحدهم كان يضع أوراقه الثبوتية أمامه ليتأكد من ذاته وهو ينجز ويحقق؟ تأمل جيدا ذاك القنبوس، كم من يمني أو عربي أو كم شخص على مستوى العالم يعلم هوية صانعه الأول؟ لقد عبرت هذه الآلة الجغرافيا والتاريخ والزمن بقوة صانعها على

الفعل، وليس بقوة القبيلة أو الجغرافيا التي ينتمي إليها ذلك الصانع، فالهوية الحقيقة للإنسان هو ما يقدمه للبشرية، وليس ما يسلسل نقاء دمه عبر مئات الأجيال، فهل تعرف شيئا عن هوية آديسون، بالطبع لا ولكن العالم كله يعرف أنه مخترع ذاك السلك الرقيق في مصباح، والذي غير مسيرة الضوء في الكون.

قل لي يا ماجد ماذا تعرف أنت عن تاريخ قبيلتك، أو عن اليمن وتاريخه القديم؟ وهل ستقف مجرد أوراق بينك وبين دورك كإنسان؟ أتعرف كم من حضارة تمازجت في مكونات هذا البلد من تراب وصخور وكائنات حية وفكر وثقافة وأديان، هل تتخيل لو أننا تمكنا عبر اكتشاف علمي ما من أن نستعيد صورة تحاكي الحضارات التي مرت بهذا البلد، تأكد أننا سنحصل على ما يشبه أبراج التجارة التي قامت الدنيا ولم تقعد لتهدمها والكل اتهمك أنك أنت الفاعل، أين كل تلك الحضارات يا ماجد؟ قليل منها ترك اليسير مما يدل عليها، والكثير الكثير بات أشبه بالملح الذي تنتج البشرية منه يومياً آلاف الأطنان، ليذوب ويختفي في وعاء التاريخ، الحضارات التي أقف عليها أنا وأنت هنا في هذا البلد، ذابت كالملح في هذا الوعاء الصغير الذي تسمونه الجزيرة العربية، والملح المذاب لا تستطيع رؤيته، ولكنك تتذوق طعمه داخل المياه الحاضر فيه، كذلك

الحضارات المندثرة هي ملح الإنسانية الذي لن يزول من الجغرافيا والتاريخ مهما حاول الآخرون إذابته.

كان ماجد يصغي فاغر الفاه، يتابع بمخيلته دلالات وأبعاد كل عبارة وجملة يقولها لامبير، الذي قال له :

- أتعرف شيئا عن تاريخ الملح يا ماجد؟ مشكلتكم أنتم العرب أنكم تملكون كل الخامات الأساسية للحضارة، وتملكون كل أركان التاريخ التي أثرت في تاريخ البشرية وحضاراتها، وهنا في أرضكم تدفن ملايين القصص والشخصيات والآثار، ولكنكم ومع كل أسف لا تأبهون لكل ذلك، وعلينا أن نأتي نحن من الغرب إلى هنا لاكتشافها واعادة إحيائها وتقديمها للبشرية بقالب وشكل يليق به، ثم تخرجون أنتم في مظاهرات تتهموننا فيها بأننا مستعمرون واستغلاليون وما يشبه ذلك من العبارات التي ما عادت تتسع الأوراق لها في خطاباتكم الصوتية .

وأراد ماجد التعليق إلا أن لامبير أشار له بيده؛ ليبقى صامتا، وأكمل :

- الأمر مثل النفط تماماً، تملكون خاماته وبكميات ضخمة في صحرائكم التي تذرعها الجمال بطولها وعرضها، دون أن تتمكنوا من تحديد أماكن تخزينه ولا من كيفية استخراجه، حتى أتينا واستخرجناه، ولكنكم وقعتم في مشكلة جديدة، ألا وهي تكريره ليصبح

مادة صالحة للاستخدام، وكذلك كان لا مفر لكم منا لفعل ذلك، وها نحن نأخذه خاماً ثم نعيده لكم أصنافاً تستخدمونها أنتم وكل العالم. كذلك حضاراتكم المدفونة هنا يا ماجد إنها بحاجة لعقولنا للبحث عنها، وإيجاد بقايا عناصرها ، وتحليلها وتقديمها للبشرية كإرث تنحني له القامات إجلالا.

هل تنبهت إلى ما يحصل في سوق الملح؟ الباعة يبيعون التاريخ مرة بالكيلو، وأخرى بالقطعة، وغيرها بالجملة، يتعامل الباعة مع قطع أثرية منذ آلاف السنين كما لو أنهم يتعاملون مع حبة بطاطا، كل ما يعنيهم كم هو المبلغ الذي سيجنونه من بيعها.

لكننا في بلادي ننفق على دراسة حجر نشتريه منكم بأقل من عشرة دولارات آلاف الدولارات لنتمكن من تحديد ماهيته وتاريخه ووو، ثم نضعه في متحف كاللوفر ليشاهده الملايين فيعود على دخلنا القومي بالمليارات. أتفهم ما أقول يا ماجد؟ كمية الملح في طبخة مكونة من عدة أصناف تشكل فرقاً كبيراً في مذاقها، كذلك فهم التاريخ، الملح هو التاريخ يا ماجد، والتاريخ هو الملح، متى ستفهمون هذا؟ والثروات ملك العقول التي توظفها.

ثم صمت لامبير، وظل ماجد مطرقاً، إلى أن قال، وكأنه يحدث نفسه :

- أحياناً تمر أشهر وسنة دون أن يحصل في حياتنا ما هو أكثر من رتيب، حتى يأتي يوم واحد – مجرد يوم – تحصل فيه أكثر الأحداث والمفاجآت التي تغير حياتنا كلياً، دون أن نفهم كيف حصل هذا، لا أحد يمكنه أن يفسر الأمر.

****

أتدري يا علي لم التمثال في وطني أضخم من سواه؟

لأن الحجر اقدس ما عبدناه، وهو الوحيد الذي لم يخدعنا.

ياعلي إن السعادة ليست في ما تركض خلفه، بل هي في كل ما تهمله فيك، وتذكر أنك إن أطلت فترة إهمال ما فيك أنت، ستجد نفسك كمن أنزل دلوه في بئر رمست معالمه وجفت مياه.. ولا نبع سواه!

تعرّف علي في الجامعة إلى رجل لبناني في العقد الخامس من عمره، اعتاد الجميع منادته بجو، يعمل في تحضير المختبرات العلمية لتكون جاهزة لاستخدام معداتها من قبل الأساتذة والطلاب، وباتا صديقين، وصار يخرجان معاً في غالب الأحيان ترافقهما إيزا التي باتت لا تستطيع أن تمضي نهاراً دون أن ترى علياً.

ذات يوم و بعد أن خرج جو من الحمام يلف خصره بالمنشفة، وقد أدار ظهره لعلي، وراح ينظر في المرآة ليجفف شعره بأصابع يده التي كانت تتغلغل في خصله الناعمة، لفت انتباه علي ندبة غائرة في كتف جو التي بدت أضعف من سواها، وظن أن الاسباب التي تركت هذه الندبة، ترجع إلى حادث سير، غير أن جو عرف من خلال المرآة، أن علياً يراقب الندبة التي يحملها في كتفه، فقال له :

- أظن أنك وبصفتك تدرس الطب تتساءل عن السبب الذي خلف هذه الندبة في كتفي ؟

- الذي لفت انتباهي يا جو أنها تشير إلى أن الجرح الذي أصابك كان كبيراً جداً، فهل هو جراء حادث سير ؟

ارتدى جو ملابسه وامسك كوب ماء، شرب منه رشفة، ثم قصد كنبة تقابل جلوس علي وإيزا التي كانت عن يمينه، وأشار إلى عوده الذي يركنه في زاوية الغرفة عن يساره، وبدأ يسرد قصة هذه الندبة:

- عام ١٩٩٠ وبعد أن فررت من المخابرات السورية إلى قبرص عبر مرفأ جونية على ظهر سفينة فيكتوريا ١ التي كانت تابعة يومها للقوات اللبنانية، دخلت بعد منتصف الليل نايت كلاب " كريزي هورس " في نيكوسيا وكنت أتأبط عودي، جلست بالقرب من الباب، تسللت إلى طاولتي فتاة من مصر، وراحت تمسح العود براحة كفها كما لو أنها تمسح خد رضيعها، ثم همست لي باساليب التحايل على الخدمة؛ كي لا أدفع الكثير من المال مقابل الجلوس معها، وبلمح البصر وضعت أمامنا قنينتين فارغتين من بيرة أفروديت المحلية الصنع، وظلت تواصل حديثها معي، كنا في المكان بضعة أشخاص بالإضافة إلى همومنا وأحزاننا الغريبة، طلبت مني أن أعزف وأغني، فاحتضنت عودي؛ ورحت أعزف وأغني عراقي على مصري على لبناني، وسط دهشة الحضور وإصغائه، التفت إليها فلمحتها تبكي! فالتزمت الغناء، وتجنبت سؤالها، حتى أدركت أنها

ارتاحت ، غادرت المكان معها الى باب سكنها وعدت إلى دير كان يؤويني محبة للانسان، في اليوم التالي وجدت آمال في باب الدير تسأل عني لتخبرني أنها وجدت لي عملاً في النايت كلاب كمغني ب بعشرين باوند قبرصي عن كل ليلة.

غادرت قبرص إلى أستراليا، وبقيت الرسائل الورقية تربطنا لشهور ثم اختفت آمال، لا أعرف إن كان هذا هو اسمها الحقيقي أم أنه مجرد اسم، اليوم زارتني أمال في الحلم، لذا أفقت وأنا أسأل عنها، وأتلمس هذه الندبة، وها أنت الآن تراها وتسأل عن أسبابها، حقا إنه يوم الندبة. ليتك تطلين من إحدى نوافذ العالم الافتراضي يا آمال.. لأني نسيت أن أقول لك شكراً حين غادرت قبرص.

في الغربة يا علي يصبح الحزن مدينة أشباح يشع من شبابيك عماراتها كثير من البعد شديد الحلكة، فتحاول أن تسد ثقوب الحزن فيك بأصابعك التي تتحول بشرتها إلى سوداء قاتمة؛ ما يدفعك إلى دفن وجهك في حضن وسادتك الأقرب إلى وجعك، يؤرقني يا علي أن جسدي يتغير ويتلف ويتهرّأ، فيما تظل روحي تشتهي الحياة، آه كم يؤلم نفاذ النور من أجسادنا، أجمل ما في جسد الإنسان وآلية عمله هو أنه – وبعد فترة من الحياة – يصبح مستعدا للتخلي عن أهميته فيشتهي الموت ويحصل عليه؛ ليلقي عبأه عن كاهل الروح،

فأرحم ما منحنا الله هو هذا الاستعداد لقبول أقسى نهاية لعلاقتنا بالحياة وبرغبة عميقة، فيموت الإنسان عندما تموت رغائبه.

قبل أن أغادر، وكما قلت لك كنت أبيت كل ليلة في مكان هروباً من ملاحقات رجال أمن الاحتلال السوري لبلدي، فقد حصل شجار حاد بيني وبينهم على خلفية توقفي بسيارتي عند حاجز لهم، وليس هناك من داع لشرح من هو صاحب الحق في الموقف الذي حصل بيني وبينهم، فلا حق مع ذئاب جائعة وقعت بين أنيابها فريسة مثلي، أنزلوني من السيارة، وتجمع عناصر الأمن السوري عند ذلك الحاجز من حولي، و أسقطوني بين أقدامهم وتحت عصيهم، و رحت أبحث في نفسي عن مكان أفر إليه داخل جسدي لأقيه آلام الركلات والعصي المتهاوية على كل جزء منه، و أفكر كيف يتوارى جسدٌ يسلخ تحت جلده ؟

حتى لاحت لي أثناء إغماض جفني ابتسامة أمي، وقد فتحت ذراعيها؛ وراحت تومىء لي برأسها أن تعال اختبىء في حضني، فسالت دموعي، ورحت أشعر أن الألم يغادرني مع سيلان الدم من كتفي، ودخلت في عالم من الحب أعادني طفلاً وأعاد أمي إليّ ربيعاً لا ييبس.. فغدوت ملكاً وغدا رجال الأمن حملة لعرشي يصعدون بي صوب تلة مار جرجس، هناك حيث روت لي قصة ولادتي ليلة ميلاد المسيح، وكيف أن أمي رأت نور وجه يسوع المخلص يشع

من النافذة.. آه يا أمي ما أشد الشبه بينكما أنت والمعلق على الصليب، كلاكما يعرف طريقه إلى قلبي نقاء وسلاماً، ولا أذكر إلا أني أفقت من غيبوبتي في مشفى المقاصد في بيروت، ومن حولي الكثير من الأشخاص بالرداء الأبيض، فظننت للوهلة الأولى أني ميت والملائكة تحيط بي، إلى أن سمعت الطبيب يطلب مني أن أعد إلى عشرة، وأذكر أني بدأت العد لكني لا أذكر الرقم الذي وصلت إليه.

في اليوم التالي تم تهريبي من المستشفى إلى مركز تابع للقوات اللبنانية حيث بقيت أياماً، ظلّ الطبيب يأتي ليكشف على جرحي ويقوم بتنظيفه، حتى تحسنت أحوالي، ثم شرح لي أسباب الخدر في ساعدي الذي ينتج عن عصب مقطوع، وكيف سيتعرض كتفي وساعدي للضعف الذي كنت أراه كلما مر الوقت، فهذه الندبة لن تزول لأنها مكان الحربة التي طعنني بها أحد أولئك الذئاب حين أبديت مقاومة شرسة عند محاولتهم إسقاطي.. لتبقى كما رأيتها، وأبقى أنا أحمل الشكر والمحبة لذلك الطبيب الذي عالجني في المستشفى، قبل أن يتم تهريبي .

أتدري لم يا علي؟ لأن المؤمنين الحقيقيين أكبر من الأديان، و أسمى من حدودها التي لا تتسع لرحابة إعتناقاتهم! فهم أرواحٌ من تسامٍ وتسامحٍ وقلوبٌ من محبة وأنفسٌ من سلام.. وهم الذين يثبتون

الإنسان في الإنسان، وهم الذين يحفظون سلامة قوافل الرحمة على الطريق بين السماء والأرض، فمن محاسن الصدف أن الطبيب الذي أجرى العملية التي أنقذتني في مشفى المقاصد كان اسمه عمر، وكان من البيروتيين الأنقياء.

تأثر علي لما فاضت به مشاعر جو من ردود أفعال بدت في ملامح وجهه وصوته، وسأله إذا ما كان لا يزال يستطيع العزف، فأخبره أنه أحضر العود معه؛ ليظل شاهداً على تنامي العجز والضعف في يده، وليتذكر كل الوجوه التي كانت تتحلق حوله وهو يعزف ويغني في أماسي لبنان المشتعلة بالقذائف والموت الموجع.

خطا علي صوبه، وأمسكه من كتفيه، وأوقفه، وضمه إلى صدره في مناخ جعل إيزا تحتار إن كان عليها أن تصفق أم تبكي، وقال :

- إن بنية العقول التي تنشأ على التلقين تختلف عن العقول التي تنشا على البحث والتحليل، فالعقول الملقنة تعتقد بمسلمات تراها نفسها من كل الزوايا غير قابلة للنقاش، فيما تفتح العقول البحثية الباب على مصراعيه بحثاً عن رؤية أخرى من زاوية مختلفة توصل لجديد أقرب من الحقيقة، فتجديد الإنسان يقوم على البحث والتحليل وليس على التلقين، ففي هذا الكون اللا متناهي متسع لا متناه للحب، والفرح والخير ومتسع لا متناه للمعرفة، لهذا يشعلني حب المعلق

على آلامه أملاً وفرحاً ومحبة، وأراه يسوقني صوب كرمة لا تنتج غير التآخي والسلام، واحس بكفه فوق كفي قبلات من وجع، ولطالما رددت أحبك فلا تهجر قلبي أيها الطفل الذي مهما كبرت أحزانه ما صغرت محبته.

وارتجف جسد جو بين ذراعي علي ، حين تحدث بتلك الروحانية العالية عن يسوع المحبة والطفل الإله، فشد بيده اليسرى على ساعده الأيمن وشده إلى صدره بقوة وحب، وراح يقبل كتفه، ثم رفع رأسه ومسح وجهه من الانفعال بطرف المنشفة التي كانت لا تزال على ذراعه الأيسر، ونظر في وجه علي، وقال له :

- يا علي أتذكر يوم قلت لي " أحبُّ حزني !" ؟ تعلمت منك حينها أن الحزن وجه من أوجه إنسانيتنا، وتعلمت أن المهم ما ينتجه هذا الوجه في الأنسان، فالبيئات القاسية تتفاعل أكثر عند مواجهة التغيير، لذا يكثر فيها القتل، نحن نقتل يا علي لأننا نخاف، ما دمنا نعي أن أخر كل حياة هو الموت وأن الحب لا يستسلم للخراب، فلم القتل؟ الغالبية العظمى من صراعاتنا ونزاعاتنا سببها إصرارنا على تقييم معتقدات الآخرين من خلال معتقداتنا، وأفكارهم من خلال أفكارنا، ودوافعهم من خلال دوافعنا، وظروفهم من خلال ظروفنا.

تراجع علي وقد بلغ مرحلة من التأثر، فالفرق قليل بينه وبين جو الذي ترك بلاده لعدم قدرتها على حمايته، كما ترك هو بلاده لعدم وجود مكان له فيها، وما أسعد إيزا، تلك الفتاة المحظوظة التي تتعرف على آلام البشرية بوجهيها المسلم والمسيحي، من خلال علي وجو، ثم جلس وهو يقول :

- نحن نحمل اسما عائلياً، لكنه ليس من اختيارنا، ولا يشكل أية اضافة أو رصيد لنا؛ لأن الإضافة الحقيقية لكل منا هي العائلة الانسانية؛ التي ينتمي إليها والعائلة الاجتماعية التي يخدم فيها والعائلة الفكرية التي يبني ذاته داخل تفاعلاتها، إن الفرق بين الإنسان سيء السمعة والإنسان حسن السمعة هو عدد الأخطاء التي يرتكبها كل منهما.

وصمت علي، إذ حضر إلى مخليته ومشاعره ماجد بكل بؤسه، وراح يروي لجو وإيزا بعضاً من صفحات علاقته مع ماجد الذي يكبره بأكثر من عشر سنين، ولكنه لطالما أحس أن ماجداً أخاه الصغير؛ لما كان يملكه الأخير من تواضع وحب للمعرفة التعلم من علي، وراح يتساءل:

- ماذا تراه يفعل الآن ؟!

وليت علياً يعرف أن كلماته عن الانتماء إلى العائلة والتي وجهها لجو، كانت ذاتها محور الحديث بين ماجد ولامبير في الجهة المقابلة من الأرض.

فاستعاده جو من حيث رحل، وهو يقول له :

- آه يا علي كم ذبحتني تلك الربع درجة في حنجرة أمي، وكم شدتني من قلبي تلك النغمة الشرقية في حزنها وروحها، نحن في كل مقام نبكي وفي كل عزف منفرد نحزم حقائبنا للسفر صوب الوجع غير آبهين بتكلفة الرحيل.
- نعم يا جو نعم .. عندما يبتعد الأحبة؛ يصبح القلب كعصفور حبيس في غرفة مرايا، كيفما طرت؛ يسقطك ارتطامك بالأوهام.

ثم استعد الجميع لمغادرة شقة جو إلى العشاء الذي كانوا مدعوين إليه جميعاً، في بيت الأساتذ الجامعي الدكتور بدر والذي هو من أصول عمانية؛ وفي الوقت عينه من مواليد أستراليا، إذ أنه دعا عدداً من منسوبي وطلاب جامعة كوينزلاند بهدف تناول بعض من الطعام العربي، يليه اطلاعهم على رغبته في تشكيل فريق من الراغبين بهدف القيام بمخيم عمل تطوعي في الشتاء القادم ولمدة أسابيع داخل بلد ما من البلدان النامية يختارونه من قائمة البلدان التي أبدت سفارات دولها استعداداً للتعاون مع الجامعة في هذا المشروع .

****

الهجرة بداية الموت الطوعي احتراقاً بالحب.

في المدينة التي زرب الاثرياء أنفسهم في طقوسها، ونبذوا الفقراء الى خارج أسوارها، وأقاموا أمامهم سدودًا وحواجز ؛ تولد فيهم نزعة السعي للبحث عن طريقٍ لدخول هذا السجن، أفاق الناس على خبر جريمة انتحار مروعة، منفذها وضحيتها شخص واحد لا غير إنه مساعد العنزي أبو نواف، ذلك الرجل الذي اعتاد الناس على مشاهدته؛ ينزل من شقته في الدور الثالث كل صباح، ويسير مسافة قرابة المئتي متر ليشتري الجريدة التي يتوقع أن يقرأ فيها مقالة بقلم ولده نواف، ذلك الشاب الذي بات معروفاً لدى النخب الثقافية في المدينة بمقالاته الاجتماعية، كما عرف الناس بعضًا من سيرته الشخصية مثل تفوقه في الشهادة الثانوية وحصوله على المنحة الدراسية، إلا أن تدهور الوضع النفسي لمساعد؛ والذي انحدر بشدة وسرعة، لم يمنح أيةُ إجراءاتٍ إمكانيةَ التحكم بمآل الأمور.

ذات أمسية بعد أن جلس في المقهى الذي اعتاد أن يقصده ليطلب فنجان قهوة وسيجارة من أي من المتواجدين في المقهى، وإن كان على غير معرفة أو صلة به، وبعد أن دخن سيجارته، وشرب فنجان قهوته، صعد الطاولة التي كان يجلس إليها، ووقف صامتا للحظات، ثم راح يقرأ وبشكل خطابي المقالة الأخيرة لولده المهاجر نواف والتي يقول فيها :

" صديقتي دائما ترجوني ألا أبكي/ وأنا يا صديقتي لا أتعمد البكاء/ لأني أبكي لأجل الذين ليس لهم من يبكيهم/ ويحيون دوماً في العراء أبكي لأجل الذين ما ذاقوا ملح الدموع، ولا جربوا قط البكاء/ أبكي لأجل الذين لم تكن عيونهم/ ترنو سماء بغير البكاء/ أبكي لأجل الذين يحلمون بالخلاص من البكاء/ أبكي لأجل الباعة المتجولين يحملون المناديل ولا من يشتري/ أبكي لأجل سجين أدمن في العتمة البقاء/ أبكي لأجل صوت المؤذن في الصباح يهدي الكنائس تراتيل المساء/ أبكي لأجل سوداء نعم سوداء خلّت بلاداً خلفها لتجنب أطفالها البكاء/ أبكي لأجل شرفات تخلت عن مناديل تلوح للعاشقين في حياء/ أبكي لأجل الخوف يقبع فينا كما المؤونة في الشتاء.

أبكي لأجل الحب فينا/ نكسر العمر عناداً كي لا نعود شبرًا إلى الوراء/ أبكي لأجل الذين ما أحبوا لأن الحب قد يحتاج إلى البكاء/ أبكي لأجل جندي كره الحروب ومات رغماً عنه/ مستنكرا هذا الهراء/ أبكي لأجل الذين ما أضناهم البكاء/ ولكن أضنتهم قلوب ما كابدت إلا البكاء/ أنا يا صديقة/ ما دمعت عيناي يوما بغير دمع كالدماء/ لكن مثلي ياصديقة ليس لديهم ما يهدونه لكل سائل عن حاجة لا يملكونها إلا قليلًا من بكاء."

ثم أجهش بالبكاء، وقد تربع فوق الطاولة، وعلا تصفيق الجالسين في المقهى له، أنزلوه بعدها، وأجلسوه في مقعده الذي ظل فراغاً طوال فترة اعتلائه

الطاولة، وقدموا له كوب ماء، وراح كل منهم يطيب خاطره بعبارة، لم تخترق جداره الأسود، والذي بدأ بناؤه يتنامى داخله منذ مدة، فقد ألفوا ثوراته النفسية وانفعالاته المفاجئة وبكاءاته وخروجه السريع من المقهى راكضا في الأزقة، فتقدم منه ذلك الرجل صاحب النظارة الشفافة، والذي بدأ يتابعه، وراح منذ جلستهما الأولى معاً؛ يتابع ما تنشره تلك الصحيفة من مقالات وكتابات باسم نواف العنزي بحسه الحذر والحشري لمعرفة ما وراء هذا السر؛ الذي يدفع مساعد للبكاء والنواح والانفعال بعد كل مقالة! فأشعل سيجارة، وأمسك بيد مساعد ووضعها بين إصبعيه، ثم بدأ يربت على كتفه محاولاً تهدئته، وهو يردد بصوت خافت :

- لا بد أن تبوح بما يوجعك حتى ترتاح، أنت متعب، والهم والحزن اللذان في صدرك على ولدك نواف لن يريحك من ثقلهما إلا بوحك وتحدثك بكل حرية ووضوح دون حذر أو خوف.

وكما لو أن مساعدًا كان ينتظر مثل هذا الشعور من أحد ما، أحس برغبة فتح كل نوافذه المغلقة أمام الريح، غير مبال بما يمكنها أن تقتلع مما يعترض طريقها. سحب من سيجارته سحبتين عميقتين، ثم تنفس بعمق، واستحلف الرجل ألا يبوح بالسّر الذي سيخبره عن محتواه مهما كلفه الأمر، فما كان من صاحب النظارة الشفافة إلا أن قال له :

- لا أظن أن المكان هنا سيسمح لك بالحديث على راحتك، هيا بنا نركب السيارة ونذهب في جولة تساعدك على النسيان، وتتحدث خلالها دون أية محاذير!

ثم سحبه من يده وتوجه به إلى سيارته المركونة في مواقف الدور الأرضي المقامة تحت البناء الذي يوجد فيه المقهى، ركباها وأدار المحرك، وانطلق بها خارج المواقف .

راحت السيارة تغور في جوف الشوارع على هواها دون أن تقصد جهة معينة، وراح مساعد يتحدث ويبوح بكل التفاصيل التي ظل مصغيه ينتظرها شهورًا طويلة، حتى أنه عرج بسيارته على المقبرة من دون أن يطلب منه مساعد ذلك، وما أن توقفت السيارة، حتى ترجل مساعد منها، وخطا إلى قبر ولده، يتبعه صاحب النظارة الشفافة، قرفص إلى جانبه، وراح يدعو لولده والآخر يؤمن بعده، ثم نهضا لاستكمال جولتهما داخل الشوارع إلى أن أحس مساعد بالهدوء والراحة، فأقله إلى باب العمارة التي يقطن فيها، ثم غادر تاركاً مساعد يصعد درج بيته كما لو أنه عاد إلى الحياة من جديد، وهو يشعر كما لو أنه سيدخل ليجد نواف ممددًا في غرفته وقد فتح ذراعيه ليعانقه.

دخل البيت وقصد الثلاجة يفتش فيها عمّا يمكن أن يأكله، وقد أثار حاله الجديد حفيظة أم نواف، التي ارتابت من تبدل حاله الغريب، وشكّت بالذي

طرأ على حياة مساعد، فأعدت له الطعام، وجلست تأكل معه دون أن تسأله عن سبب ارتياحه، وبعد أن أتم عشاءه، غسل يديه، ودخل غرفته كالعادة يريد أن ينام، فلحقت به زوجته، وسألته عن سر ارتياحه، فأخبرها بما فعل معه صديقه الجديد صاحب النظارة، وزل لسانه خلال ذلك، وقال لها : أنه باح له بكل شيء، فأيقظته بصفعة منها على خدها، وهي تقول :

- لقد دمرتنا جميعاً، فهل تعرف ماذا فعلت ؟

استفاق مساعد على غلطته التي لن تغتفر، وراح يحاول طمأنتها بأن الرجل طيب، ولن يبوح إلى أحد بما يعرف، وراحت هي تمطره بأسئلتها عن احتمالات وسيناريوهات؛ غدت تتوقع حدوثها، ليصغي هو منفعلاً متخيلاً تفاصيل كل منها، حتى انفجر غاضباً، ونهض من مكانه صارخًا مزمجرًا، يلوم حرصها على أخيها، وعدم اكتراثها بمشاعره وحاله الذي وصل إليه، وانفعلت هي بدورها تحت ضغط انفعاله، وعلت في البيت سمفونية حادة من الصراخ والصراخ المتبادل، فتوجه إلى المطبخ، وراح يتناول ما بداخل الخزائن من صحون، راح يحطمها ويكسرها، وهي تصرخ محاولة تهدئته ومنعه من تحطيم المزيد، ولما لم يستجب، فتحت الباب وغادرته متوجهة إلى بيت أبيها حْنيف، لتتركه ينام تلك الليلة وحيداً على فراش من الجمار والإبر والمسامير التي ظلت طوال الليل تجتر سيناريوهاتها التي طرحتها

دون أن يعرف طعمًا للنوم، ولا يستطيع أن يحدد أياً منها سيقع على رؤوسهم جميعاً .

قضى مساعد عدة أيام في منزله دون أن يغادره، ومن غير أن يطرق له باب، وقد أهمل نفسه، لدرجة أنه كان يمضى نهاره وليله في السرير، يأكل ويشرب ويرمي بقايا الطعام بجانبه ثم يعاود النوم، حتى أيقظه طرق على الباب، حاول أن يمتنع عن الإذعان له، لكن إصرار الطرقات وإلحاحها أجبراه على النهوض؛ لينظر من في الباب، كان عند المدخل بضعة رجال أمن يرافقهم صاحب النظارة الشفافة، سلموا عليه بداية، ثم طلبوا أوراقه الثبوتية، وهوية زوجته، وبعدها قرروا اقتياده معهم لاستجوابه في المركز، الذي قام بعد عدة أيام من توقيفه باستدعاء زوجته وأبيها حنيف، لتبدأ بعد ذلك سلسلة من الأسئلة والتحقيقات الطويلة، انتهت بإخلاء سبيلهم جميعا على ذمة التحقيق، فعاد كل منهم إلى بيته، بعد أن استمهل المحققون الأمور ظنًا منهم بأن حال مساعد النفسية وكآبته قد تكون هي الدافع وراء سرده لتلك الرواية التي أنكرتها زوجته وأبوها حنيف، وأنكر بدوره ركوبه مع صاحب النظارة الشفافة وما سرده في المركز على أن مساعد باح له به، وكاد يقفل الملف، نهائياً لولا شعور صاحب النظارة الشفافة بالخزي، فقد تم توبيخه على تقرير يكتبه معتمداً على أوهام نسجتها مخيلته بناءً على تصرفات غير سوية من رجل يحمل تقارير طبية، تؤكد مرضه النفسي وكآبته الجنونية،

فعاد إلى استدراج مساعد، وراح يمارس عليه تهديدات وضغوط من خلال تأكيداته أنه لا بد أن يكتشف الحقيقة، وأن التحقيق جار، وسيتم نبش الجثة وتحليل ال DNA، وسيستعيد ثقة المسؤولين به، وأخذ يلاحقه بسيارته أينما لمحه، وينزل منها ليهدده بكل ما أوتي من شراسة، حتى بلغ الحال بمساعد طريقاً مسدودة، فقد تخلت عنه زوجته، ولم تعد إلى البيت، وأهمل بدوره تناول دوائه، وتدهورت حالته بشكل قاس، وراح يرزخ تحت كابوس نبش جثة ولده لتحليل ال DNA، فقرر وضع حد لهذه المأساة وعلى طريقته الخاصة.

خرج من البيت باكرًا، في صباح يوم كان الجو فيه ماطرًا، ركب سيارة تكسي، وطلب من السائق أن يقله إلى مزرعة نخيل صغيرة يملكها والده خارج المدينة، كان قد شيد داخلها بيتًا صغيرًا ظل فيه وحيدًا بعد أن توفيت زوجته، وكان لا يغادرها إلا مرة في الشهر، حين يخرج ليسحب راتبه من الصراف الآلي ثم يعود؛ ليقضي النهار في خدمة مزروعاته من نخيل وخضار ورقية، تلك التي كان يبيع منتوجاتها لشارٍ يقصده خصيصًا كلما حل موسم، إلى أن مات وغادرت جثته المزرعة من غير أن تعود إليها.

دخل مساعد المزرعة، وراح يتجول فيها متذكرًا المرات التي زار والده داخلها، يستذكر أثناء ذلك أغنية كاظم الساهر التي سمعها في التاكسي التي أقلته صباحاً : "هُنَا جلست ، هُنَا غفيت ، هُنَا علي صدري بكيت" والدمع يسيل من عينيه سيل المزن على نباتها الذي افتقد يد صاحب كانت تحنو

عليه، وتهتم به، فدخل الغرفة التي كان يرقد أبوه فيها كل مساء؛ بعد أن كان يفرغ من العمل، ورأى صورة أمه المعلقة إلى الجدار، فأنزلها ومسح الغبار عنها، ثم ضمها وأجهش بالبكاء حرقة على فراقها وفراق أبيه الذي لم يمنعه تحريم رجال الدين للتصوير من تعليق صورة أم أبنائه، قبّلها وتأمل ملامحها الحزينة طويلاً، وأعاد تعليقها، ثم خرج منها قاصدًا الحمام، نظر في المرآة دون أن ينطق بكلمة واحدة، فتح حنفية المغسلة ليسيل الماء، انحنى على المغسلة، واتكأ عليها بساعديه، مطرقاً لخرير مائها الذي راح يجري، وفجأة شمر عن ساعديه، وتوضأ، ثم خرج إلى المزرعة، وقصد النخلة التي كانت تحمل تمر الخلاص الذي كان يجنيه أبوه، ويرفض أن يبيع منه حبة مهما دُفِعَ له من سعر في الكيلو، لأن هذه النخلة فسيلة من نخلة حملها من ديرة أبيه، وقد غرسها يداً بيد مع أم عياله، ورعاها بنفسه إلى أن أثمرت، جلس تحتها وأسندها ظهره، متذكرًا مريم بنت عمران عندما أتاها المخاض، أمال رأسه إلى الخلف ليلامس الجذع، وأغمض عينيه، محاولًا الحصول على إغفاءة صغيرة، فتخيل كما لو أنه يحلم بأمه تخرج من الغرفة، مبتسمة، تحمل بيدها طبق الطعام الذي اعتادت أن تقدمه ظهراً لأبيه، ورأى نفسه صغيرًا، يوم أخذ يركض فرحاً منادياً جدته بأعلى صوته، فالتفتت صوب حفيدها مساعد؛ الذي أطل من بعيد ملوحاً بيديه، وهو يجري حافي القدمين والفرحة تسابقه مرددًا :

- العنود وْلَدت .. العنود وْلَدت .. جابت حوار بْكبري ..

و راح يدور حول نفسه كالمروحة مرددًا :

- بسميه .. بسميه .. بسميه بركة .. بركة ، بركة ، بركة

وأخذ يسرع في دورانه باسطاً ذراعيه في الهواء، رافعاً رأسه إلى أعلى مكررًا:

- بركة .. بركة .. بركة ..

وهي تتأمله، وتفكر بالحِوار الذي انطلق بين السماء والأرض منذ الأزل دون أن يؤتي نتائجه، فلا الشر انحسر ولا القتل توقف ولا الجحيم امتلأت ولا الجنة ضاقت، وسيستفيق هذا الطفل البريء دون أدنى شك على حزنه المتضخم في جوانحه حين تستثمر يد الاقتصاد حَواره بركة، وتستبدله بمنفعة لا توازي حزنه عليه، يوم سيتم بيعه لا لأجل الحاجة إلى المال المدفوع كثمن له، بل لأن الثمن، لا يمكن أن يقاوم.

وأفاق من غفوته، وقد تذكر سيارة الشحن التي وصلت إلى بيتهم في الديرة؛ قبل أن ينتقلوا إلى هذه المدينة التي عجز عن العيش فيها، فحملت حواره بركة، وسارت فوق الرمال تنعفه وتحيله غبارًا؛ لم يمنعه من الركض خلفها والصراخ :

- بركة.. بركة.. بركة..

ليلتفت الحَوار إليه مرسلاً أطيطه، وكأنه يدرك معنى ألا يلتقيه ثانية بعيد اليوم، فنهض من مكانه، كما لو أنه سعّر نارًا في صدره.. نظر إلى أعلى؛ فرأى أباه عند قمة جذع النخلة يكسو عرجون التمر كساءه الذي يحميه من الأمراض، راح يتنفس بعمق وصعوبة، ثم أخذ ينظف وجه الرمال تحت نخلة أبيه المحببة، ليعدّه مكاناً للصلاة.. استقبل القبلة، كبّر، وأخذ يصلي؛ دون أن يعرف عدد الركعات التي صلاها سرًا مرة وجهراً أخرى، يحمله تجويده للآيات على الانهيار والبكاء المر؛ إلى أن أعياه الحزن والتعب.

دخل غرفة أبيه، وقد ترك بابها مفتوحًا، تناول كوبه الفضي الذي كان فوق الطاولة الصغيرة إلى جانب سريره جهة الرأس، ثم توجه به إلى الحنفية، غسله من الغبار الذي علق به، وملأه بالماء، وعاد يجلس فوق سرير أبيه.

تناول كيس الدواء الذي أحضره معه، فتح كافة العلب التي كانت فيه، أفرغ حبوبها في كفه، نظر إلى صورة أمه، وهو يتنفس بعمق، ثم قذف بالحبوب داخل فمه بسرعة، وجرع الماء من الكوب جرعة واحدة دون توقف أو تردد، وتمدد فوق السرير، يستغفر الله ويسأله الرحمة.

علقت أم نواف عند قبر مساعد ألف آه ولوعة على حبال الريح، وتجنبت الاقتراب من قبر ولدها الوحيد غير مكتمل النمو، وراحت تتأمله من بعيد خشية أن تكون مراقبة من صاحب النظارة الشفافة، وأخذت تتردد إلى المقبرة؛ تزوره وتجلس إليه بالساعات تنخل التراب فوقه بكفيها الفارغتين من أي أمل،

محملة نفسها مسؤولية ما حصل له، فهي التي أوحت إليه بفكرة منح هوية ولدهما نواف لأخيها علي، وهي التي قامت بدفع الأوراق إليه، وهي التي خرجت من بيت زوجها؛ دون أن تعود إليه؛ ضاربة عرض الحائط بعزلته وكآبته وآلامها؛ وما قد ينتج عن كل ذلك، وها هي قد وضعت مستقبل أخيها فوق جمر تحت الرماد، ولا أحد يمكنه أن يخمن متى قد تتمكن الأجهزة الأمنية من إزاحة هذا الرماد عن جمار أعانهم الله إذا ما هبت نارها، لأنها ستعيد الجميع خالي الوفاض بعد كل الجهود التي تضافرت لتحقيق ثغرة في جدار الاحباط السميك الذي يحيط بمخيم صفيحي، يبتلع أهلها وأقاربها منذ عقود .

****

كيف لمن لم يحب الأرض أن يعشق السماء ؟!

الماضي لا يرحل، ولا ينتهي كما يظن البعض، بل يحولنا جميعاً الى إناث، يتكور في أرحامنا جنينَ شوق وحنين، يولد بعدها إما كائناً مشوهاً عبر سلوكيات العنف والقتل، أو كائناً جميلاً عبر الموسيقا والإبداع!

هذا ما كان يتحدث به لامبير إلى ماجد وهما يجلسان فوق مصطبة حجرية في الساحة الصغيرة المؤدية إلى سوق الملح، يراقبان بائع الزبالة كما يسميه البعض، أو الرقاش لبقايا طفح الجدري الذي لا زال رغم السنين عالقاً في وجهه وعنقه.

كان الرقاش يضع أمامه طبقاً معدنياً مستديراً، كوّم فوقه بشكل عشوائي ما نبشه من أكياس النفايات التي كان يجمعها، من أمام بيوت الميسورين في الأحياء التي كان يقصدها كالعفيف والجردا في ميدان السبعين وبيت زيطان في ضواحي الأمانة في صنعاء، فهذه منشفة وتلك بطانية وذلك صحن وهناك قطعة كهربائية لا تعمل وبندول ساعة جدارية وبعض ملابس أطفال ومذياع قديم وكتب وأحذية ومسكة باب وسلة نفايات معدنية، تماسكت جميعها تحت تراكم بعضها البعض بانتظار من يشتري، فيما تربع الرقاش بجسده النحيل وشعره الأشعث الطويل ولحيته التي طالت على هواها في جلوسه خلفها على سجادة صلاة، بقميص مفتوح عند صدره، يرتدي فوقه سترة طوى كمّيها إلى الأعلى، ينتعل بقدميه نعالاً مطاطياً ممزقاً، يظهر

تراكم الأوساخ عند كاحليه وبداية ساقيه اللتين تبدوان تحت بنطاله المطوي ككمي السترة، يحمل بين كفيه كتابا بدون غلاف، لا يمكّن المراقب من بعيد أن يحدد موضوعه، غير مبال بمرور الناس من أمام بضاعته التي يعرضها، سواء أنه باع شيئا أم أنه لم يبع، فالأمر عنده سيان، يظل هكذا ساعات، وأذا ما مر به فقير أو فقيرة، وقام بتقلّيب البضاعة التي أمامه، وسأل أو سألت عن السعر، رد الرقاش :

- خذ ما يعجبك، وادفع ما تستطيع، وإن كنت لا تملك المال خذه، ولاتدفع، وعندما تتحسن أحوالك المادية، أحضر لي ما تستطيع من مال أو طعام لا تحتاجه.

علق لامبير على شخصية الرقاش أمامه محاولاً فهم فلسفته في الحياة، ليشرحها لماجد، إلا أنه تريث، وطرح عليه سؤالا :

- ترى هل يمكنك أن تفسر لي ما اكتشفته من خلال مراقبتك لهذا البائع الذي ينادونه بالرقاش؟ وقبل أن أنسى، هل تعرف ما معنى الرقاش؟
- بالتأكيد الرقاش هو الأفعى أو الحنش لكثرة الحراشف في جسده، أما عما اكتشفته في شخصية هذا الرجل، فقد بدا لي أنه يؤثر الناس على نفسه، ومرد ذلك أنه ربما يحصل على بضاعته مجانًا، لذلك تراه لا يبالي سواء قبض ثمنها أم لم يقبض.

هزز لامبير رأسه، وقال له :

- أريدك أن تتريث قليلا لترى الذي أراه منذ سنوات دون أن أجد له تفسيراً.

بعد قليل أطلت فتاة نحيلة أميل إلى الطول منها إلى القصر، تحمل بيدها طبق طعام وكيسًا، وضعته بجانب الرقاش، فتناوله منها، وبحث يميناً عن كيس أسود، ولما وجده، مد به إليها.

سأل لامبير ماجدًا عن رأيه بالذي حصل، فبرر له ماجد، أنها ربما كانت من أسرة ميسورة أخذت على عاتقها إطعام هذا المسكين، أو أنها من بنات أحد أقاربه؛ راحت تتكفل إحضار الطعام له بشكل يومي رحمة به، وأن الكيس الأسود الذي أخذته منه أواني الطعام التي كانت قد أحضرتها بالأمس.

فجأة استقام الرقاش من جلوسه، وتلفت خلفه وعن جانبيه، ثم خطا باتجاه لامبير وماجد مثيرًا فيهما حيرة لا يعرفان كيف يخفيانها، حتى قابلهما، الأمر الذي دفع لامبير لمحاولة تبرير جلوسهما قبالة الرقاش، إلا أن الأخير طمأنه بأنه لا يبالي وإن جلس العمر يراقبه، ثم توجه إليه بالكلام سائلاً عن سيجارة، فدفع ماجد إليه بعلبة الدخان كلها، تناول منها سيجارة، وأعادها لماجد الذي حاول أن يقنعه بأخذها كاملة، غير أن الرقاش أجابه :

- قل لي : إن أخذتها منك ، واعتدت أن أدخن أكثر من سيجارة في اليوم، فمن أين سأحصل علبة أخرى؟

أشعل له ماجد السيجارة، وحاول أن يعطيه سيجارة ثانية، لكنه أصر على موقفه، ولم يقبل إلا واحدة فقط، ثم نظر إلى لامبير، وسأله :

- ألست أنت الفرنسي الذي يسكن عند منتهى الزقاق، ذلك البيت الذي يُنسِي من يقصده لهاث الصعود؟
- بلى أنا هو، وكيف عرفتني، هل كنت تراقبني؟
- أجل أنا أراقبك، ومنذ سنوات، ولكن ليس لأنك غريب، بل لأني أنا الغريب في هذا المكان، عموماً دعك من أفكاري التي تشبه بضائع، أبيعها لمن يأخذها مني مجاناً، أريدك أن تساعدني في إنهاء بحثي الذي بدأته منذ سنوات، وأريدك أن تتكفل بنشره في بلادك وباسم الرقاش، وعلى نفقتك الخاصة، وكل ما يدخله البحث ماديا لك أنت، أنا لا أريد أكثر من أن تترك اسمي على غلافه.

تفاجأ لامبير من طلب الرقاش، وظن لوهلة أنها شطحة من شطحات الجنون، إلا أن الرقاش، صدمه حين قال له :

- أحتاج إلى بعض المراجع، فالناس هنا لا يثقون بأني قد أنجح في إنجاز هذا البحث، لذا لن يقدموا لي الكتب والمراجع التي أحتاجها،

وأظن أنك قادر على أن توفر لي المرجع الذي أطلبه منك، ولا يهم بأي لغة، فأنا أجيد الإنكليزية والفرنسية كما العربية!

- ماذا؟ هل سمعت ما أسمع يا ماجد؟ أحقاً تجيد لغتين غير العربية؟

فتوجه إليه الرقاش بالحديث بالفرنسية، ما دفع لامبير إلى فتح عينيه على اتساعهما متفاجئاً، ثم أعاد ما قاله بالإنكليزية، فذهل لامبير، وراح يتلفت حوله مندهشاً، وقال :

- أين كنت، لمَ لمْ أسمع أو ألتقِ بك من قبل؟ أيعقل أن أمر بجانبك كل هذه السنوات، وأراقبك، دون أن أكتشف أي شخص أنت؟
- لا بأس يا سيد لامبير، وقد تعتبرني مجنونًا، فانا تتقمصني روح رامبو، لذلك أتقن الفرنسية والإنكليزية، وإن أردت فبامكاني أن أسمعك أية قصيدة تريدها من قصائد صديقك رامبو الذي سكن قبلك ذلك البيت؛ الذي ينسيك بلوغه تعب اللهاث كلما صعدت إليه، ولكم حلمت أن أشتريه أو أسكنه، لكني فشلت في ذلك، كما فشلت أن أقنع كل أهلي ومن حولي بأني سأجيد اللغتين دون أن أغادر أحياء صنعاء!

ضم لامبير رأسه بين كفيه وراح يحدق في الأرض بين قدميه، يحاول أن يجد تفسيراً لما يسمعه، تاركًا ماجدًا يتحدث إلى الرقاش بشيء من هنا وشيء من هناك دون أن يبادله الأخير الحديث، فتنبه لامبير إلى ذلك وفهم أن

الرقاش قد وجد أن ماجدًا لا يختلف عن غيره من أولئك الذين ألفهم في يومياته فأهمل التحدث إليه، فأشار لماجد بيده طالبا منه أن يكف عن الضغط على هذا الرجل المختلف كلياً عن المكان والزمان والناس وكافة الموجودات، فكأنه شخص أتى عبر آلة زمنية قطع فيها أكثر من مئتي سنة تاركاً خلفه ماضٍ، تمنى لامبير لو أنه يجد تلك الآلة ليعود بها إلى هناك .

وقف لامبير ونظر إلى الرقاش، وقال له :

- وهل بامكانك أن تخبرني عن موضوع بحثك؟
- طبعا سأخبرك، وسأحضر لك النسخة الورقية التي كتبتها؛ والتي أريد فقط أن أثريها ببعض المراجع التي ستجلبها لي.
- وهل حقا كتبت بحثك على الورق؟
- أجل!

ثم رفع أمام عينيه نسخة الكتاب التي كان يحملها بين كفيه، وهو يجلس فوق سجادته خلف بضاعته، وقال له :

- هذا جزء منها، أقوم بمراجعته وتنقيح ما فيه من أخطاء ؟
- وبأي لغة كتبته ؟
- بالعربية طبعاً، لأني أريد أن تصدر الطبعة الأساسية منه باللغة العربية، فهل ستساعدني بذلك وليكن بعلمك أني لا أريد منك إلا

نسخة بعد الطباعة تحضرها لي، وإن كنت قد مت، أريدك أن تبحث عن تلك الفتاة التي رأيتها قبل قليل تحضر طعامي، وتسلمها إليها.

- موافق، طبعاً موافق، ولكن عليّ أن أقرأ ما كتبته حتى الآن، وعليك أيضا أن تقول لي من تكون تلك الفتاة ؟
- سأعطيك البحث تباعاً قسماً تلو الآخر، وسأخبرك بهوية تلك الفتاة في الوقت المناسب.

قهقه لامبير بصوته عاليًا، وراح يدور برأسه كبندول ساعة الجدار التي يظهر بعضها بين أشياء الرقاش، ثم صفق، وقال :

- بدأنا لعبة التشويق، والألغاز المطلوب حلها لتجاوز أفخاخ؛ وضعتها لتتأكد من أني أستحق ثقتك أم لا!
- لا تبالغ في مخيلتك كمستشرق، فليس هناك ألغاز ولا أفخاخ، وكل ما في الأمر أني أريد أن أنتهي أولا من أمر البحث.
- لا بأس يمكنك أن تأتي إلى بيتي ساعة تشاء، وتأخذ الكتب التي تحتاجها!
- لا. لا أعرف أية كتب تنفعني في بحثي، سأعطيك الجزء الأول من البحث لتقرأه، وتحدد أنت بعدها الكتب التي تخدم الموضوع .

ثم استدار، وهو يقول لحظة من فضلك، وخطا صوب طبق بضائعه، مخلفاً وراءه لامبير في حيرة ظن فيها لوهلة أن الرجل يهذر، فكيف يمكنه أن يكتب

بحثًا، لا يعرف المراجع التي يحتاجها لاستيفاء كافة جوانبه؟ ثم عاد يحمل أوراقًا وضعها في كيس شفاف، مد بها إلى لامبير، وقال :

- عندما تنتهي من قراءتها، سأعطيك الجزء الثاني!

سأله لامبير وهو تحت تأثير الدهشة، وقد أخذ يقلب الأوراق بين كفيه؛ والتي تبين أنها تمتلىء بكتابات بخط اليد :

- كيف تثق بي وأنت لا تعرفني؟ أفلا يساورك الشك باحتمال أن أسرقها منك وأنسبها لنفسي؟
- أبداً، لأنك مسكون بروح الباحث والمستكشف التي لا تعرف بتاتا الادعاء، وحتى إن سرقتها سأظل مرتاحاً لأن بحثي أعجبك وحقق مبتغاه، وحتما سيرى النور ولو بغير اسمي!

كاد يقفز من أرضه دهشة وهو يسمع حديث هذا الرجل المتمرد الواثق من نفسه تلك الثقة التي لا يمكن لأي من الناس بلوغها دون مروره بأنفاق من النار تذيب عنه كل تبجح وادعاء، فصافحه وقال له :

- ثق سأساعدك بكل إمكانياتي، وساقرأ بحثك بأسرع ما يمكن.

بعدها استدار الرقاش عائدًا إلى بضاعته وهو يردد : كيف لمن لم يحب الأرض أن يعشق السماء ؟!

****

وأظن أني غافلني الهوى، فاحرقت بالنار بعض الرياحين .

عند طرف المدينة، الممتد مع امتداده حي البيوت المبنية من بقايا كل شيء ما عدا الإسمنت، كانت تحرق أكوام من كتب لنوتات موسيقية، ربما قدمت عن طريق الخطأ إلى هذه البلاد، أو أن مجنونًا ما أتى بها لهدف مجهول، كان يجلس ماجد على مسافة من مكان الآحتراق، يراقب المجموعة التي تنفذ حكم الإعدام بجهود جمالية، لتقدمها قرابين لإله، تغضبه الموسيقا أكثر مما يغضبه القتل، وتؤذيه قدسية النغمات أكثر مما يؤذيه سيلان الدم، فبراءة الألحان تدنس الكون الذي يبيح اغتصاب براءة الأطفال، ليحاكمهم على قاعدة أنهم أشرار الغد.

تعالى الدخان لولبياً، يشبه ارتفاع موجات صوت الموسيقا التي تحترق نوتاتها وتستحيل رمادًا، ثم أخذ يتقطع متراقصاً؛ ليشكل مفاتيح ورموزًا موسيقية، ملأت سماءً؛ يعيش تحتها بشر، يستعدي الموسيقا دون أن يفهمها، أو يبرر سبب استعدائه لها، والمؤمنون من حول كومة الكتب والأوراق المشتعلة في هرج ومرج يهللون ويكبرون، لهذا الفتح المبين.

يا علي لقد كرهت كل المعابد ودور العبادة، تلك التي لا يتماسك بنيان حجارتها إلا بطين أجساد ودماء أولئك الجائعين الذين يؤثرون إطعام الله على حساب أولادهم، ويفضلون تجهيز الفرش تحت مداس المؤمنين على كسوة أطفالهم الذين لو نظرت في أعينهم، لرأيت آباراً من الحزن المدفون فيها، تنتظر لحظة تفجرها.

هذا ما كان يدور في خلد ماجد وهو يتأمل لامبير الذي يكتب، ويقلب في المراجع التي يحضرها له من هذه الغرفة أو تلك، ثم يعيد الذي ينتهى منه إلى مكانها، ثم يمسك بالقنبوس، وينقر على وتر من أوتاره، ليكتب رموزاً لا يعرف ماجد عنها شيئاً، فكل ما يعرفه؛ أن لامبير يجري بحثاً عن الموسيقا، متحسرًا على بيئته ومجتمعه الذي يقتل الجمال، ويحرق الموسيقا في الوقت الذي يأتي فيه رجل من قلب أوروبا ليبحث في هذا التراث والإرث الشعبي؛ الذي ما اغتنى إلا بتصميم أولئك الصعاليك المنبوذين في مجتمعاتهم.

تناول ماجد أوراق الرقاش التي وضعها لامبير على زاوية من زوايا كومة كتب، تعالت في ركن الغرفة، وسأله :

- متى تنوي البدء في قراءة أوراق الرقاش؟
- ما رأيك أن تقرأ بصوت مرتفع وأنا أسمعك؟!

وكأن ماجداً كان ينتظر طلب لامبير، فأمسك الأوراق وأخذ يقرأ بهدوء ووضوح :

وأنتَ على مرمى دم من وطنك، يُدنيك قلبك من أحبة ما عادوا هناك! تمسك يدُك بيدك؛ كي لا تسقط من الحنين.. تجترح من تيهك ثباتاً لا يُغنيك.. يختلط حزنك بأنغام، هاجت مع تعالي نداءات توجيه الركاب في قاعات الانتظار.. كم من قلب عليك أن تخلع من صدرك؛ وأنت تتسّل من تراب

الألفة بجثتك التي تتهرّأ في ملح الغربة.. هناك تخلع رغماً عنك وجدانك الفرِح.. وترتدي قناع " انا بخير " لتستيقظ كل صباح على أمل.. وحدها عيناك تدرك متى يأتيك المخاض دمعة، كلمة، صمتاً في تأملات لا تنتهي، فتبكي وردًا؛ لا تتفتح إلا ليلًا على وسائد الطفولة، وأنت تحصي الموتى، لا تنس أن تعدّ معهم أولئك الذين غابوا خلف الوعود!

توقف لامبير عن الكتابة، وأغلق ما بين يديه من أوراق، وأبعدها من أمامه، وفتح عينيه على اتساعهما، وهمس لماجد :

- مدهش! أكمل القراءة لو سمحت! واسترسل ماجد في قراءة ما تحت ناظريه:

تخيل أنك تحمل حبة أرز بين أصابعك، وأفلتت تلك الحبة، وسقطت في بيدر أرز، هل يمكنك تمييزها من بين باقي الحبات؟ وكيف سيبدو لك مشهد بيدر الأرز؛ كلما ابتعدت ارتفاعًا عنه في المسافة؟ سوف يتراءى لك من بعيد كما لو أنه نقطة ضوء. مَنْ لمْ يدنُ منه، لن يدركَ أنه بيدر أرز، وأنه حبيبات تجمعت وتلاصقت، سيظنه بؤرة ضوء ثابت لا يتغير حاله. هكذا هو حال الذين سقطوا من بين أرواحنا إلى الأبد. يمضون أبدًا هناك في عالم المتشابهات، ونمضي مؤقتاً هنا في عالم الظن والتخمين، ونحن نسقط حبة تلو الاخرى.

الخلود متعب، يضنيك وقوفاً على هامش التاريخ تراقب تحولاته وآلامه مئات السنين وأنت مجرد شاهد عاجز لا حيلة لك أمام حركته، وقد سلبك تقادم الزمن روحك وطاقتك، ليخلفك صمتاً، يسجّل ما يدور حوله، ولا يفعل به.

المجبرون على الرحيل، وقد غرسوا مشهدهم الأخير في ذاكرتنا، فسالت جذوره دموعًا.. يصرون على اتخاذنا شهودًا على آثامهم أمام براءة السفاح، أولئك يسرون لنا كل لحظة أمنية واحدة ليس غير : " ليتنا قلنا شيئا قبل السقوط " لهم وحدهم تشرق أحزاننا دون أقل احتراز ، فالحزن في نوافذ الوداع الأخيرة، يطل على الله.

سيصادفك في طريقك إلى ذاتك باعة متجولون، وتجار خردة، وعائدون متعبون عجزوا عن اكمال الدرب، وأناس افترشوا الرصيف وناموا وتخيلوا، ودعاة يريدون منك التجمهر أمام عظاتهم، لا يهمهم إن أكملت الطريق أمْ لم تفعل، ولصوص، ومشمئزون من مشروعك، وسلبيون عدوانيون يؤمنون أنك مجرد مغرور حالم وعليهم ردعك. لا تبالي.. وثابر في مسيرك، كدت تصل، فالنجاح الحقيقي في أن تعبر فوق كل أؤلئك، وليس في قطع مسافة الطريق فقط.

كل النجاحات سكاكين في خاصرتي ما لم تصفقي، لكم حاولت في عينيك أحلامًا، وطوّلتُ أجنحتها؛ لكنها لم تحلق، فليست كل العيون تصلح للحزن! أتدرين ما أجمل الأصوات؟ يشعلني صوتك كلما داهمتني ناره، فأدرك أن

صهيل الأنثى – وهي تعلن احتراقها في فراش الحب – أبدع أصوات الطببعة على الإطلاق.

ألا يا إزميل النحاتين، لمَ لمْ تُقِمْ مع الحجر مواثيقَ على الجمال فقط؟ وهل ستطال شفرتك يوما سجون الظالمين، لتكشف في صخورها عن فتات أناس باغتهم فيها الظلام؟ إن في الليل حياة تنتظر منك الصباح.

تناول لامبير الأوراق من ماجد، وتخطى بتقليب من أصابعه المقدمة وبعض صفحات البداية، وفجأة توقف عند عنوان ملفت، أخذ يقرأ، تاركًا ماجدًا يتابع انفعالات ملامحه أثناء ذلك، والتي تعكس إعجابه العالي بما يقرأ.

****

القادة أوثان نعبدها، ما داموا أحياء!

" انطلقت قافلة الجمال المكونة من قرابة المئتي جمل بعد منتصف الليل، تئنُّ تحت أحمالها، وقد خلفت وراءها سفينة، قضت أشهراً تلاطم الريح والأمواج الضخمة؛ دون أن تكلّ سواعد بحارتها عن التجذيف من شواطىء الصين حتى وصلت شواطىء عدن؛ بالرغم من عدد البحارة الذين قضوا في هذه الرحلة، وقد ألقيت جثثهم في بحار، تلتهمها كائناتها؛ التي ظلت ترافقها مسافات عبرها، تلك السفينة التي انتظرت قبل انطلاقها أسابيع، تحمل بضائعها التي تم جلبها على البغال والحمير من أعالي جبال تشونغبا في اقليم تشانسي، تلك المنطقة الجبلية التي قدمت للبشرية أولى الخطوات المبكرة جداً نحو الحضارة الإنسانية، والتي ارتكزت في بداياتها على الملح كعنصر ضروري، أتاح للبشرية زيادة التجارة والنمو السكاني، وفتح قنوات التبادل التجاري بين شعوب الأرض، ووفر تنوع الأغذية، وشكل أول وسائل حفظ الطعام، إذ تؤكد الدراسات؛ أنه ما من دولة عرفت تطورها دون ذلك الاستقرار الذي بلغته بعد تمكنها من مناجم الملح، وبالرغم من إهمال علماء الآثار دراسة الدور الحيوي الذي لعبه الملح في سياق الحياة القديمة، خاصة أنه كان السلعة الأبرز في حياة الناس وفي كافة تجمعاتهم السكانية من الصين في أعلى آسيا إلى الفراعنة في عمق أفريقيا حتى الرومان في قلب أوروبا، فقد شكل هذا العنصر إيرادات الدول في الحقبات التاريخية القديمة واحتياطها، لمدة تجاوزت اثنين وعشرين قرناً منذ ٢٦٧٠ ق.م. كالدور الذي يلعبه احتياطي الذهب في زمننا هذا.

سلكت القافلة التي كان يقودها التبع أبو كرب أسعد الكامل بن ملكيكرب يهامن بن ثأر بن يهنعم الحِمْيَري، ذلك الملك الذي ورد اسمه في نقوش عديدة في اليمن، والذي يجمع الباحثون على اعتقاد أنه تبع الذي ذكر في الآية السابعة والثلاثين من سورة الدخان في القرآن، والتي تقول : " أهم خير أم قوم تبع" ، كما يجمعون على أنه هو نفسه؛ الذي قال فيه الرسول العربي : " لا تسبوا تبعًا فإنه كان مؤمنًا "

أخذت القافلة تشق طريقها لأيام عبر الجبال والصحارى قاصدة بلاد الحجاز، لتعبر منها إلى فلسطين ثم مصر، حيث ستلقي بحمولتها التي كانت تباع للفراعنة، فيستخدمونها في عباداتهم، وغذائهم وفي حفظ الأطعمة التي كانت تزود بها كواكب السادة منهم في رحلتهم إلى العالم السفلي بعد الموت، وفي مشاريعهم المعمارية لبناء الأهرامات، حيث شكل الملح عندهم أهم وسائل تطويع الحجر والتحكم بشكله وحجمه.

قسم أبو كرب تبع جيشه المرافق للقافلة إلى عدة أقسام، بعضه اختص في قيادة القافلة، والبعض الآخر تفرغ لاستكشاف الطريق وحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق، ولتخرج بقية الجنود نهارًا للصيد وجلب الماء وكل ما يمكن أن يؤكل خلال رحلة هذه القافلة الطويلة.

كانت الرحلة تستغرق قرابة الأربعة أشهر ونصف الشهر من عدن إلى أهرامات مصر في أسوان، وتزيد عن ذلك قرابة الشهر والنصف في حال طلب إيصال البضاعة إلى بلاد جوبا، حيث كانت تشيد أهرامات مشابهة

في عمق أفريقيا، كانت القافلة تسير ليلًا، وترتاح نهارًا تجنبًا لقطاع الطرق، وقيظ الرمال الذي كان ينهك الرحالة والجمال، ويعيق سيرها نهارًا، فلكم كانت تتعرض هذه القافلة إلى المشقة جراء تقلبات الطقس الصحراوي، خاصة حين كانت تهب العواصف الرملية؛ التي كانت تعمي أبصار الجمال، وتكتم أنفاسها، فيُفقد منها الكثير في الطريق، وتضيّع أحمالُها، ويختفي سائسوها، الأمر الذي يضطر التبع أسعد الكامل بن ملكيكرب إلى فرض مزيد من الضرائب، يتولى جمعها وإحصاءها مجلس استشاري يشاركه الحكم، يتمتع بسلطات واسعة تمكنه من إدارة البلاد بطريقة لا مركزية، فلكل مدينة من مدن مملكته استقلالها الذاتي، وآلهتها الدينية الخاصة، وحكومتها التي يرأسها ممثل الملك، والذي كان يحمل لقب المُسَوّد، يتولى مع مجلسه إدارة شؤون المدينة في السلم والحرب، لتأخذ مكة عنه هذه التجربة التي عرفت فيما بعد بدار الندوة، ثم توزع الضرائب التي يجمعها تبع على خزائن الملك والمعابد والمسودين.

أخذ أسعد الكامل يحث قافلته على الإسراع في السير، بعد أن انهالت عليهم السماء بالرعود العنيفة والبروق؛ التي راحت تشتعل في أبصارهم، لتحيل ليل طريقهم نهاراً، وراحت الجمال تُزْبِدُ، وتهدر من التعب، تتصل أصواتها المتداخلة بقصف الرعود، فتتكسر زجاجة السماء عن كل لمعان للبرق، كما لو أنه قد حضرت في تلك الليلة كل آلهة الخير والشر، لتتصارع في هذه القبة التي راحت تسير تحتها القافلة، وترجمها بوابل أمطار، أجرت

السيول في الأخاديد المرافقة لممر القافلة، فتوحّلَتِ الطريق، وراحت الخيول والجمال تخب تارة في المياه، وطورًا في الطين، وراح الملح يذوب، ويسيل سائله من بين خيطان الأكياس، فيلسعها كماء التيزاب، ثم يتسرب بين الأحمال وجلود الجمال ناراً، تسلخها، فتشتعل أوجاعاً وتعباً، لا يصبر عليهما، الحال الذي دفعها إلى الهيجان والغضب، وراحت ترفس بأرجلها وتقفز، تريد التخلص من أحمالها؛ التي جعلت الملح، يتحول إلى سهاماً من جمرٍ، تخترق أجسادها، ليتساقط العديد من الأحمال عن ظهور العشرات منها؛ وراحت تركض على غير هدى في الليل والجبال، فيما ناخ بعضها، ورقد في برك المياه يبرد جسده، وحاول تُبّع وجنودُه عبثاً السيطرة على الوضع، واستمرت حالة غليان الجمال هذه ساعات، دفعت بالعديد من الجنود إلى تسلق الجبال والابتعاد عن طريقها، حتى هدأت العاصفة، ولاح ضوء الصباح، ليتبين لهم أن أكثر من مئة جمل قد فقد، وقد ماتت غالبية الجمال التي رقدت في برك الملح، ولم يبق إلا بضعة منها، ظلت تشرب الماء المالح؛ ولا يرويها، فتطلب المزيد منه في المواقع التي ذابت فيها حمولتها، ولم يتبق منها إلا الأكياس الفارغة، فراحت تلحسها، وتسف ما تكلس عليها من ملح.

تجمّع مجلس المسودون في بلاط التبع أسعد كامل من سبأ وذي ريدان وحضرموت ويامنت، لينظروا في أمر الضرائب التي يمكنهم فرضها على

الناس، لتعويض خسائر الدولة من تجارة الملح، وما أن وقف التبع للحديث حتى صمت الجميع، فقد كان من أشد المكربين السبعة الذين تمكنوا من توحيد كافة المدن اليمينة القديمة تحت سيطرته، لما عرف عنه من وقار وهيبة ومعرفة بأحوال الغيب والسماء، فقد كان يضم إلى بلاطه الكاهن شافع بن كليب الصدفي؛ الذي تتلمذ على يد عمرو بن حسان صاحب الحبرين اللذين اتبعهما إلى اليهودية، بدأ حديثه بطلب استشارة كاهنه شافع بن كليب لعله يعلم أسباب ما يحل بهم من شرور، ثم طلب منه أن يفسر له رؤيا لازمته ليالٍ، وقد كتم أمرها، وتجنب البحث في تأويلها، مشددا على كاهنه شافع في تأويلها؛ كما يراها، سواء أكانت شرورًا مؤجلة أم خيرات لم يدن أجلها بعد.

فاستأذنه شافع بالكلام، وضع أمامه مزبوراً من ظفار، أطلعه من خلاله على أن تأويل رؤياه قد ورد في هذا المزبور على شكل خبر يبشر بحدث عظيم سيكون في مكة بعد ألف سنة من هذه الرؤيا، فانشرحت أسارير تبع الأسعد واستبشر قلبه لذلك التأويل، وأمر بجمع الضرائب على أسرع وجه، وتجهيز قافلة تكون وجهتها سوق عكاظ، تحمل بالماسية والأقمشة السوداء ولتنتظر أشارته، ليقودها بنفسه إلى مقصدها.

حطت قافلة تبع المكونة من آلاف الجنود رحالها في مكة، وكان ذلك سنة سبعمئة ق.م. توجه تبع بجيشه إلى البيت العتيق، وأعلن هناك عن بدع

حذر الناس من عدم اتباعها، والتفريط بها، وأمر بالتذكير بها لمثل موعدهم هذا من العام القادم، فدعا سكان مكة والعابرين بها إلى طرد الأصنام من محيط البيت العتيق بعيدًا عنه، وأمر بتقديس هذا البيت وكلف الجرهميين بسدانته وتطهيره، وأمر ألا تراق عنده دماء ولا يقربه ميت ولا ميلاث وابتدع الطهارة والكفّارة، وأمر جنوده بكسوة البيت بالأنطاع اليمنية المذهبة طلباً لنصره في غزوه لبابل، وكانت أول كسوة تقام لإضفاء مزيد من القداسة على هذا المكان، وابتدع الطواف بسبعه من الركن الذي سمي باسمه الركن الأسعد أو اليماني، وابتدع السعي حيث سعت هاجر أم اسماعيل، وخطب في الناس معلنًا أن ما قام به سيجري عليه أتباعه لسنين طوال، دون أن يوضح السبب، ثم ذبح كل الماشية التي حملتها القافلة وقدمها هَدْيًا عن نفسه وعن كل من يرافقه، وأخبر الناس بنيته العودة في العام القادم؛ لتجديد العهد والكسوة لهذا البيت ولتأكيد كل بدَعِه التي أحدثها.

رجعت جيوش بن ملكيكرب والتي بلغت المئتي الف جندي منتصرة من بابل، ومرت في طريق عودتها عبر طريق مكة، وكان الموعد ذاته الذي حدده تبع للناس، فاستقبلوه بالإطراء والترحاب، فاستبدل كسوة البيت القديمة بالقماش الموشى بالزخرف الذهبية، وتوجه بجيشه بعد أن أتم بدعه غرب مكة، حيث أقام هناك وقد أنشأ المخطط الأول ليثرب التي سكنها أتباعه من بعده بحوالي مئة وخمسين سنة "

توقف لامبير عن قراءة مخطوط الرقاش، وتناول عدة كتب من رفوف الكتب التي تنتشر في أرجاء منزله، وأخذ يفتش عن ما يربط بين ما قرأه في المخطوط، وما كان قد قرأه قبل سنوات في بعض هذه الكتب التي بات ينوء المكان بها من حوله، محاولاً تتبع المسار التاريخي بين ما يريد الرقاش أن يقوله وبين استخدامات الملح في العالم وفقاً لما ذكر في المراجع، من استخدامات المصريين له في طقوسهم الدينية، إلى استيرادهم الملح الوردي من الصّخور الكْرِسّالية في منغوليا، وتوقف عند فقرة، تقول :

" في مطلع القرن السادس عشر ذاع صيت بعض النحاتين مثل بنفينوتو سيليني، الذي اشتهر بتصميمه لبعض هزازات الملح المصنوعة من الذهب وبها بعض النقوشات لإله البحار نبتون، وكان أغلب إنتاج الملح القادم من وسط أوروبا تحت تصرف آل هابسبورغ؛ الذين كانوا يسيطرون على أغلبية المناجم هناك، وبذلك أصبحوا محتكرين لتجارة الملح آنذاك".

وتنبه إلى ملاحظة دونها الرقاش في أسفل إحدى الصفحات : أن آل هابسبورغ أوصلوا أسبانيا إلى عصرها الذهبي، وأن أصولهم تعود إلى سويسرا وأنهم المنتج ألأصلي لحكام الامبراطورية الرومانية المقدسة، تلك العائلة التي ظهر ذكرها في الوثائق التاريخية سنة ١١٠٨، والتي انتهت بسبب عجز آخر ملوكها عن انجاب الذكور، فأورث الملك لابنته الوحيدة ماريا تيريزا؛

التي تزوجت فرانسيس ستيفان والذي عرف بفرانسيس الأول أمبراطور روما المقدسة، فأنجبت منه ست عشر مولوداً، أشهرهم ماري انطوانيت.

توقف لامبير عند هذه الملاحظة طويلاً قبل أن يتم القراءة في المخطوط، وراح يحاول حل لغز الإشارة إليها في هوامشه، والتفت إلى ماجد الذي كان يتصفح كتاباً، وسأله :

- ماجد ؟!
- نعم يا سيد لامبير ؟
- هل سمعت بآل هابسبورغ ؟
- سمعت في بلادنا بآل .. ولكني لم أسمع بآل هابسبورغ ؟!

وأيقظ رد ماجد في عقل لامبير تساؤلاً أربكه، فصمت، وعاد ليقرأ، ويحاول مع نفسه إيجاد تفسير لما يريده الرقاش، ولما قاله ماجد عفوياً، حتى توصل إلى أن الأمر مرتبط بالعائلات الثرية؛ تلك التي تسيطر على العالم، ليكتشف أن الرقاش قد ذكرها في صفحاته التالية من مخطوطه، عندما يطرح تساؤلاً: ماذا لو أن هذه العائلات اتحدت مع بعضها البعض في الزواج والنسب، وأقامت شراكات اقتصادية ومالية عالمية؟ أي مستقبل لأمثالنا نحن البسطاء في هذا العالم؟ عائلة روتشيلد، وعائلة روكفلر، وعائلة مورجان، وعائلة دوبونت، وعائلة بوش، وبعض العائلات في مناطقنا العربية.

تملك عائلة روتشيلد الألمانية الجذور؛ والتي تعني الدرع الأحمر، وهو الباب الذي ميز قصر مؤسس العائلة في القرن السادس عشر، ثروة هائلة لا يمكن تحديدها إلا من خلال ملامح سيطرتها على البنك الاحتياطي الفيدرالي في أمريكا، فقد مولت هذه العائلة حروب نابليون والقرم وحصة بريطانيا في قناة السويس، وهي العائلة التي تبنت فكرة فلسطين كوطن لليهود لكي تبعد هؤلاء عن مناطق استثماراتها وبالتالي لا يكونون عبئا عليها، وتقوم بدورها في إرسال المساعدات لهم عن بعد، أما عائلة روكفلر فهي عائلة أمريكية، تملك أكبر ثروات العالم في النفط، وهي العائلة التي مولت بناء مقر الأمم المتحدة، وتمول الاجتماعات السرية لمجموعة بيلدربيرغ كل سنة، وهي مجموعة خاصة بأصحاب النفوذ، تعمل هذه العائلة على إبقاء الغني غنيًا، والفقير فقيرًا، أما عائلة مورجان الأمريكية والتي تدعمها عائلة روتشيلد، فهي تملك معادن الصلب والذهب في أمريكا، وهي التي وحدت شركتي أديسون جنرال الكتريك وطومسون هيوستن الكتريك في شركة جديدة، باتت معروفة اليوم بشركة جنرال إلكتريك العالمية، وهي العائلة التي مولت حملة تيودور روزفيلت الانتخابية وأوصلته إلى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، ولقد أجبرت هذه العائلة أمريكا على الدخول في الحرب العالمية الأولى من أجل الحفاظ على القروض التي قدمتها هذه العائلة لكل من روسيا وفرنسا.

تبدأ الحضارة من معول الفلاح، لتحملها قوافل التجار وسفنهم إلى المدن التي تتراكم فوق بعضها البعض هنا وهناك في شتى أرجاء الأرض. لم تكن عائلة دوبونت الفرنسية الأصل والتي أسسها صاموئيل دوبونيت ابن رجل يعمل في صيانة الساعات، وهو الذي أقنع الحكومة الأمريكية بأن تشتري جزيرة لويزيانا من فرنسا سنة ١٧٦٠ على أثر ثورة العبيد فيها واضطرار فرنسا الدخول في الحرب ضد بريطانيا، وحصل من خلال هذه الاتفاقية على صفقة العمر مكنت ابنه من بعده إنشاء أكبر معامل انتاج البارود على مستوى العالم في أمريكا (دوبونوت دي نمور) والتي أنتجت البلوتونيم للقنابل الذرية التي استخدمتها أمريكا في الحرب العالمية الثانية، إلا لتملك هذه العائلة اليوم أكبر شركات العالم للبذور المعدلة وراثيا، فقد تمكن بريمر الحاكم الذي عينته أمريكا بعد سقوط الحكم الوطني في العراق عام ٢٠٠٣ من تدمير مركز الأبحاث الزراعية العراقي؛ الذي كان لديه بنكاً وطنياً، يحتفظ ببذور زراعية تعود لآلاف السنين، وكان أبرزها بذرة قمح بابلية، انشأ العراق لأجل هذه البذرة خصيصًا، وبعد معاناته مع الحصار الذي دام سنوات مركزاً أسماه إبا، يهدف للبحث عن حلول للمشاكل الزراعية التي قد تنتج عن الحصار والحفاظ على السلالات النادرة من البذور الزراعية؛ التي كان يمتلكها منذ زمن أجداده القدماء، وكان لهذا المركز شخصيته المعنوية، ليعمل بشكل مستقل، ويقدم الحلول والمقترحات، وكان يعد أهم بنوك البذور الوطنية على مستوى العالم، فقد استفادت من هذه التجربة النرويج، لتنشيء مركزاً، خصصته للحفظ قرابة تسعمئة ألف عينة من البذور الطبيعية على

مستوى العالم في عام ٢٠٠٨؛ بتكلفة بلغت ثلاثة عشر مليون دولار داخل قبو يسمى سفالبارد، يتكون من الحجر الرملي في جزيرة سبتسبرجن، يبعد عن القطب الشمالي ١٣٠٠ كلم، كان أخر البذور التي تم جلبها إليه من مركز إيكارد في حلب، ليكون إيكارد ثاني مركز يتعرض للتدمير، بعد أن أمر بريمر بتدمير مركز إبا في العراق، الذي كان يعد لبنة أولى في أسس استعادة الحضارة والحفاظ على أهم أولوياتها بعد المياه، بعيداً عن الحروب والكوارث، وأمر بتعويض المزارعين ببذور، تبين لهم فيما بعد أنها مهجنة، لا تصلح لإعادة انتاج بذور كالتي كان يمدهم بها مركز إبا، فقد ظهرت أنها مفرغة من نواة الاستنبات، ولا تصلح إلا لصناعة المعكرونة؛ تلك المادة التي لم يتناولها الشعب العراقي من قبل.

أما عائلة بوش تلك العائلة الألمانية الأصل أيضاً، فقد بدأت حياتها السياسية مع بريسكوت شيلدون بوش الذي قاد انقلاباً فاشلاً ضد الرئيس روزفلت بتمويل من عائلات دوبونت وروكفلر ومورجان من أجل تثبيت أسس الديكتاتورية في أمريكا، وغدا بعده بريسكوت بوش رئيساً للبنك الاتحادي الذي كان يحوي كل الذهب النازي، وهكذا وصل بوش الاب والابن إلى سدة الحكم في أمريكا، ليشنا حروباً على العراق، تخدم هذه العائلات وباقي العائلات العربية التي تعاونت معها.

وراح الرقاش يتخيل كيف يسير العالم تحت نفوذ وسيطرة هذه العائلات التي تحل محل الله في الأرض، ويتساءل : هل كان لنظام الضرائب الذي فرضه تبع من أجل تجارة الملح دوراً في قيام هذه العائلات، فمن المعروف أن

الضرائب على مستوى العالم في التاريخ لا تجمع إلا خدمة لعائلات معينة، وهل لا زال الملح هو المحرك الأول والأخير لتغيرات الدول واضطراباتها؟ وقد كان الجلوس إلى جانب الملح شرفاً لا يمنح لأي كان؟ فقد أدت الضرائب التي فرضتها بريطانيا عام ١٩٣٠ على سكان مستعمراتها في الهند إلى قيام مسيرة الملح بقيادة مهاتير غاندي؛ ذلك الاحتجاج الذي نتج عنه استقلال البلاد، بعد أن بدأت الاحتجاجات في مدينة صغيرة تُسمى داندي اعتراضاً على الضرائب المفروضة على الملح، ولم يمر عام واحد على مسيرة الملح؛ حتى انتهي هذا التمرد بتوصل غاندي إلى معاهدة غاندي–إيروين، ومنذ ذلك الوقت تم بيع الملح بالسعر المعروف محلياً، وقامت الحكومة المستقلة بتولي مهمة توزيعه على الجمعيات التعاونية الصغيرة، بعد أن تستخرجه من مناجمه في مدينة غوجارات، وفي صحراء طهار.

فهل استفادت البشرية من اعتماد تبع دفع رواتب جنوده بحصص من الملح، ليسود اعتقاد أن ذلك هو منبت كلمة سالاريو، ذلك المصطلح الذي يتم تداوله اليوم عالمياً كتعبير عن الراتب أو الأجر؟

لفت انتباه لامبير كيف أن الرقاش ركز في بحثه هذا على مسيرة تطور تجارة الملح في العالم، وما نتج عنها من اضطرابات، غيرت وجه العالم، فقد اعتمدت فرنسا ضريبة غابيلي الشهيرة بالملح في القرن الثالث عشر، واعتمدت عقوبة السجن المؤبد لتهمة تهريب الملح، ويقول بعض المؤرخين إن ارتفاع أسعار الخبز الذي تسبب به ارتفاع أسعار الملح، كان أحد أسباب الثورة الفرنسية نهاية القرن الثامن عشر.

لم يمض وقت طويل على الثورة الفرنسية، حتى بُلي نابليون بهزيمة شنعاء بعد حملته الفاشلة لإخضاع روسيا بداية القرن التاسع عشر، إذ أن نقص الملح كان الجندي الأبرز الذي تسبب بموت عشرات آلآلاف من جنوده، ذلك الجندي الذي كان يُستخرج من مناجم هالين في أوروبا، المدينة الواقعة بالقرب من سالزبورغ، والتي تعني الملح، لتلي ذلك انتفاضة موسكو عام ١٦٤٨، التي عرفت بعصيان الملح أيام القيصر أليكس الأول، الأمر الذي أضطره إلى محاولات تعديل قوانين وإجراءات الإصلاحية، تهدف إلى وقف أعمال الشغب والعنف في بلاد، فقام ببناء مطبعة كبيرة في موسكو لنشر التغيرات السياسية، الأمر الذي أوصل إلى ولادة روسيا الحديثة.

ويتساءل الرقاش في تهميش بخط يده على طرف إحدى أوراق المخطوط : هل كان لقريش وبناتها في قرننا الحالي حلم أن تكون مثل روتشيلد ودوبونيت وغيرها، أم أن تلك العائلات هي التي مشت على خطى قريش، وكما فعلت من قبلها أمية وهاشم ؟

أغلق لامبير المخطوط، وهو يقرأ تساؤل الرقاش بصوت مسموع، جعل ماجداً ينظر إلى لامبير فاغراً فاه، وسأل:

- أتعتقد أن في المخطوط ما لم نتوقع قراءته من مشرد رث الثياب منسي في إحدى زوايا صنعاء؟

- من يدري يا ماجد ؟! ربما يكون قد ذكر سوار جدك في مخطوطه؟!

لقد فاجأني هذا الغريب بأطواره بما لديه من عمق تحليل وسعة اطلاع وجرأة على مناقشة أعظم الأشياء قداسة .

****

الرقص في سراويل الطفولة

إن أول شروط تحقق الهوية الانسانية لأي شخص هو كشف الغطاء عن رأسه وإزاحة كل السقوف من فوقه، ليغدو بعدها غريباً، يهيم على وجهه في فلاة البحث، ثم يصبح بعدها مركزاً بذاته، يجذب إليها من يتوافق مع سعيه، إلى أن يؤول فيه الحال إلى عدم الاهتزاز والثبات، عندها تصير ذاته هوية له ولسواه ممن آمنوا به.

يموت الوطن في الهجرة يوماً بعد يوم، إذ يهتم الناس بالتاريخ أكثر من الجغرافيا بالرغم من أننا عندما نقرأ التاريخ نقرأ مسار الموت والإنتصارات والهزائم، دون أن نقرأ أي شيء فيه عن الحب والمشاعر والهموم فالتاريخ ليس كاميرا تصور الوجوه، بل هي مسبار يسبر غريزة القتل والتدمير البشرية في الأرض بالرغم من محاولات الغالبية العظمى لتبرئة الله من أفعال البشر متناسين أنه خالقهم، ولكن حيث لا عبيد لا أسياد.

كانت مقالة علي الأخيرة في الجريدة والتي بناها على مقولة "في الفن الدم ليس رهيباً، بل هو مجرد قواف مع التيار" لشلوفسكي أحد أبرز مؤسسي جماعة الأبوياز، تلك الحركة التي تأسست سنة ١٩١٤ لدراسة اللغة الشعرية، وقد نشط منتسبوها في مناهضة الماركسية بجرأة، وقد وصفها معادوها بأنها جمعية تخريبية ذات طابع أيديولوجية محاولاً تسليط الضوء على قيمة الثقافة في مناهضة الظلم واحتكار السلطة في المجتمع، قد ضمنها عبارة "إذا كنت

لا تستطيع الحب فلا تحتمِ بالكراهية"، مناقشاً مصدر السعادة، ليقول : إن الإيمان مصدر السعادة. الإيمان بأنني استطيع أن أفعل. مبيناً للقاريء أن بلالاً؛ استطاع أن يقرن اسمه باسم أعظم أسياد قريش وأعرقهم نسباً محمد وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وكل الذين كانوا يُذكرون بنسبهم، مستثنياً نفسه من التعريف بغير بلال، فقط بلال لا أكثر ولا أقل. وحده بلال لم يحتج إلى نسب، كل ذلك لأنه آمن ببلال، فإيمانك بذاتك هو نقطة انطلاقك الى السعادة.

كان علي في محاضرة لقسم الجراحة التجميل في جامعة كوينزلاند، عقدت على خشبة واحدة من أبرز قاعات إيغل ستريت ١٠ في برج الذهب، ذلك البرج الذي صممته شركة بيدل ثورب للهندسة المعمارية، وشيد سنة ١٩٧٧ في اثنتين وثلاثين طبقة، يمكن للعين رؤيته من غالبية أنحاء المدينة، وهو من أعظم المباني الصديقة للبيئة، يطل المشاهد من الطابق التاسع عشر من إحدى جهاته على نهر برزبن، وعلى جسر ستوري وخليج موراتون، كما يمكن لمن يراقبه من بعيد ساعة الغروب أن يرى كيف يتحول اللون الذهبي في هيكله الخارجي إلى أحمر خلاب، كان موضوع المحاضرة حول الأثر النفسي للجراحة التجميلية عند النساء تحديدًا، وجرت مقارنات خلال المحاضرة عن أنواع عمليات تجميل الصدر كالحقن بالفلير أو بالدهون الطبيعية، وعن إيجابياتها وسلبياتها، والسالاين والسليكون، وراح يصغي إلى

سيدات، خضعن لهذا النوع من الجراحات؛ التي تتطلب استبدالًا للمواد المستخدمة في نحت الأثداء بعد فترة، لا تتجاوز الأشهر أو السنوات، وبتكلفة عالية جدًا، وأثارت دهشته دموع إحداهن وهي تشرح معاناته في تدبر أمورها المالية للقيام بالجراحة الأولى، ثم وصفها للاحباط الذي يسكنها كونها لم تقم باستبدال المواد التي حقنت فيها ثدييها رغم مرور وقت طويل على الفترة المحددة للقيام بذلك، بسبب عدم توفر المبلغ المالي الذي تحتاجه؛ خاصة مع ارتفاع أسعار هذا النوع من الجراحات ومع تطور تقينته في الطب، وفصلت كيف أن شركات التأمين؛ لا تغطي مثل هذا النوع من العلاج، والذي ترى أن مضاره من وجهة نظرها؛ لا تقل عن مضار أمراض القلب والعظام، خاصة وأن الامر يتعلق في تفاصيل الرضى عن الأنوثة والسعادة الجنسية والقبول عند الذكور خلال العلاقات الحميمة، وأجهشت بالبكاء الأمر الذي استثار عاطفة أحد الجراحين الحاضرين، وأعلن عن تبرعه لها بكافة تكاليف العملية، فاشتعلت القاعة بالتصفيق، وغاب وعي عليّ عما يجري حوله في انتقال روحه وخياله إلى مخيم الصفيح؛ الذي خلف فيه وراءه المئات من النساء اللاتي لا يحصلن على ملابس لارتدائها خارج بيوتهن، والآلاف من الأطفال السائبين في أزقته وأحياء المخيم المختنقة بروائح البول والبراز؛ التي يخلفها الصبية نهارًا والرجال ليلًا ، وتذكر ثديي أمه اللذين كان يقيس جمالهما بما قدما له من إكسير الحياة، لا بتهدلهما إلى ما فوق سرتها، وتذكر أنه لم يسمعها ولو لمرة واحدة؛ تتحدث عن

انزعاجها من منظرهما، وراح يتساءل خفية " أتراها كانت تعاني من ترهلهما، أم أنها لم تكن تعطي للأمر أية أهمية؟ ثم أفاقت ذاكرته على مشاهد أولئك الناس؛ الذين كان يراهم منغرسين إلى ما فوق ركبهم في جبل النفايات؛ وهو يتعاظم على مسافة من حيهم، يجمعون كل ما تخمن لهم أنفسهم بأنه قد يصلح للأكل أو للاستعمال من معلبات انتهت تواريخ صلاحيتها، أو ملابس أو أدوات كهربائية وغيرها، ليدرك أنه من نفاية تعتاش على نفايات النفايات؛ وأن وجوده في هذا العالم المرهف أحاسيسه خطأ، وأنه ما كان ينبغي له أن يأتي إليه مهما كانت المغريات، فانسحب من المحاضرة، ولحقت به إيزابيلا وتبعهما جو، وسار الثلاثة بجانب بعضهم البعض صامتين، دون أن يحاول أحد منهم شق صدر الصمت الثقيل في شوارع هذه المدينة؛ التي دخل نخبتها في حجرة تبحث عن حل لنحت الأثداء المترهلة وإعادة تشكيلها جمالياً، دون أن يعني تلك النخبة جفاف تلك الأثداء من حليب الرضع في مخيمات المشردين واللاجئين في كافة قارات الأرض، في واقع بشر تجف أجسادهم فيه يوماً بعد يوم ليتطوع الملايين من المفعمين برحيق الإنسانية بغية المساعدة، بدفع ثمن المساعدات التي يقدمونها للجائعين والمتضررين، عائلات دفعت لإشعال حروب ونشر أمراض شردتهم بيد، لتسلب أوطانهم كل خيراتها باليد الأخرى متخفية خلف قناع واه من المنح التي تقلها طائرات، تجوب سماء هذا الكوكب ليلا نهاراً، تقتل حيناً، وترمي الغذاء والدواء أحياناً.

وأخذ علي يغني أغنية زياد الرحباني " شو هالأيام اللي وصلنالا، قال انه غني عم يعطي فقير، كنو المصاري قشطت لحالا ع هيدا نتفة وهيدا كثير" ليتم معه جو "الحلوة دي بتعجن في الفجرية"

أحاطت ذراع إيزابيلا بيد علي وهو يمشي، والتفت إلى جو تستفسر عمّا يغنيان معا، تحت وطأة ما تشعر به من حزن قد عصف بعليّ، وترجم الأخير لها ما كانا يغنيان معاً، ليكون علي قد استبدل ذلك بدندنة أغنية (وحدن بيبقوا متل زهر البيلسان) لفيروز التي كتب كلماتها الشاعر طلال حيدر ولحنها لها ابنها زياد، وما إن ردد أول مقطع منها، حتى التحق به جو مغنياً معه:

"وحدن بيبقو متل زهر البيلسان/ وحدن بيقطفو وراق الزمان/ بيسكروا الغابي بيضلن/ متل الشتي يدقوا على بوابي/ يا زمان يا عشب داشر فوق هالحيطان/ ضويت ورد الليل عكتابي/ برج الحمام مسوّر وعالي/ هج الحمام بقيت لحالي/ يا ناطرين التلج ما عاد بدكن ترجعوا/ صرخ عليهن بالشتي يا ديب بلكي بيسمعوا/ وحدن بيبقو متل هالغيم العتيق/ وحدن وجوهن وعتم الطريق/ عم يقطعوا الغابي ."

لينفجرا ضاحكين عندما تنبها إلى أن إيزا كانت تحاول أن تغني معهما دون جدوى، فتطلق أصوات المد وبعض الهمهمات هنا وهناك، محدثةً نشازاً فجر فيهما قهقهات عالية، ما دفعها لترك ذراع علي والاستدارة في طريق العودة

مدعية الغضب، فاستدارا خلفها يركضان ضاحكين محاولين استرضاءها، حتى عادت وقد تأبطت علي من جديد، وأسندت رأسها إلى كتفه كقطة راحت تمرغ وجهها بصاحبها حباً وعشقاً، وجو يغمز لعلي بطرف عينه، ويحثه على التخلي عن خجله، ما دفعه لتطويقها بيمناه، كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بجسد أنثوي يلامس صدره، فراحت أنفاسه تتهدج، وأخذت ضربات قلبه تتسارع، الأمر الذي جعل جو يقف أمامهما هاتفاً :

- إيزابيلا .. إيزابيلا .. إيزابيلا ! إنه يحب حباً بدوياً، لن تقوي على احتمال عاطفته الجياشة وقد يدمرك بغيرته، وشغفه الجارف، فاحذري ناراً بدأت تحيط بك.
- يا جو نحن في الشرق لا نؤمن بالحب، بالرغم من أننا نبذل رحلة العمر وتفاصيلها بحثاً عنه، إلا أننا نؤمن بالكراهية التي تعزز فينا مقاومة للحب، اعتقاداً منا بأن الحب استسلام واتباع وتخلي عن الكيان، يجعل العاشق بمصطلحنا الشعبي خروفاً، نحن في الشرق نتوهم أننا نعيش كل حياتنا مستهدفِين، معرضِين للهجوم في أية لحظة، ونفسر كل علاقاتنا بما حولنا بهذا المنطق، فالعمل عند الفرد منا عبء يهاجمنا، وعلينا أن نقاومه بكل ما أوتينا من فساد وطمع وحب للمال، حتى نبني امبراطوريتنا المالية علنا نرتاح، ونعتقد أن فصول الكون تهاجمنا وتفرض علينا مقاومتها فصيفنا

نكرهه لحره بالرغم من ضرورته لنضج ثمار الصحارى في بلادي، والشتاء يؤزم حياتنا لأنه يهطل في مواقيت العلم، ونحن نريد أن نكون عند هطوله في خيمة في الصحراء نلهو ونستمتع، ونعتقد أننا مهددون كل يوم بمهاجمات من أناس جدد، علينا أن نقابلهم في العمل والشارع والسوق والإدارات، ونعتقد بأننا مهددون بقراءة كتاب يختلف معنا في طروحاته..

حتى شروق الشمس يباغتنا بهجومه؛ الذي يفرض علينا النهوض من الفراش إلى أعمالنا التي لا نحبها بتاتا، ولو أنك التقيت ملوكنا لقالوا لك إننا مضطرون على تولي الملك، فينا من الكسل يا جو ما يجعل الشيء الذي نعشقه هو جاذبية الأرض التي تشدنا إليها في الفراش، وتبطئ حركتنا، نحن يا جو نعشق جاذبية الأرض، إلى حد أننا مستعدون للموت في سبيل أتفه فكرة، يقنعنا بها رجل دين لنماشي جاذبيتها إلى قبر في جوفها، مكفرين أولئك الذين لديهم ديانات تحثهم على حرق جثث موتاهم لتحررهم من جاذبية هذا الكوكب وضيقه.

وتدخلت أيزابيلا مستفسرة عن مضمون هذا الحوار الذي يدور بالعربية، فرد عليها جو :

- إنه يشرح لي كيف يحبك ويفعل ذلك بالعربية، لأن ثقافته تمنعه من فعل ذلك بشكل مباشر؟

وعلي ينظر إليه فاغراً فاه مما يقول، وإيزابيل تكشف عن أكثف ملامح العشق في احمرار خديها، وتمرغها بكتفه الذي تتوسده أثناء السير.

وصلوا جميعا إلى مدخل العمارة التي تقع فيها الشقة التي يقطنها جو، الذي ألح عليهم بالصعود، فشدت إيزابيلا علي من يدها وجرته خلفها وهي تحثه على الصعود، وهو يتذرع بأنه متأخر في إنجاز بعض البحوث والدروس، فتلح عليه، ليصعد، وتعد بمساعدته في ما تأخر عن إنجازه.

استأذن جو ليدخل غرفة نومه الخاصة، وقد ترك علي وإيزابيل يجلسان في غرفة الجلوس، ثم عاد يحمل بين كفيه لفة قماش بيضاء، جعلته يبدو كما لو أنه يحمل طفلا رضيعًا، تقدم من علي، مد بها إليه، فتناولها علي مستغربًا، يسأل عما فيها، فطلب جو منه أن يكتشف ذلك بنفسه، فيما كانت إيزابيل تراقب اللفة بين كفي علي بصمت وحذر، تنتظر أن يفتحها، وراحت يمين علي تبحث عن طرف هذه اللفة لترفعه، سحب طرفها يمينا مرة، ثم تناوله من تحتها بيسراه أخرى، لتتلقفها يمناه التي كشفت عن محتواها، فقد لمع الخط العربي الذهبي الغائر قليلاً في جوف الغلاف الأخضر، ليخفق قلب علي مع اكتشافه أن جو قد أحضر له قرآناً كريماً، وراح يلتفت إلى المصحف الشريف مرة وإلى جو أخرى وفي وجهه ملامح حب، تُصعِّب

على إيزابيل، أن تميز إن كان مبعثها هذا الكتاب أم جو، وقبل أن يباد رعلي لسؤال جو عن سر احتفاظه بنسخة من القرآن في بيته، قال الأخير :

- هذا القرآن أهداه لي يوم سفري صديق عمري وطفولتي مازن، وطلب مني أن أحتفظ به ليكون رفيقي في غربتي وساعات ضعفي، فطلبت منه حين أعطانيه، أن يعلمني ماذا علي أن أفعل قبل أن أقرأ به، فتوضأ أمامي وجلس متربعاً، وراح يقرأ بصوت، جعلتني عذوبته أحتضنه وأبكي، وصرت كلما اشتقت إلى مازن أتوضأ وأقرأ بهذا القرآن، فأشعر بالسكينة والسلام، فهلا يمكنك أن تقرأ لنا بصوتك بضع آيات منه ؟

نهض علي وتوجه إلى الحمام، ثم عاد وقد بانت على وجهه وساعديه آثار الوضوء، وتربع فوق الأرض، وأمسك القرآن بيساره، فيما تولت يمينه سحب الخيط الذي فتح له الصفحة على سورة النحل صفحة ٢٦٧ ، وراح يتأملها بعيون منكسرة حزينة، ثم تنفس بعمق وبدأ التلاوة والتجويد، فسال صوته في روحي إيزابيل وجو، كما لو أنه حبل مطر رقيق يسيل من السماء، ثم يتلو " لقد أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون.." و هاج اشتياقه، واشتعلت روحه، فأخذ يقرأ بعذوبة أشد مما بدأ، وقد أغمض عينيه التي راح يجري دمعها على خديه، ونزلت على المكان سكينة وصمت مقدسان، وتعلقت عيون جو وإيزابيل في وجه علي الذي غابت ملامحه، وما

بدا منها غير بريق الدمع، ورخامة وعذوبة الصوت التي قد أضفت على المكان حالة من السكينة والعزلة عن العالم، ودخل كل منهم في عالمه الخاص، وحضرت صورة مازن إلى مخيلة جو لحظة الوداع، وحارت إيزابيل في فهم الذي يحصل داخلها، فيما راح علي يغوص عميقاً في رجاءاته الوجدانية أثناء التلاوة سعياً لخشوع أعمق، حتى توقف عن التلاوة خاتماً بالآية التاسعة عشر :" والله يعلم ماتسرون وما تعلنون " ثم أغلق المصحف وهو يردد صدق الله العظيم، ورفعه إلى جبينه وقبل أسفله، وأعاد لفه بوقار، ثم ناوله إلى جو الذي أعاده إلى مكانه في غرفة نومه، تاركًا علي في صمته يمسح دمعه بمنديل، تناوله من يد إيزابيلا، ويذكر الله تسبيحًا واستغفاراً.

تنهدت إيزابيلا، وسألته إن كان بامكانها أن تحضنه، فأشار لها برأسه رافضًا، وبرر لها جو رفض علي موضحاً لها رغبته في الحفاظ على الوضوء، الذي سيفسد إن لامسته، فبقيت في تربعها، تشبك أصابعها بين فخذيها، وجلس جو في مقعد جانبي من الجلد الأبيض صامتًا، حتى فتح علي عينيه متأسفا منهما، ونظر إلى جو شاكراً على هذه اللحظات الرائعة، عندها تجرأت إيزابيلا على القول بدلع وأنوثة وعشق :

- هل ستعلمني يوما القراءة في هذا الكتاب، وبهذا الاسلوب والصوت الجميل الذي فعلته الآن؟!

فتبسم لها علي، وهز برأسه، ثم اشاح بوجهه، وكاد يغص في البكاء، وعجز جو وإيزابيل عن التحرك من مكانيهما، وبقيا يحدقان في الأرض بلا أي رد فعل. إلى أن نهض، ودخل الحمام، ثم عاد وقد غسل وجهه، وجلس عن يمين جو ثم انحنى، وسحب إيزابيل من يدها لتجلس عن يساره، وطوقهما بذراعيه ، محاولا أن يخرج ضيقه من صدره بزفرة حارة، سائلاً:

- ألستم جائعين ؟

ليأتي رد الاثنين على سؤاله بالتأكيد، نهض جو إلى المطبخ ليعد الطعام، ثم تبعته إيزابيل، وهي تقول لعلي :

- يمكنك أن تساعدنا متى شعرت بأنك قادر على ذلك.

بعد تناول العشاء، تلقى جو اتصالا من الدكتور بدر، يخبره فيه أن عليهم تسليم جوازاتهم في أقرب وقت ممكن بهدف الاستعداد لحملة العمل التطوعي التي سينطلقون فيها! ثم أقفل الهاتف، وأخبرهما بما طلبه الدكتور بدر في حال توفر الرغبة عند أي منهما للمشاركة، فتوجهت إيزا لعلي تسأله عن نيته ، فأكد لها أنه سيفعل، خاصة وأن المخيم سيكون في سلطنة عمان، وفي جبال مسندم التي سمع عنها ولم يزرها من قبل، لكنه كان يرغب المشاركة لغاية في نفس قبيلته.

وراح يخبرها أنه عليه أن يبحث لهم عن كتب ومراجع ومواقع في النت، ليقدم لهم أية معلومات، يمكنها أن توفر لهم، ما يجب أن يطلعوا لتسهيل رحلتهم هناك، إلا أن إيزابيل قالت له :

- لا أظن أن الدكتور بدر سيهمل أمراً كهذا، وأنا واثقة أنه سيضع بين أيدينا ملفاً كاملاً بالصور والوثائق والمعلومات؛ التي قد نحتاج معرفتها قبل أن ننطلق.

ثم توجهت إلى جو وعلي بكلامها ، قائلة :

- وبالرغم من كافة الأمور التي نعلمها عن بعضنا البعض، إلا أننا بحاجة إلى أن يجلس كل منا أمام المجموعة، ليروي للآخرين وبالتفصيل الدقيق كل حياته، لنصبح جميعاً ملمين بهذه التفاصيل؛ التي تجعلنا ندعم بعضنا بعضاً في ذلك المخيم، الذي لا نعرف عنه حتى اللحظة أكثر من فكرة عقده، وبما أننا في نهاية الاسبوع، وغدا يوم عطلة، سنقضي هذه الليلة في ضيافة جو، وسنسهر حتى الصباح، ليحكي كل منا حكايته للآخرين.

رحب جو بالفكرة، وقال: إذا سأجلب التسالي، وأعد ركوة قهوة كبيرة، فليلنا طويل!

بدأ الأمر بجو بحكم أنه صاحب تجربة أكبر، وهو من بلد لا زالت فيه أساطير الفينيقيين تتكثف رغم تقاطر السنين فراح جو يتحدث عن تجربته في قريته الجبلية المعلقة على صدر جبل لبنان، في المتن، فأنقلب فجأة من ممرض إلى مهاجر، يتوجع من مراكبه، التي لا تقوى على الاقلاع من شواطيء الانتظار، وراح يقول :

- أيام كنت في قريتي كانت السماء تمطر حليباً، وكانت الأرض تنبت خيالاً. لم أكن قد ولجت في عصر الأيديولوجيات بعد، ولكني كنت أعي معنى أن يجوع الفقراء كالكلاب ليعيشوا كالإنسان. كانت كتبي أيامها أغاني الناس الشعبية؛ تلك التي كان يطاردها الرعيان في التلال والوديان بشبابات تُسيلُ الحزنَ على أمسياتنا الهادئة. كانت حكايا السهرات سفني التي أبحرت فيها صوب مدن لم أرها من قبل، وكانت حدود الأرض عند ركن الموقد المتأجج جمره كلما هطلت أمطار كانون، ونَدَفَ الثلجُ على حافة الشباك الوحيد في غرفتنا؛ التي كانت قصرنا المطل على ليال لا زالت تقيم فينا. كانت سراويلي من بقايا قماش الوسائد والدواشك، ولم تكن أمي تتقن فن التفصيل والخياطة، ولكنها كانت تعرف كيف تجعل الدفء يسري في جسدي بمجرد ملامستها ذلك القماش. لم أكن أعرف أيامها معنى الإنسانية، لكني كنت أعيه في ما تبقى من بقايا أسنان في أفواه العجائز،

اللاتي كن بيتسمن لنا نحن الأطفال رغم كل ذلك الحرمان. كانت أكفهم الخشنة ملأى بالزبيب والقضامة والتين اليابس، وكانت تلك الخلطة السحرية أولى مفردات قاموسي الإبداعي. كانت الصداقة تشبه كثيرًا تفاصيل أبواب البيوت الخشبية البسيطة، تلك التي كانت مجرد ألواح طولية تثبتها بضعة ألواح عرضية، تحملها فصّالتان صنعها الحداد العربي الذي كنا نسميه السقى، وكنا نحكم إغلاق الباب ليلا بمفتاح، كانت أمهاتنا تضعه في حوض الزهور، حتى إذا ما أتى أحد منا عرف مكانه، فقد كان كل بيت في القرية بيت القرية كلها . كانت بيوتنا خاوية إلا من الحب، وكانت أبوابها الخشبية تحن علينا في أيام البرد، فتتمدد لتغلق كل الشقوق في وجه الريح والزمهرير. كانت ثروات أسرنا تعلق إلى أعناق أمهاتنا أكياس تدلف بين أثدائهن كما لو أن تلك الصدور قد كانت بنوكاً وحقولاً وسماوات. كانت خزانات مياهنا في الحواكير بحارنا التي نسبح فيها صيفاً، وحماماتنا التي تزيل عنا غبار اللعب، وكانت ضفاف سواقي زهورنا، وأحواض عطش مواشينا، وموارد مياهنا العذبة لكل مسالك الحياة. في قريتي كانت الملعقة الخشبية تطعم مؤخراتنا أكثر من أفواهنا كلما ازدحمت في نفوس أمهاتنا هموم الحياة، لم يكن في قريتنا شاعر عظيم، ولكنها كانت ملأى بالخيال والشاعرية وفضاءات الإبداع، لذلك لم نكن بحاجة لكتابة القصائد لأننا كنا

نعيش في بطونها. في قريتي كان الحب كل موائد المناسبات، وكانت أمعاء الناس أعينهم؛ التي تشبع قبل أن تمتد يد إلى الطعام. في قريتي كانت أحزاننا وسائد، لا نستبدلها وفاء منا لمن أوجعونا، وإذا ما أقبلت الأعياد، كنا ننام على صور أحبتنا التي نظل فيها طوال أماسي تلك الأعياد. فقد كانت قريتي المدينة والقصيدة والحبيبة، وقد كنت فيها أميراً بدون قصر أو حاشية أو غِوان.

ثم راح يفسر لهما فعل ثلاثية الفقر والحب والإبداع فيه قائلًا:

- ثلاثية علمتني كيف أفتح في جسدي ثقوباً، ليخرج منها الفقر، ويدخل فيها الحب نسمات تؤجج في طيني نار الإبداع المقدسة. ثلاثية جعلتني أحمل الماضي على كتفي كصخرة سيزيف، أنوء تحت ثقلها، وأعجز عن إنزالها، وأظل أمشي بها هربا من وديان الفقر، عليّ أصعد قمم النور التي تمكنني من الصراخ وحيدًا هناك، ولكم سقطت تحت صخرتي، لأستفيق على فمي الذي امتلأ بالتراب عوضًا عن الصراخ، فأنشغل في تنظيفه إلى أن تهدأ نفسي واتذكر فقري الذي ألبسه كجلدي، وما عاد يليق بي سواه.

حولني الحب إلى مسيح، علقته تجاربه على صليب الشوق المشتعل، حتى غدت كل مساميره التي دقت في جسدي أنابيب نور، تصل روحي بالسماء، فأتدلى منها كما لو أني واحدة من

شخصيات مسرح العرائس، تحركها خيطان، تدلت من علٍ كلما أراد السمار حكايا، وتلتف حول عنقي بعد أن تطويني أصابع المشخصاتي ليضعني في كيسه القماشي. حولني الإبداع إلى صياد لا يملك زوارق ولا مجاديف، تمكنه من السفر بعيداً ليعود إلى أطفاله الجوعى ببعض الأسماء، وبقيت أعوم على الشطآن، أخابط الموج بكفي، وأرسم على رماله سمكة كبيرة لن تصطدها صنارتي يوماً، وبقي الإبداع جدراني التي أعلق عليها أحلامي كل صباح، قبل أن أغادر غرفتي، لأرتديها ليلا كلما تسلق النوم جسدي. وأنا الذي ما أشعلت نارٌ في روحي إلا من حطب أعصابي، وزيوت دمي الملتهبة بحمى الوصول، وقد كانت الطريق ذات بداية عرفتها، وهيهات لي أن ألمح نهايتها قبل شواهد القبور! أما الفقر فما كنت أعلم أن لجوعه هذا العمق الساحق في عالمي الجواني، فكلما فررت من عمقه ازدادَ غورًا، فكأني أفر عمقاً لا صعود منه، صوب حوافّي التي باتت أعلى من أكفي الممتدة مستطيلة بأصابع قدمي، تنتصب عشقًا للخلاص. وكما يبدو لي فإن الفقر نفقٌ يمتد من أول عتمة الأرحام إلى آخر ليل القبور. ولكم رأيت في طريق الفرار منه أرواحاً سجّاها الوهن والعجز، وخذلتها أقدامها في بداية المسافات.. لم أحب الفقر، ولكن لم أقوَ على محاربته، فقد بقيت أشمه في ملابسي الرثة وفي بقايا روائح الماضي الحميم. وها أنا ذا أخلط بين الحب

والفقر والابداع، لأن هذه الثلاثية هي الوحيدة التي مكنتني من طريق الوجدان إلى انتفاخات خوابي العجز في مخيلتي، تلك التي كنت أصب فيها حرماني، لأسكبه اليوم محاولات، قد لا تلامس الضوء. ذلك الخزان المليء بحكايا الليالي البيضاء والسوداء على السواء، المليء بموسيقى الحب والحرب والموت، المليء بألوان الطيف والحزن والفرح، المليء بكائنات تأبى أن تغادر جراحنا التي تستوطنها سكاكين ركزها الزمن في خرائب هذا العمر المبكي. وبين قريتي وثلاثية الحب والفقر والابداع، نصبت حبالًا من المحاولات التي لن تنتهي، فكلما دنا مني سقوط؛ أمسكت كفي سماء.

استثارت عقلية جو ومخيلته علياً، فأحس بالرهبة أمام هذا الرجل الذي يكشف في كل يوم عن عمق لم يكن يتوقعه من قبل، نظر إلى جو، وأطال النظر فيه صامتا، يمتنع عن القول والتعليق، حتى طلبت منه ايزابيلا أن يبدأ باخبارهما عن نفسه.

تنفس بعمق، وأخذ يسرد الكثير من طفولته التي لم تسقط منها الغربة أية تفاصيل، بل حرضت الحنين فيه على الانتفاخ إلى حد بدأت معه مخيلته باستحضار والده وهو يصلي فوق الرمال صيفاً شتاء خلف الحي الصفيحي، وحضرت أمه وهي تخرج صباحاً من الحي وعلى رأسها بقجة سوداء، لتعود

مساء والبقجة لا زالت فوق رأسها، فكأنها لم تنزل عنه طوال النهار، وأخذ يلمح كل ما كان يراه خلف الأبواب وما بين الشقوق وفي الأزقة والزوايا، وحضر أمامه نواف في سريره، ذاك الذي لم يخطر بباله يوماً أنه سينوب عنه في مسيرة الحياة، ولم يخطر ببال نواف يوماً أن خاله سيكونه، وراح يتذكر انفعالاته كلما دخل عليه في غرفته، وهو الممدد في سريره ، فيثور ويطيل أنينه وثورته، ليفهم عليَّ من ذلك أن نواف؛ يريد أن يعانقه، وتذكره طفلاً أيام كان يمكنه حمله على ذراعيه وإحضاره معه من بيت أهله في المدينة إلى بيت جده في الحي الصفيحي، وكم كان يفرح نواف بهذا التغيير البسيط، فيبدأ بتحريك لسانه وإصدار أصوات غير مفهومة محاولًا التعبير عن فرحه بما يفعلون لأجله في هذا المنزل الصفيحي؛ الذي كان بالنسبة لعلي مبعث شجونه وثورته، فيما كان لنواف مصدر فرحٍ وتغييرٍ، ثم راح يجري مقارنة بين ضفتي الحياة التي شهدها، فهناك أطفال يعجز أهلهم عن مقاومة الرغبة في تلبية حاجاتهم مما لذ من طعام وشراب وألعاب، وهنا أطفال يبيتون بعد أن عجز أهلهم عن إحضار اليسير من الذي يمكن أن يسكت جوعهم، ويمكنهم من النوم.

وهناك أنوار تنعكس أشعتها على الذهب والحلي والملابس البراقة والأكواب الزجاجية الشفافة والأحذية اللماعة، وهنا مصابيح وأنوار جلبها أهل الحي عبر خطوط كهربائية مهربة من هنا وهناك، وعبر البحث عنها في أكوام

النفايات التي كانوا يغطسون برؤوسهم فيها بعد أن غصت بها الحاويات أمام أبواب القصور.

وهناك غرف غصت بالضحك واختنقت بروائح العطور والشهوات؛ التي سالت على الاسرة والوسائد، بعد أن حضرت فتيات من كافة أرجاء الأرض، فتيات جلبهن الجوع والحاجة والفقر المدقع من أوروبا وأفريقيا وآسيا، كانت فروجهن آبار النفط التي راحت تضخ على أسرهن المال والخيرات، وهنا أطفال ينتشرون – ومع صلاة الفجر عند أبواب المساجد – يسألون الناس فيمنعون ويعطون، وصبايا خرجن بحثاً عن مرحاض أو مطبخ أو دار ينظفنها، ويغسلنها لقاء بعض المال والملابس الرثة وفضلات الطعام، وآباء يخرجون من بيوتهم بكامل اعتباراتهم المعنوية التي يتجملون بها أمام نسائهم وأطفالهم، ثم يعلقونها خلف أبواب القصور والمزارع التي يخدمون فيها شتى أنواع الخدمات التي تطلب منهم، ليبلغ الأمر ببعضهم أن ينهق كحمار او أن ينبح ككلب، يسلي الحضور، ويجلب الضحك، أو أن يتعرى كاملا ليتسلى المترفون برمي أعقاب سجائرهم المشتعلة على جسده العاري مقهقهين كلما انتفض إذا ما لسعه جمر السيجارة، وآخرون منهم كانوا يتوسطون الجلسة؛ ليرقصوا مثل النساء، ويتعرضون للتحرش الجنسي، كاتمين غيظهم بابتسامات لعلها تزيد من رضى هؤلاء الأثرياء التافهين. وكم من قصة سمعها عليّ عن أشخاص كانوا يلبون مطالب أصحاب القصور أو ضيوفهم

بالنوم في مضاجعهم، ليعودوا في الصباح محملين بالهدايا والأطعمة، وفي وجوههم بقايا أرواح تكسرت ليلًا على مذبح الصبر والتحمل والاغتصاب، حتى أودت بالبعض منهم إلى شنق نفسه بحبل أو رمي نفسه عن جسر أو الرحيل كليًا عن عائلته والاختفاء في المجهول، هناك تحت تلك الثريات المشتعلة تساوت الفضيلة والرذيلة وعلى بعد أمتار منها، وتحت عتمة الأكواخ كانت الرذيلة بوابة مرتكبيها إلى الجحيم، أما الفضيلة فلم تكن تلقى من أي أحد أدنى التفاتة، والمشكلة كل المشكلة أن غالبية أسياد تلك القصور كانوا يقصدون تحت جنح الظلام ذلك الحي المتهرّيء الأكواخ بحثاً عن مفسر أحلام أو عن عراف يقرأ لهم الطالع، أو عن السمهري ذلك الذي اشتهر بتفسيره للأحلام والأسماء والإيحاءات، حتى بلغ صيته أحد الحكام، فقربه منه وجعل اقامته في قصره يلجأ إليه في كل صغيرة وكبيرة، الأمر الذي جعل الكثير من الوزراء يتوددون إلى السمهري ليوصلهم إلى الحاكم، وإن فكروا بالتخلص من الحاكم عليهم التخلص من السمهري قبله. وساد جوٌّ من الدهشة والصمت، إلى أن أحس علي أن الصمت طال، ففتح دفتر مذكراته وراح يقرأ عليهما بعضاً من مقاطع احتفظ بها، ولم ينشرها لغاية في نفسه :

مرة جاءني مقاتل بصفقة قال : يا هذا.. لقد تعبت من القتال، وما عادت الدرب تؤدي لغير الموت، ولي بيت ولي فيه عيال، وقد

تعبت من المسير حافياً، ومللت الطريق من كثرة السؤال، فلو أنك تقبل أن تبيعني بكل طلقة كلمة، فأنا أحمل جعبة مدججة، وفي كل مخزن ثلاثون طلقة، سأفرغ المخازن في جيوبك، وأعيد ملأها بالكلمات، وأكمل الطريق.. وكلي ثقة أن الحياة طويلة لمن يقاتل بالحروف.. فقلت له: يا سيدي إن الذي في حلقي من كلمات؛ قد لا يساوي جعبتك! فإن أنا أعطيتك ما لي، فكيف أسير ما بين القوافل، وكيف أحمي أناسها؟! فبكى ذاك المقاتل، وراح يطلق طلقاته التي فازت بالفرار في الفضاء، وقال : إذا سأمشي وراءك، وأعيد ملء مخازني بالكلمات الفارغة، تلك التي تسقط منك، وأصيح في الناس بصوتي : انا الذي قدست سلاحي، واكتشفت أنني قد ضللت في الطريق.

لا يحق لمن ترك أمه وغادر بيتها بقلب يافع، أن يرجع ليزور قبرها بقلب حطمته الغربة.

أتدرين يا أمي أني عرفت الحزن منذ أن استبدلت ذراعك بوسادة، وفقدت الاستقرار، منذ أن داهم الصمت أغانيك في المهد؟!

قدم الطفولة التي لا زالت عالقة في حذاء أبي المركون في عتبة ذاكرتي، يوجعني مقاسها، إذ لم يتغير رغم كل الدروب التي عبرتها.

الحياة بلا أهداف، تصبح كما لو أنك ارتديت ملابس سوداء بالكامل، وقد جلست في مكان حالك الظلام.. لا شك أنك ستفقد

الاحساس بالمكان والزمان، وتشعر بالتيه، فيموت البسطاء لأن أجسادهم تحل خفيفة في التراب، ولأن أرواحهم تسبح خفيفة في السماء، يدخلون الكون دون ضجيج أو استثناء، فقط يرحلون.

انتقل الكلام من علي إلى إيزابيل، تلك الفتاة التي كانت مفعمة بالشباب والجمال والحب، فراحت تحدثهم عن عشقها للموسيقا وعن رغبتها في دراسة الحضارات، وعن أحلام في السفر، ثم تحدثت عن تأثرها من جهة أمها بالروائية التشيلية أستريد فوجيلي صاحبة رواية " أرض الهارلينكس ، تلك القوس التي تشكلت بعد المطر" والتي صدرت عام ٢٠٠٥ ، ثم حكت عن تأثرها بميول أبيها الموسيقية، وتعلقه بمؤلفات جورج فريدريك هانديل خاصة " المسيح " أشهر أعماله في الأوراتويرو من أواخر العصر الباروكي، وبدا من خلال كل ما قالته أنها من مجتمع لا ظروف قاسية فيه تؤثر بأرواح أبنائه طويلاً، و تقيم فيهم كالأمراض، لتقذف بهم في أعماق الحزن والاضطرابات؛ التي تؤدي بهم إلى البحث عن الفرار أو الهجرة أو الرحيل هرباً من ماض، لا يمكنهم الفكاك منه، أوالخروج من واقع يعجزون عن التكيف، ليلائم أرواحهم، بل هي من تلك المجتمعات التي تمكن أبناءها من الثقافة والابداع والتفرغ، لفهم أنفسهم دون تشوش وأعباء لها أول وليس لها آخر.

****

الحب يصنع منا أي شيء، ولكنه لا يصنع منا عشاقاً، فالعاشق لا تصنعه إلا التجارب القاتلة!

" ليل الناس أليال، وفي كل ليل ألف ليل وليل، فليل الشعراء قواف وصور ورموز وعشيقات وفراق ولقاءات، وليل الرسامين ألوان وريش وخامات وزيوت وأبخرة حرقاتهم التي تتصاعد في المراسم من صدورهم، وليل الزناة فحيح وحمحمات ورغاب وصهيل، وليل التجار أرقام وحسابات وخسائر وأرباح، وليل الساسة مغامرات وخطط وكر وفر، وليل المجرمين حذر وخشية وتتبع واقتناص، وحده ليل المعذبين المؤمنين بانسانهم رحمات وسلام ، إسراء من الطين إلى الضوء، وعرج من الجسد إلى الروح، هناك في ذلك الليل الممتد أحداثاً وتناقضات، نرى الخشوع أجمل ما يمكن أن يبلغه السابحون في عالم الصفاء، يرتلون أوجاعهم وحرمانهم ابتهالات، تصل أعناق السماوات، لتعود حاملة معها سلالًا من الرجاءات وبقايا الأمل، غير آبهين بمكونات أليال

الآخرين ممن يحيطون بهم، فكم من مريض أحصى ثواني ليله بانفاسه، وكم من غريب نسج سواد ليله بخيوط من معاناته على شرفات التصبر والانتظار، إنه ليل واحد بظلماته وعتماته واسوداداته عند كل البشر، لكنه ليل يتشكل امتداده من العوالم الجوانية لساهريه، ففي أفريقيا ليل المعابد، لا يعد سواداً مليئا بالأوثان والرموز والأقنعة، بل هو ليل يحمل في ثناءاته الكثير من الأسرار والعلاجات التي تنثرها آلهة القبائل بأسمالها البالية وخرقها الممزقة المعلقة على الأحبال والأشجار، هناك يتحول الليل إلى دلالات، لا يمكن فهمها واستيعابها بتلك الأشكال الظاهرية، حيث لا تعود الخرقة مجرد خرقة وأنياب الحيوانات مجرد أنياب بل تتعداها إلى مساحات وأضواء واختراقات، تحدثها في أرواح مؤمنيين بحاجة إلى قوى خارجية، تتدخل في جوهرهم، لتحدث ذلك التغيير المنشود لمصائرهم .

يتوقف مشروع خلق الإنسان بموته، ولكن ما من أحد يدري إن كان يكتمل بهذا الموت أم لا، رغم أن الجميع يعرف بداية ذلك المشروع؛ إلا أنه ما من أحد يستطيع أن يجزم مضمون تلك النهاية ".

هذا ما دار في خلد الرقاش، وهو يتأمل وميض النجوم أثناء تمدده فوق حصير من سعف النخيل على رصيف بجانب جدران أحد القصور في صنعاء.

فالجحيم هو أن تحيا في بيئة، تجزم أن المعرفة إثم وكفر، بيئة يسكن الجهل تفاصيلها، فتحاكم الخالق والمخلوق على الجرم ذاته، بيئة تعتقد أن العلم مفسدة وتحلل أخلاقي.. فالجحيم هو الجهل. هناك يكون الكل عارفاً عالماً بكل شيء إلا بجهله. تنظر من حولك، فتدرك كم هو مرعب وقوفك وسط ما يحيطك من جدران آيلة للانهيار. جهل يعمل على تحقيق السلام بقوة الغباء. يعمل على تحقيق التطور بقوة التخلف. يعمل على تدجين عقلك برتابة النباح المخيف. فتعرف حينها بأنك غزال أيسوب الاسطوري، تنهار ثقتك كلما سمعت نباح الكلاب. فتفر اليها طالبًا الحماية منها، فالعائلة ليست مسؤوليات جافة وقسرية منفرة، تغصبك على التزاماتك تجاهها، بل هي مؤسسة تستحق كل اشتراكاتك اليومية لاستمرار عضويتك فيها. أنت تدفع لتحمي حبك وكيانك، فالحب قناة تضخ عبرها كل ما يترسب فيك من مال وشهوات وقلق وجهد، لتشع روحك نوراً في عالمك الجواني، فتدرك عندها من أنت، ولكن كيف لمثلك يا رقاش أن يحتمل كل هذه التساؤلات، وأن يصغي لصوت الله في روحه، ولآلاف النداءات المشوشة، وأن يثني على صكوك معدة لتحركاته، و أن يتقبل رتابة الناس من حوله، وهذا التحول البطيء في ملامحهم، و أن يقل جسده وحزنه وروحه وأحلامه يوما بعد يوم؛ دون أن يلتفت إلى أي منفذ يمكنه من الفرار النهائي، مستمرًا في تجوالاته التائهة؟ لا شك أنك قد أدمنت الأمل، وأنت تحاول؛ أن تجفف نفسك من كل إجابة مقدسة، ومن روائح الدم الذي يلتصق بك رذاذه المتطاير

خلال هذه الطريق، ولكن انشغالات الكون في الموت الأسود تجعل الأمر أعقد من حاجات، فكثيرون في الحياة يتلفون الكثير من حياتهم، دون أن يدركوا أنهم يتلفونه في سبيل الحب.

هذا ما كان يقرأه لامبير في مخطوط الرقاش وهو يتقدم صوبه من الرصيف المقابل لجلوسه بجانب شاحنة النقل الصغيرة التي كان يجلس فيها بعض العمال من الجنسيات الآسيوية، وقد تربع أحدهم فيها، وأسند ظهره إلى حافة صندوقها، وقد وضع قارورة ماء فارغة على فخذه، وراح يرش فوق شفافيتها نقرات أصابعه، فيجرح نقاؤها كلما اهتز حنين الحاضرين، مغمضًا عينيه، تاركًا وجع الغربة الذي يثقل كاهله، يمنعه من السير في طريقة العودة صوب وطن، يسيل على قعرها، وقد فرش أمامه منديلاً داكن اللون، تتوسطه قطعة نقد معدنية لم تتكاثر، ليس بخلاً، ولكن تحريم الانفاق على كافة عناصر الموسيقا، زاد التماسف بين القلوب والجيوب، فالدم الذي تسيله طلقة أو شظية مسبقة الدفع تفرق الجمع، يرضي إلهاً تتجهم ملامحه لدم يشتعل حزنا في عروق أيدٍ تنقر إيقاعاً، شدهم للاصغاء.

لم يدفع لامبير له كباقي الذين وقفوا ينظرون إليه، بل صعد إلى جانبه وراح يلم ايقاعاته، ويوزعها في تفاصيل جسده تقاسيماً، تتمايل بها روحه، وقد أصر حزنهما كغريبين على الاشتعال تصفيقاً.

نزل لامبير، وتقدم من الرقاش، وقال له :

- أني لا زلت أقرأ في ما أعطيتني، وأحاول أن أفهم ما تريد إيصاله؟

فرد عليه الرقاش بكل شرود وتخيل :

- ما عاد البعد يجدي نفعاً يا خواجا، فالحزن الممتد على طول الطريق يختارك، ولا تختاره فكم من مرة أمسكت بيدك نفسك التي كانت تنزلق إلى بئر الحزن ورحت تسحبها دون أن تتمكن من رفعها؟! هذا لأن الفقراء يتحدثون عن غدهم رغم أنهم يعلمون أنه لن يأتي، ذلك لأن أشد ما يتقنه العاجزون هو التمني، ترى هل يبكي الأموات شوقاً في عالمهم، أم تراهم يصرخون لوعة، وهم يعيدون ترميم طينهم المفتت كل عزلة دون جدوى؟ يوجعني هذا السفر الذي لا تنفك تلاحقني تضاريسه في تجاريح العزلة، وماذا أفعل، عندما يصبح في وطني الحاكم حكاماً؟! فمرافقه حاكم، وسائقه حاكم، وبوابه حاكم، وخادمة منزله حاكم، وجاره الخضرجي حاكم، واللحام والبستاني وعامل البلدية والخفير الذي في محرس بابه حاكم، والشرطي في الشارع حاكم، وجاري كاتب التقارير حاكم، وإمام المسجد في الحي حاكم، وخادم المقبرة حاكم، كلهم حكام بوصفة الوطنية..

يتضخم الحاكم، ويتوالد، ويتكاثر حكامًا، فتغدو محاصرًا بنظرات السلطة ومقاعدها وشكوكها ومخاوفها وحذرها، ونظريات المؤامرة

والتحركات الاستباقية والوقائية، ويصبح هؤلاء الحكام جميعهم أعلم بالسر وأخفى، ويغدو مثلي وحده مصدر خطر وتهديد للوطن، على الرغم من أن عنقي تحت الطلقة والسكين، ويصير العمر أعقد من الصمت وأشرس من جفلة الخوف وأخطر من هاجس الحذر، عندها يا خواجا، يغدو الوطن قنبلة موقوتة لا تنفجر، إلا في أمثالنا ، ليصبح الوطن على سلام، بعد أن أضناه المواطن.

عقد لامبير حاجبيه دهشة، واستدار وعاد إلى الجهة التي أتى منها، وهو يدور برأسه حيرة، ثم خرج من الساحة الصغيرة، ودخل أزقة سوق الملح، ليلتقي ماجداً الذي تركه عند التاجر النزاري، حيث لا زال يتابع معه مسألة البحث عن سوار جده المفقود، وكان يمشي وهو يطالع في مخطوط الرقاش الذي بدأ يتناول مفاصل حساسة من مفاصل الحياة في تاريخ اليمن والأمة:

" لا ترنُ إلى القمة، فهناك ستفتقد كفًا دافئة، كانت تربت على كتفك كلما ضعفت، وتجفف دمعك كلما بكيت، هناك ستكون مُطَالبًا بألا تكون بشرًا "

وراح يستشعر ما في روح هذا الغريب من تمرد وشاعرية متفلتة من واقع، فرض عليه الشكل والسلوك دون أن يدجن مخيلته وروحه المنطلقة في كون الحرية الفسيح، فشعر كما لو أنه يقرأ لوركا، أو كأن لوركا قد تقمص روح هذا الرقاش المنسي بين أسماله وخردته التافهة، وأطبق الكتاب، وراح يحث الخطى كي لا يتأخر على ماجد، ليصلا البيت بسرعة تخفف عنه حدة شوقه

لقراءة ما بين يديه دفعة واحدة، وهو يرشق زوايا مخيلته بمشاريع، يعدها لهذا المخطط الذي لا شك أنه سيترك في عقول وأرواح قارئيه الكثير من التساؤلات، ويثير العديد من ردود الأفعال، ولكن ستبقى المشكلة في اسم المؤلف الذي سيضعه على غلاف الكتاب؟!

دخل لا مبير وماجد المنزل، وهما يتحدثان عن الجديد في مسألة السوار، فقد أخبر التاجر النزاري ماجداً أنه يملك معلومات عن أن السوار قد تم تهريبه إلى أحد تجار سكان رؤوس الجبال الذين يسمون الشحوح، وهناك تتم عملية ترتيب بيعه إلى تاجر أجنبي، سيتم اللقاء به في فندق الحواس الست المطل على خليج عمان، ذلك الخليج الذي يمكن لنزلائه الوصول إليه عن طريق البحر أو عن طريق طوافة تقلهم من المطارات المجاورة في كل من دبا الحصن أو خصب وبعض الإمارات العربية المجاورة، وكان ماجد يشعر ببعض اليأس، فإن وصل السوار إلى أيد الأثرياء، فهيهات أن تحصل قبيلته عليه بعد ذلك، وليهدىء لامبير من حالته النفسية، أخذ يحدثه عن كتاب الرقاش وما احتوى من معلومات ليست بالسهلة، مستغرباً كيف لمثل هذا المشرد، أن يصل لمثل هذه المعلومات والخصوصيات التي يعجز عن الحصول عليها عدد من الشخصيات ذات النفوذ المالي أو السلطوي في الدول، وراح يسرد عليه فصلاً قرأه عن السيدة سالمة بنت سعيد بنت سلطان زنجبار، تلك الأميرة التي ولدت سنة ١٨٤٢ من أم شركسية، وبعد أن مات

أبوها السلطان سنة ١٨٥٦، تولى الحكم أخوها غير الشقيق ماجد بن سعيد بن سلطان، و تفرغت بنفسها لإدارة أملاكها التي أوصى لها بها أبوها، وقد كانت أملاكاً ضخمة، فرتب لها أخوها ماجد تهمة التآمر على حكمه مع أخيها برغش بن سعيد، وأنزلها في الاقامة الجبرية في قصرها، حتى أتى تاجر ذو رتبة في الجيش الألماني اسمه رودولف هنريت، وأقام سنة ١٨٦٦ في بيت يطل عليه قصرها، وراح يقيم فيه الحفلات الليلة، ولمحها تراقبه من نافذة قصرها، فتعرف إليها، ونشأت بينهما علاقة، أدت إلى تهريبها من قصرها، ونقلها إلى عدن، بعد أن حدث لها حمل غير شرعي من رودلف، الذي لحق بها إلى عدن، ليقوم بتعميدها هناك، بعد أن اعتنقت الديانة المسيحية، ليصبح اسمها إميليا، ثم غادرت معه بحرًا، وقد خسرت في رحلتها مولودها الأول هنريك؛ الذي توفي في الطريق إلى ألمانيا، حيث أنجبت من زوجها فتاتين هما انطوانيت وروزلي، وابنها الثاني الذي اسمته رودولف سعيد، وقد عُرفَ طوال حياته بسعيد.

بعد عشر سنوات تعرض زوجها رودلف إلى حادث قطار أودى بحياته، فطلبت من الحكومة الألمانية، أن تدعمها في محاولة استعادة أملاكها المسلوبة من قبل أخيها برغش بن سعيد الذي خلف ماجدًا، فأقلها أسطول قيصر ألمانيا إلى زنجبار معززاً بمستشار عسكري من الصف الأول، أُمر بمرافقتها، لتكتشف بعد ذلك أن ألمانيا القيصرية، قد عقدت اتفاقاً مع أخيها،

بعد أن هددته بخلعه عن الحكم، وتسليم البلاد إلى أخته السيدة سالمة بنت سعيد، إلا إذا وافق على منح الدولة الألمانية نفوذ السيطرة على الساحل الشرقي لأفريقيا بشكل كامل، فرضخ أخوها، وعادت هي دون أن تحصل على أي من إرثها، ثم راحت تتنقل في حياتها مع ابنتيها بين يافا والقدس ثم بيروت، حيث استقرت فيها لسنوات، لترجع بعدها إلى ألمانيا، حيث ماتت في يينا ثاني أكبر مدن تورينغن سنة ١٩٢٤ بالتهاب رئوي مزدوج، لتتبت من حياتها عشرات الروايات والأفلام باللغة الألمانية وغيرها، ليقرأ العالم عنها كثيراً مما نسجه الخيال، وكثيراً مما ثبت نقله، شكلت منها شخصية عالمية في رواية للكاتبة الألمانية نيكولاسي فوسلر التي صدرت عام ٢٠١٠، بعنوان نجوم في زنجبار.

إلا أن الملفت في ما أراده الرقاش من تتبع مسار حياة هذه السيدة، قد تجلى في تركه ملاحظات وتساؤلات عن كيفية وسر تعارفها إلى زوجها هنريت، وعن سر انتقالها إلى يافا والقدس مع بناتها قبيل البدء بمسألة جعل فلسطين وطناً بديلا لليهود، فقد أصبح ولدها سعيد من كبار ضباط ألمانيا القيصرية، وتولى عدة مناصب منها مدير البنك الألماني بين ١٩٠٦ و ١٩١٠، ثم تولى رئاسة جمعية ألمانيا الثقافية في مصر، ليتبين أنه كان يحمل ملف توطين اليهود في فلسطين، ويروج لفكرة هرتزل مؤسس الصهيونية العالمية.

توجه لامبير في كلامه إلى ماجد :

- الأمر الملفت في كلام الرقاش، هو أنه يريد أن يسلط الضوء على أن العمل على تفريغ هذا الشرق من هويته قد بدأ منذ زمن ليس بقريب، وأن المسألة أخطر من جغرافيا وديانات متصارعة.

وهنا سأله ماجد :

- هل تعتقد أن الرقاش سمع بهذه القصص من أفواه، تناقلتها عبر الزمن مثلما تناقلت أفواه أمتي أحاديث نبوية لم نعد نجرؤ على البت في صحتها؟ أم تراه يمتلك مراجع يخفيها عن الأعين، ويعيد من خلالها الصياغات التي يراها، تخدم ما يريده ويسعى إليه؟
- لا أعتقد أنه مجرد شخص يعتمد على مراجع شفوية، فالتواريخ والسنوات التي يذكرها بالتحديد، تبين أنه يعتمد في ذلك على مراجع موثوقة، وقد وثق لذلك بدقة، ولا شك أنها مخطوطات سرية حصل عليها بشكل أو بآخر.
- وهل تظن أنه يجيد بعض اللغات غير العربية؟!
- أحسنت يا ماجد! هذا هو السؤال الذي علينا أن نبحث عن إجابة له.

ثم طلب منه أن يجمع ما يختار من كتب ومراجع حواها بين كتبه، وتعمد أن تكون بين العربية والفرنسية والانكليزية، وكلفه أن يحملها إلى الرقاش غدًا صباحًا، وأن يراقب رد فعله؛ وهو يسلمه الكتب، فإن أعاد الكتب التي كتبت

بغير العربية ظهر الامر بسيطًا، وإلا بات علينا أن نبحث بعمق عن خفايا هذه الشخصية.

في صبيحة اليوم الثاني جلس ماجد القرفصاء أمام الرقاش الذي تربع بجانب بسطته، ومد إليه بحزمة الكتب التي يحملها وقال له :

- لقد أرسل لك الخواجا لامبير هذه الكتب !

فتناولها الرقاش، وراح يتفحصها كتاباً كتاباً، بما فيها الكتب التي باللغة الانكليزية والفرنسية، ثم أعاد لماجد كتابا باللغة العربية، وهو يقول :

- أعتقد أن السيد لامبير قد وضع هذا الكتاب مع المجموعة عن قصد، ليعرف أكثر عني، فقل له أني لست بحاجة إلى مرجع عن أرباب الشر في القصص الشعبية في هذا المشرق لأني أعيش بينهم وأعرفهم أحياء وأمواتًا، وكيف يتصرفون، ويرعبون الناس، ويخيفونهم، وكيف يسرقون قوتهم وأوقاتهم وحياتهم اليومية بترهاتهم السياسية! كذلك أخبره بأني أجيد الانكليزية والفرنسية والألمانية أيضاً.

عاد ماجد إلى الرقاش الذي كان ينتظره داخل واحد من حوانيت سوق الملح، ويراقبه من بعيد، وأخبره بما قاله الرقاش بالحرف، وكيف بدا واثقاً من نفسه، وكيف كان يتحدث بهدوء وصبر! فهز لامبير رأسه، ومشى وهو يردد: أنه

لا بد له أن يجلس إلى هذا المشرد طويلاً، ليفهم شخصيته بعمق أكثر، وليطلع على كل تفاصيل وخفايا هذا المثقف المنسي في أزقة صنعاء؛ التي باتت توحي بالقلق.

****

بعض النفوس كالمعابد، تدخلها، فتشعر بالسلام والأمل والمغفرة.

للحزن الموزع في صور الوجوه المعلقة إلى أعمدة الشوارع وجدرانها، شهداء عادوا من موتهم بملامح حزينة، عاجزين عن الصراخ في وجوه من حاصرهم داخل تلك الأطر والبراويز، اكتفوا بعتب يسيل من ألوان صورهم الباهتة على جدران المدينة وقواعد أعمدة اختنقت بها، للأنين المنبعث من عجلات حقائب المسافرين، يئن خلف رحيلهم المسكون أملاً بوعود عودة قد لا تتحقق، فما بين الرغيف والحب معركة، لطالما انتصر فيها الرغيف، لأحلام لا ترتقي لأقل من مستوى حاجات، تنسجها أكف سائقي سيارات التكسي ووسائل النقل، فتغلف المقود باغطية من لحم أكفها الذائب على انحناءات المنعطفات سهرًا وصبرًا وتحملاً، لمحرومين يزينون مآويهم ببقايا أثاث محطم عند الرصيف، لكل الذين يسكبون أعمارهم في ملاعق أطفالهم وجيوب سراويلهم الرثة، العمر الذي يتسلسب من بين أصابعكم يكفي السماوات عصورًا من العبادة والحب، فلا تشغلوا أنفسكم باعتقاداتٍ لا تليق بروائح أقدامك المتعبة

آخر النهار، فأخطر المغامرات أن تفتح ثقباً في رأسك، وتبدأ الكتابة.. لتطل على ما تعجز عن سرده، فتبكي وحيداً، وتتألم وحيداً، وتموت وحيداً، هناك تدرك قسوة أن تُقتَلَ، وأن تُحِب.

سأعترف لك أني أسير كل يوم ألف حلم عليّ ألتقيك، ولا أحمل معي إلا صورتك التي بدأت تفقد ألوانها وكم أخشى أن تختفي ملامح وجهك منها وأنا في الطريق إليك، فأمر بك ألف مرة، وأظل أفتش عنك، ترى هل يمكن ان أتعرف إليك من خلال أشياء أخرى عدا وجهك، ربما أعرفك من رائحة الصابون في كفيك، فالهجرة بداية الموت الطوعي احتراقًا بالحب.

فأنا وروحك وانت وجسدك، وكأننا في صراع.. فكل منا يبحث عن السعادة والحب، ويأبى أن يصغي لصوت الآخر، فها أنت تحمل جسدك وتنهض جارياً خلف مشتهاه، و رغم أنك تراه بعينيك يذوي ويهترىء كلما رويته أكثر، إلا أنك تواصل الجري به، وكأنك تفر به منه إليه، تمهل واصغ إليّ، وحاول ولو مرة واحدة أن تتوقف لسماعي، أو لسماع روحك!

ولن أنسى كلامك : " وأنت في منتهى الشعور بالعزلة والتعب، ابق إلى جانب ضعيف ما، لأن وقوفك هذا سيعزز من احترامك لذاتك ويشعرك بالقوة " ولقد سمعت كلامك اليوم على لسان صديقي اللبناني جو : " لا تنس صفح المسيح عن الذين علقوه على الصليب"

آه يا أمي آه لو يعلم الذي مات أنه لم يمت وحيداً!

كانت هذه كلمات علي التي كتبها وهو في طريقه مع فريق التطوع الذي حمل حقائبه وركب الطائرة وتوجه إلى سلطنة عمان؛ لقضاء مخيم تطوعي بهدف توفير الرعاية الصحية لأبناء المناطق الريفية والجبلية النائية، ذلك المخيم الذي بدأ يخطط له الدكتور بدر منذ قرابة سنة، وقد تطوع فيه عشرات الأطباء المتمرسين وطلاب كليات الطب والممرضين، وكان من ضمن فريقه علي و جو وإيزابيل، التي بدت متحمسة جدا لهذا المشروع.

تلقى علي أو نواف وهو في طريق مغادرته الجامعة إلى المطار رسالة بريدية ورقية، دسها داخل جيب مريوله الأبيض الذي أصر الدكتور بدر على ارتدائه خلال رحلتهم، وقرر ألا يطّلع على الرسالة إلا وهو على متن الطائرة، استقرت الطائرة في طيرانها، فتناول علي من جيبه الرسالة؛ وراح يفض غلافها، ويفتح طيات الورق فيها، ليستغرب الخط، فقد اعتاد أن يستلم الرسائل بخط ماجد، ولكن الخط هذه المرة بدا غريبا عليه، أخذ يقرأ الرسالة بتروٍ وتمهل، حتى وقعت عيناه على خبر وفاة والدته، فذهب مسرعاً إلى التاريخ الذي ذيلت به الرسالة ليكتشف أنها قد كتبت قبل أكثر الشهر، وقدّر أن تكون الوفاة قد حصلت قبل ذلك باسابيع.

أحس بأن الطائرة تضيق عليه، وأن الهواء داخلها يكاد لا يكفيه للتنفس، ففك حزامه، وقصد مقصورة المرحاض، دخل واحداً منها، ليدخل بكله مساحة من البكاء والنحيب، علا صوته، ونبه المضيفات في الركن القريب

للمرحاض، الأمر الذي جعل إحداهن في الخارج تسمع بكاؤه الحاد، فراحت تطرق عليه الباب، وتتحدث إليه، وتطلب منه أن يفتح؛ لتساعده، وهو في حالة من فقد السيطرة والتيه والضياع، تجمع بعض المضيفين عند باب المقصورة، ينادونه ويطرقون الباب، حتى أطمأنوا إلى اختفاء صوت البكاء، فقد حل الصمت، ليعلو صوت صب الماء في المغسلة، فقد أخذ يغسل وجهه ويرتب نفسه، ثم فتح الباب ليجد الجميع ينظر إليه، ويسأله إن كان بخير، أو إن كان يحتاج إلى مساعدة، انسل من بينهم إلى مقعده، وكانت أيزابيل قد تنبهت إلى حاله المرتبك المتعب، فلحقت به، وسألته، فأبلغها والدمع يسيل من عينيه الخبر الذي تلقاه، فطلبت من الرجل الذي يجلس بجانبه أن يستبدل المقعد معها، عادت إلى المضيفة، وطلبت منها كوب ماء، وجلبت معها حبة مهدىء من جو، بعد أن أخبرته، وأوصته أن يعلم الدكتور بدر بذلك.

بدأت مخيلة علي تستفيق على أمس الأمومة، بعد أن تناول حبة الدواء، وراح يلاحق في مخيلته وذاكرته أوقات كان قد قضاها مع أمه، وعاد يراها؛ كيف كانت تحمله فوق كتفها، وتخرج باكراً إلى العمل في بعض المزارع، و كيف كانت تنقله خلال النهار من ظل شجرة إلى ظل أخرى، وتضع أمامه الفاكهة التي تلتقطها من أشجار التمر والبرقوق والتفاح الصحراوي، و تمضي إلى العمل لساعة أو ساعتين ثم تعود، لتجده نائما، فتوقظه لتسقيه الماء،

وتغسل وجه من التعرق، وتبرده من الحر إذ اشتدت ساعة الظهرية، وتعود لتحمله عند مغيب الشمس في طريق العودة إلى بيتهم ليكونا آخر من وصل إليه بعد غياب يوم كامل، تنزله وهي تخبر أباه وأخوته عن هدوئه وصبره عليها، وتغدق عليه بأدعية الرضى والرزق والتوفيق والنجاح، جزاء تحمله مشقات العمل معها في الحر، ثم تذكّرَ كيف كانت تصطحبه إلى مكب النفايات، بعد أن تحزمه إلى ظهرها، لتقضي ساعات منحنية، تجمع ما تعتقد أنه قد ينفع، أو يسد حاجة قبل أن تأتيهم تلك الشركة التي حولتهم إلى كلاب مسعورة، تحرضهم على فرز النفايات التي كانت تشتريها منهم بالكيلو، و بدأوا وضع الورق والكرتون بجهة والبلاستيك بجهة أخرى، بعدها يقومون بوضع بقايا الحديد والالمنيوم والخشب في مكان آخر، حتى إذا فرغوا من عملهم، جلس الأطفال وبعض النساء ينتظرون كل بجانب أشيائه لساعات، تصل حد منتصف الليل أحياناً إلى أن تأتي سيارة الشركة التي ينزل منها عمالها، يحمل قباناً، فيبدأ بوزن ما قاموا بفرزه، ليضعوه بعدها في سيارة الشركة، وقد تولى سائقها عملية دفع الأموال لأصحابها، ظالماً هذا بكيلو وذاك بنصف كليو؛ وغيرهما بكيلو وربع، وثلاثة أرباع مع آخر، وكيلوين هنا وربع هناك، ثم يرحل تاركاً أكثرهم يتشاجرون في تيه الحسابات التي لا يجيدونها، وقد حقق لنفسه أوزاناً أضعاف عمل اثنين أو ثلاثة منهم، مخلفاً أولئك المساكين، يعيدون حساباتهم بعد رحيله مرات ومرات، ليكتشفوا أنه قد سرق منهم الكثير من المال، دون أن يتجرأوا على محاسبته عندما يعود،

وكثيراً ما كانوا يكتفون بشكره على حضوره، ولو متأخراً، ليشتري منهم ما جمعوا، وحدها أمه، كانت تستلم المال، وتمضي، دون أن تحسب ما جمعت، وما باعت، وما قبضت، بل تكتفي بقولها لعلي :

- المهم أن نتمكن من تأمين مصاريفك أنت وأخوتك، وغدا عندما تصبح شاباً، ستنفق علي وتعوضني عن كل هذا الشقاء، أليس كذلك ؟!

وقد أمسك بطرف ثوبها، وقبض عليه بكل حبه، ليعدها في سريرته بأشياء وأشياء، ستجعلها تنهال عليه قبلًا وابتسامات. ثم تذكر كيف كبر، وصار شابا، وكيف أنه أخلف وعده مع أمه، فلم يجلب لها شيئا مما وعد، لا بل إنه قد حرمها من قربه واطمئنانها عليه، وعاودته نوبة بكاء حادة، فغاص برأسه تحت مريوله، وظل ينتحب، وقد استعاد طفولة الأمس كاملة، وراح يستحضر شعورها، وهي تلفظ أنفاسها، وتبحث عنه فلا تجده، وتنادي باسمه دون أن يجيب، وشعر برغبة جامحة للصراخ، وقد أدرك عميقاً فكرة غيابها النهائي، وفهم حجم آلامها، وهي تمسك برحمها الذي راحت تتحسسه محاولة البحث عنه هناك، لا شك أنها ماتت، والدمع يسيل على خدها شوقاً إليه في تلك الدولة التي لا تعرف اسمها، ولا مكانها، ولا جهتها من عمق هذه الصحراء التي لا يتضح فيها اتجاه أشد من اتجاه التيه والجوع والحرمان.

ثم غط في نوم عميق، توغل فيه لساعات بين توارد صور أمه في كل لحظة من لحظات حياته معها وبين ضجيج الطائرة التي دخلت مطبات هوائية، أيقظته على حلم قد ساوره أثناء تخبطها في الجو، إذ أنه رأى نفسه يدخل بيتاً لشخص يعرفه من بعيد، كان يمر من أمام منزله في طريقه إلى مدرسته الثانوية، وأخذ يتجاوز، وهو في داخل ذلك البيت الجثث المكفنة بالأبيض المنتشرة في المكان بالعشرات، فيحرك بعضها ليكتشف أن دمها قد غطى الكفن، وحاول أن يحصي عددها لكنه أفاق وهو ينادي صاحب البيت، ليحذره من دخول المنزل بعد أن امتلأ بالجثث.

ناولته إيزا كوب ماء، وأخذت تمسح العرق الذي يتصبب من جبينه بمنديلها الأبيض، وتهمس طالبة منه أن يهدأ، فيلتفت إليها، وقد بدا خائفاً جدًا من الحلم الذي رآه، فأخذ يستعيذ بالله، ثم استأذنها، ليتوضأ فيصلي، عله يرتاح مما يعانيه.

نزلت الطائرة في مطار الشارقة الدولي، وركبت المجموعة التي يبلغ عددها ثمانية وثلاثين متطوعاً الحافلة التي أقلتهم إلى دبا الحصن، تلك المدينة التي تغوص جذورها في باطن التاريخ، ليقيموا فيها عدة أيام، يتم خلالها توزيعهم في مجموعات، تتوجه كل مجموعة منهم إلى مركز محدد.

وصلت الحافلة بوابة العبور الأمنية إلى دبا، واتخذت موقفاً جانبياً على بعد أمتار من رجل الأمن المشرف على نقطة العبور، فأشار الأخير بيده

للسائق الذي تمنى على الركاب عدم النزول من الحافلة إلى حين السماح لهم بذلك، بعد دقائق؛ توجه رجلان من رجال الأمن العماني بزيهما العسكري صوب الحافلة، فتح السائق بابها، وصعدا إليها، ليبدأ كل منهم بالاطلاع على جوازات القادمين والتأكد من أختام الدخول وتواريخها، أحس علي بالتوتر والانزعاج عندما راح رجل الأمن يقلب في صفحات جواز سفره، وينظر في صورته، ويعيد النظر إلى وجهه، وكاد يشهق من شدة التوتر حين سأله :

- أنت نواف ؟
- نعم !

قالها علي، وقد شعر بالجفاف في فمه، وكادت ملامحه أن تفضحه، لولا أن عاجله الشرطي بمد الجواز إليه، متمنيا لهم طيب الإقامة، ثم نزل من الحافلة، مشيراً للسائق بالتقدم والعبور، ليدخل دبا الحصن، التابعة إداريا للسلطنة.

****

الريح لا تدفع سفنا مطوية الأشرعة

الفراغ مخلوق يمكننا ملؤه، ولكن يعجزنا تحديد ماهيته، فالفراغ أوسع من مساحات، وأكثر من مكونات، وأبعد من اتساعات، لا يمكن الإحساس بها مادياً إلا من خلال حدود وجدران، فما هو الفراغ إن لم يكن هناك ما يؤطر امتداده؟ وما هو الفراغ إن لم يكون عمقه سحيقاً، يبلغ فينا أوجاع لم نبلغها من قبل؟ فهل هو فشل؟ وهل الفشل إهانة؟

في بيئاتنا، يترك الفشلُ ندوبا كالجراح، مصدرها سهام الإهانات التي تصدر عن عيون الساخرين، وعلى الرغم من أن الأخطاء ليست جرعات سامة لقتل النشاط، إلا أنها تملك أبعادًا فتاكة مدمرة، فكلما تراكمت أخطاؤنا، كلما تنامت السموم في إرادتنا، وأوهنتها ضعفاً وتراخياً، لذلك كتب الرقاش اليوم على هامش صفحة من مخطوطه : " لا تحدق إلى شاشة فارغة، افتح ملفاً وابدأ الكتابة " .

فروايتي ليست ما تقرأونه من كلمات ثبّت الحبر رسومها فوق الورق، بل هي آلاف من الاخطاء التي قمت بمحوها، خوفًا من القراء، وخشية من نفسي،

وريبة من المجتمع، وحذراً من الله والأديان والساسة والحكام، فالذي وصلكم من صراخي هنا، لا يتعدى الواحد بالمئة من آهاتي المكتومة، ولقد أدركت وأنا أكتبها، أننا مهما قلنا ونحن في هذه الحياة، لا يبلغ عُشرَ ما نعتقد أننا بحاجة لقوله ونحن على أبواب الرحيل من هذا الكوكب، لذلك نصمت، وننكفىء حزناً وخيبة وانكساراً.

وللذين يحقدون على البشرية، فلينظروا إلى ما هم فيه من انجازات. جميعها جهود بشر سابقين، تكاتفت كلها لانجاز الوطن الغائب الحاضر في الحنين، فالكون الحقيقي هو تحت ذاك الجلد، حيث تنتشر أكوان لا تحصى، وعوالم أكبر من أن يدركها صاحب الجلد نفسه، وأنت حين تراني لا ترى مني إلا جزءًا محدوداً ضئيلا يليق بادراكك المنتج المستهلك، فكلما أنشأت باس وورد، أنشأت عالماً جديدًا، ينطوي على أسرار وحقائق ودهشة وجنون، لا يمكن لأحد أن يتوقعه، قد يتحول بعد قرون إلى موروث شعبي، يعتمد في مستقبله على عالم النت، لذلك علينا جميعاً أن نكف عن تلميع التافهين، وجعلهم نجوماً تؤثر في أطفالنا، الذين نعلمهم الخوف لا الحرية والقبح لا الجمال والطمع لا القناعة، والمساومات لا الثبات، والتنازل لا الصمود، ونعلمهم الكراهية لا الحب، والحسد لا الغبطة، والحزن لا الفرح، وبالرغم من أني لم أرتد خيالاً أوسع من حجمي ولا ظلاً أكبر من جسدي، إلا أني لا زلت أقيم عند أعتاب سلالم المحاولات التي أرتعش منها رهبة.

كان لامبير يصغي إلى ماجد وهو يقرأ على مسمعه بعضًا من مخطوط الرقاش، فيما هو منكب على الرسم بالألوان الزيتية فوق قماش، شده بيده إلى إطار خشبي، حدد بنفسه مقاساته، كان قد خططه بالرصاص، ليبدأ مرحلة التلوين والتجسيد. فأحس وهو يصغي، لما يسمعه من ماجد؛ وكأن الفضاء يتشذى من فوقه، والمسافات تتحول إلى ستائر شفافة يمكن رؤية كل شيء من خلالها دون تجاوزها، لذا راح يرسم بحدة ووجع وثورة وغضب، وثارت فيه مشاعر؛ لم يألفها من قبل.

توقف ماجد عن القراءة للحظات، إلا أن صوت لامبير المرتجف تناسباً مع ارتجافات يده، طالبه بمتابعة القراءة، وعدم التوقف.

كل معرّف محدود، فالتعريف يلغي التكهن والتخيل، ويحول المبهم إلى واضح، وأجمل المنشود هو المبهم، لأن نضالنا المستمر من أجل الحفاظ على ما نملك من ماديات الحياة هو مصدر آلامنا الاول، ولتتوقف محاكماتنا للناس على ما يرتكبون من أخطاء، فإن أجمل ما فينا ضعفنا، لذا غيّر مبادئك ولا تبال، وتجدد، ثم تراجع عن اعتقادات ما عدت تقبل بها، فانت عقل متطور، أخطىء؛ ولا تخش العواقب فالانسان حصيلة أخطاء، والمهم المهم أن تبقي على حبك لذاتك، وتعزز قيم الجمال في الحياة، وأن تحمي الإنسانية فيك من التشويه.

قذف لامبير بالريشة التي بيده صوب الجدار بكل عنف وحدة، والتفت إلى ماجد وهو يقول أعد ما قرأت، فأعاده ماجد، فنزل لامبير من وقوفه ليجلس القرفصاء، وهو يردد لا يعقل أن يكون هذا المشرد رجلاً عادياً، لا يمكن أن أحتمل مثل هذا اللغز العميق، عليّ أن أفهم هذا الرقاش، وإلا سأموت مهزوماً، وأنا الذي قطع الأعوام تلو الأعوام بحثاً عن نفسي بين الموسيقا والكتابة والقراءة والترحال، أبحث عن أجزائي المتشظية في كل تلك الفضاءات، وأحاول جمعها؛ دون أن أبلغ ما بلغه هذا المشرد المتسخ الجائع إلى كل ملذات الحياة المشبع بالحكمة والوعي وكل شاهق، فمن هو هذا الرقاش؟

الرقاش هو خليل أشرف التركمان، من أبوين فلسطينيين، يرجعان في أصليهما إلى عشائر عرب التركمان السبع التي سكنت النغنغية والمنسي وأبا زريق والقرى المجاورة لحيفا، غادر أشرف وعائلته فلسطين بحرًا في ستينيات القرن الماضي، بعد أن راح الاحتلال الصهيوني؛ ينكل بأصحاب الأرض والبلاد بشتى أنواع التنكيل، وبعد أن تملكه يأس من إيجاد حل قريب لأزمته، ترك قريته ليلاً، وقد وضع كل ما يمكن حمله من متاع على ظهر دابته، وإلى خلف المتاع ركبت ابنته الصغرى مريم البالغة من العمر أربع سنوات، تلحق به زوجته التي أمسكت بيد ابنتها حورية البالغة من العمر ست عشرة عاماً، تحمل خليل البالغ من العمر عدة أشهر على صدرها،

وفوق رأسها بقجة الملابس التي قد تحتاج ما فيها من بدلات خلال سفرهم إلى المجهول، وراح يسير في الشعاب وبين البساتين قاصدًا الساحل، آملًا بلوغ مرفأ حيفا؛ ليركب من هناك سفينة، يرجو أن تقله إلى غد آمن له ولعائلته التي خلى لأجل سلامتها وراءه كل غال ونفيس، وأخذت الدابة تقطع الوديان والجبال، وهم خلفها، فتسقط حيناً، فيضطر أشرف أن ينزل عنها كل الأحمال ليمكنها من النهوض، ثم يعيد رفع الحمل إلى ظهرها، ويواصل السير، حتى أنشق الفجر عن مصابيح تلألأت في عمق المياه، وهم على مسافة منها، وعند اليابسة لاحت أطراف مدينة حيفا التي ما نهضت من نومها بعد.

ركبت أسرة خليل إحد السفن دون أي يسأل أي فرد من الأسرة ربها عن طريقهم، وما الفرق ما دام كل ما ينشدونه هو الخلاص من هذا الجحيم، فكل البقاع أهون من هذه البقعة التي بدأت النيران تلتهمها، دون أن يعلم متى بمكن أن تنطفيء، تركت عائلة أبي خليل الدابة تقف عند الرصيف، تنتظر أشرف الذي صعد السفينة، ووقف على حافتها، يمسح بطرف كوفيته دمعه السائل على أمسه وأحبته الذين لم يودع أحدًا منهم، ويبكي على تلك الدابة التي خلاها في المجهول، دون أن يتمكن من تقرير مصيرها لضيق الوقت، فهي وإن كانت دابة، إلا أنها أحست أنها في حال لم تألفه من قبل، فأصدرت نهيقاً، أقل ما يقال عنه أنه حزين، وظلت واقفة، وقد انكسر

انتصاب أذنيها، لتبدو كجاهل نزل في أرض لا يعرف لغتها، ولا يملك لنفسه فيها مبيتا.

ظلت السفينة تمشي في البحار والأيام والليالي أسابيع دون أن يسأل خليل عن وجهتها، يرهقه في رحلته هذه نقص الطعام وقلة الحيلة، لذا راح يقنن الوجبات التي يطعمها لأطفاله؛ إلى ربع وجبة ولمرة واحدة في اليوم، ويبيت هو وأم خليل على الطوى لأكثر من ليلة، حتى بلغ الضعف من زوجته ما بلغ، وبدأت تظهر عليها ملامح الوهن والتعب، وهي الحامل في شهرها الخامس، إلى أن استفاق منتصف ليلة عليها، وقد بدأت تنزف دماً، وتسقط حملها، وهو لا يداويها بأكثر من الدعاء والصلاة وكمادات المياه الباردة مسح فيها العرق عن جبينها.

ظلت أم خليل على هذه الحال أياماً، تخسر فيها مناعتها وقدرتها على الصمود، حتى أفاقوا صباح يوم ليجدوها قد فارقت الحياة، ظل يجلس القرفصاء عند رأسها صامتاً ممسكاً برأسه بين كفيه، إلى أن أتى أحد البحارة، وأخبره أنهم عليهم أن يلقوا جثتها في المياه قبل أن تتعفن؛ وتخرج منها الروائح والجراثيم التي ستتسبب بأمراض لباقي الركاب.

وقفت حورية دامعة، يلتهمها الحزن عند حافة السفينة، تحمل أخاها خليل الذي لا يعلم ما يحصل، وإلى جانبها وقف أبوها الذي حمل ابنته مريم، وقد راحت تبكي، وتضرب بكفها رأس أبيها، وأخذ الجميع يراقبون مشهد سقوط

جثة أم خليل في مياه البحر، بعد أن ربطت إلى حجر، يتكفل بإغراقها عميقاً في جوف المياه.

أحس أشرف بريح تعول في صدره، وهو يرى اصبع ابنه خليل تشير إلى جثة أمه وهي تغور في المياه، ويصغي إلى بكاء ابنته مريم المفجوعة برحيل أمها، ثم أمسك بيد حورية وجرها إلى الزاوية التي ركن فيها أغراضه، وجلس هناك يحتضنهم جميعا وهو يردد: " اللهم أجرني في مصيبتي، وأبدلني خيرًا منها "

وصلت السفينة إلى ميناء عدن، وأفرغت فيها حمولتها والركاب، ساعد بعض البحارة والركاب أشرف في حمل أبنائه والمتاع إلى الرصيف، وتركوه هناك، يواجه مصيره في بلد ليس له فيه أحد، وهو الذي لا يملك في جيبه إلا قليلاً من المدخرات التي لن تكفيه لأكثر من أسابيع، ولكنه استبقى على الأمل في صدره، وراح يشجع أبنتيه على الانتباه إلى الأغراض مرددا : "الله كريم"، ثم مضى يبحث عن مكان يقيم فيه.

أقامت عائلة الرقاش في عدن عدة أيام عند رجل يمني دفعته الرأفة بحالهم إلى اقتسام بيته المكون من غرفيتن معهم، فأعطاهم غرفة، وأقام وعائلته المكونة من سبعة أطفال وزوجتين في غرفة، إلى أن قرر أشرف الرحيل إلى صنعاء والإقامة فيها هروباً من البحر والمدن الساحلية التي ستظل تحز ذاكرته بآلام الرحيل عن بلده، ومواجع فراق زوجته؛ ومشهد الدابة التي

ستظل واقفة في ذاكرته كلما صفعت الريح الموج ليصفع بصوته ذاكرة أشرف، فتنهار حنينا..

استقرت عائلة الرقاش في صنعاء، وتمكن الأب من إيجاد عمل كبستاني في أحد القصور، أعطاه صاحب المكان غرفة في فناء قصره، ليقيم فيها مع أبنائه، لتبدأ بعدها أمورهم بالاستقرار والانتظام، فألحق مريم وخليل في مدرسة حكومية، ورفضت حورية الزواج بتاتاً، حتى وافت أباها المنية، عندها قبلت بأن تحل زوجة ثالثة في حياة تاجر يمني بسيط، لتساعد أختها مريم وأخاها خليل على إتمام الدراسة، ثم تزوجت مريم، ولم تكن قد أتمت الخامسة عشر بعد من شاب يمني، كان يقوم بتدريسها، ليبق خليل وحيداً في غرفة القصر، فقد رفض صاحب القصر أن يسمح له بمغادرتها بعد موت أبيه وزواج أختيه، فقد تنبه الرجل صاحب القصر مبكراً إلى نباهة خليل وذكائه، فراح يرسله إلى مدارس تحفيظ القرآن والكتاتيب، ويجلب له الكتب من أصحابه ومن المكتبات، ويكلفه بقراءتها وتلخيصها له، حتى وافته المنية، فطلب ابنه الذي كان يكبر خليل ببضع سنوات منه أن يرحل عن القصر، حمل خليل ما تبقى له من ذكريات جلبها أبوه معه من النغنغية، وما تبقى من ملابس؛ لا زالت فيها رائحة أسرة الأمس التي ضاعت إلى الأبد، وغادر إلى غرفة تدبرها له زوج اخته مريم قريباً من داره، وبدأ رحلة الجري خلف طموحه، وهو الذي يتعطش؛ ليتم تعليمه، لكن رحيلهم القسري

عن فلسطين، أفقده كل أوراقه الثبوتية، التي ينبغي توفرها لذلك، وهو لا يملك لهذا المعضلة حلاً لا من قريب ولا من بعيد، فأطل على الثلاثين من عمره، دون أن يتمكن من تأسيس أسرة، ولا من إيجاد عمل ثابت يعتاش عليه، وقد أوجعه جداً شوك الصّدقات التي كان يتلقاها من هنا وهناك عن طريق نسيبيه، وأبناء أخوته، لذا اتخذ من زوايا الشوارع بيتاً له، ومن بيع النفايات سبيلاً للرزق، حتى بلغ عقده السادس من عمره أفناه فوق الأرصفة، وفي ظلال جدران بيوت، نهره منها أكثر من مرة أصحابها.

كان هذا ملخص البحث عن حياة الرقاش الذي حصل عليه لامبير مؤخراً عن طريق أحد الأشخاص الذين كلفهم بالتنقيب في ماضي هذا المشرد اللغز، أما الفتاة التي كانت تحمل له الطعام يومياً، فقد كانت ابنة ابنة أخته مريم، فبالرغم من القطيعة التي فرضها الرقاش على نفسه قسراً مع أختيه حرصاً على راحتيهما واللتين هما جدة هذه الفتاة وخالة أمها ظلت تتبع تنقلاته، وتحركاته في أحياء صنعاء، وترسل له الطعام كل يوم دون أن تخبره من هي، إلا أنها كانت لا تشك للحظة في أنه يعرف من هي دون أن يفرض عليها مر السؤال عن ذلك.

أغلق لامبير ملف الرقاش في رأسه بعد أن عرف عنه كل تفاصيل حياته الشخصية، وعاد يتفرغ لقراءة مخطوطه الذي فتحه، مواصلاً القراءة من

حيث انتهى، وقد وضع خطا تحت عبارة " إن الريح لا تدفع سفنا مطوية الأشرعة ".

****

ذو التاج

عندما نزل علي من الطائرة ، حمل معه صحيفة الديلي ميل البريطانية، والتي تأسست في نهايات القرن التاسع عشر في بريطانيا، وانشغل بعد أن انطلقت الحافلة داخل الأراضي العمانية بقراءة مقالة عن فاليري سبيدينوروف ذلك الشاب الروسي البالغ من العمر واحداً وثلاثين عامًا، والذي يعاني من مرض نادر جعله يمل من حياته في كرسي متحرك، ويقرر التبرع برأسه ليتم نقله إلى جسد يحتاجه، وتذكر أنه قد فكر ومليا في هذه العملية التي يستعد العالم لها، ولكن الخبر المقتضب لم يروِ شغفه في معرفة المزيد، لذا قلب الصفحة، ليقرأ خبرًا عن شاب عشريني اسمه بوريسكا كيبريانوفتش، يدعي أنه قد عاش حياة من قبل في المريخ، فشده المقال وراح يلتهم تفاصيله التي تقول أنه تمكن من النطق بعد ولادته بأشهر، وأنه كان يروي أحداثاً فضائية عن حضارات عرفها في المريخ، ثم قرأ ما روته أمه التي تعمل طبيبة، إذ

تؤكد أنه وبعد ولادته باسبوعين فقط أظهر عبقرية، حيث بدأ يتمكن من السيطرة على حركات رأسه، وأنه قد تمكن من القراءة والكتابة بعد أقل من عامين من ولادته، ويزعم بوريس أن المريخيين وصلوا كوكب الأرض بعد حرب نووية، وأنهم خالدون، ويروي عن العلاقات المتينة بين قومه والفراعنة، ويدعي بوريس أن البشر عندما يفتحون تمثال أبو الهول سيتمكنون من اكتشاف أسرار عظيمة، وأن مفتاح قفله خلف إحدى أذنيه.

أغلق علي الصحيفة، وطواها، وتذكر وكيل المدرسة الذي وقف عند الباب كأبي الهول، ينتظر وصوله، ليذكره بخلع حذائه المتوحل، فيحمله في كيس، ويعبر البهو حافي القدمين، يقصد المرحاض، يغسله ثم يلبسه، وسط سخرية المعلمين والطلاب من هذا الغريب القادم من كوكب الصفائح والأزقة التي غصت بأوساخ، حملتها الأمطار إلى أبواب أكواخهم، ثم راح يرى أمه وقد حملته فوق كتفها، تعبر فيه برك الوحول والأوساخ، جاعلة من حبها جسراً، يعبر فوقه أنهار الطين والنفايات الجارية في أزقتهم، من غير أن تجنبه ما تبقى من وحول الطريق، ثم انطلق يناقش مع نفسه فكرة النبوة التي ظلت تنتقل من صلب إلى صلب، حتى بلغت محمد، محاولاً الربط بينها وبين خبر بوريسكا وأسطورة اقتتال الآلهة فيما بينها، متسائلاً أن كان ما حصل لبوريسكا هو نتيجة صراع سلطة على كواكب المريخ، بين إله وإبليس،

توصلا إلى تسوية قضت بطرد بوريسكا المسكين إلى أرضنا، لتكون منفى المعذبين المنبوذين.

ثم لمح على خلفية الديلي ميل صورة لإيلان الطفل السوري الكردي الذي لا أحد يعرف إن كان قد هُجر لكرديته أم لسوريته أم لطفولته، وقد كبا قبالة موجة، وغط في نوم عميق عند شاطىء اللا وصول، ليظل صغيراً ما دامت الشمس شمساً، ثم أغمض عينيه، وخرج مع أولئك الذين أخرجوا من ديارهم عبر التاريخ إما لدينهم أو لعرقهم أو لعلومهم أو لوعيهم أو..، وأخذت تتوالى في ذاكرته مشاهد المشردين والمهجرين الذين ازدحمت شاشات التلفزة بصورهم في القنوات، عند حدود دولية كمريخ بوريسكا، يحاولون التسلل بحثاً عن الخلاص، مخلفين وراءهم آلهة وأباليس وأنصاف أحبة أو أقل، وجثثًا لا تحصى لآلاف من الذين أخلف الحظ وعده معهم.

وراح يتساءل في نفسه : "أيعقل أن تصبح سوريا وليبيا واليمن والعراق مراريخ أطفال غادروها، قبل أن يستطيعوا تعلم الكره، ليستفيقوا لاحقاً، على ذكريات، تجعلهم يقتنعون أنهم قد أتوا من كواكب أخرى دمرها صراع الآلهة فيما بينها ؟ "

وراح يراود نفسه عن تصديق خبر برويسكا، معللاً ذلك بمقولة كتبها على هامش الجريدة قرب مقالة بوريس : " إن كنا نصدق ومنذ ملايين السنين قصة قدوم آدم من وطن يُزعم أنه الجنة والذي لا زلنا إلى يومنا هذا نجهل

موقعه، فلمَ لا نصدق قصة الفتى المريخي، وهو في أعقد الأحوال يدعي قدومه من وطن نعرف موقعه، وقد نستطيع الوصول إليه يوماً! "

وعاد يفكر في معضلة التهجير معاناة عصرنا الإنسانية، ويربط بينها وبين التهجير الأول الذي لحق بآدم، ويفكر في سبب عجز آلهة عن تحمل أخطاء بشر خلقته لنفسها بفنسها، وتملك قدرة إعادته وإفنائه ساعة تشاء، إلا أنها تضيق به ذرعاً، فتطرده بقوة القهر والترهيب، وترميه بعيدًا خارج حدود نفوذها، دون أن توقف كراهيتها المهددة المتوعدة له مهما عدّا زمن لا يطاق.

توقفت الحافلة، وتعالى صوت سائقها عبر مكبر الصوت، يطلب من الركاب النزول لمشاهدة مقبرة أمير الجيوش.

نزل الركاب جميعهم، ليطلوا على مقبرة درست قبورها كاملة، وما عاد يظهر منها إلّا الأثر القليل، تلك المقبرة التي لا تختلف بتاتا عن أوطاننا، التي طوت في ترابها ملايين الجثث لأشخاص وأناس قاتلوا بعضهم بعضاً لأسباب، تضاربت المصالح من ورائها، فسجلوا بعد سقوطهم جميعاً في قوائم الشهداء، وأي شهادة تلك التي لم يُرَقْ دمها إلا لأجل حاكم أراد إسقاط حاكم آخر، أو لأجل حاكم شن حروبه خشية على نفسه من السقوط، وراح يسمع عليّ صوت الدليل يروي على مسامعهم تاريخ هذه المقبرة، التي علم منه أنها تضم أكثر من عشرة آلاف قتيل من الذين خلفتهم حرب الردة تلك التي دارت بين ذي التاج لقيط بن الحارث أحد زعماء الأزد في عُمان، بعد أن

اتهم بادعاء النبوة ، يوم رفض دفع الجزية للخليفة أبي بكر، بعد موت النبي، وليشاع في كتب التاريخ أن كثيراً من القبائل قد اتبعته، فأرسل أبو بكر جيشاً لقتاله، فتعاون معه ابنا الجلندي عبد وجيفر اللذان تحصنا بموقف أبي بكر للحفاظ على ملكهما، الذي هدده ذو التاج لقيط، ليروي السائق؛ أن سبب المعركة، يرجع إلى امرأة كان عليها فريضة شاة مسنة، فأعطت للعاملين عليها عتودًا عوضًا عن المسنة، فرفضوا أخذها؛ فتشاجرت معهم، وقام أحدهم بصفعها، فنادت : "يا آل مالك" فلبى نداءها ذو التاج لقيط بن الحارث بن مالك بن فهم الدوسي، وكاد ينتصر بجيشه على أعدائه لولا تعزيزات أرسلها أبو بكر لجيوش المسلمين، ليقتل في هذه المعركة أكثر من عشرة آلف وعلى رأسهم ذو التاج لقيط .

بقيت أزمة الردة تتفاقم بين أهل دبا والمسلمين إلى أن تدخل الخليفة عمر بن الخطاب، وأقنع أبا بكر أن سكان تلك المنطقة لم يرتدوا، إلا أنهم قد بخلوا في مالهم، وشحوا، فجرى عليهم لقب الشحوح، الذي لا زال إلى يومنا هذا؛ يحمله أولئك الذين يقطنون منطقة رؤوس الجبال المطلة على مضيق هرمز، فتمتد من جزيرة لارك شمالاً إلى جبال حبس جنوباً فدبا شرقاً، وهم إلى يومنا يعرفون بسكان رؤوس الجبال، وهم في معظمهم من قبيلة الشحوح التي يعود نسبها في الأصل إلى شنوءة بن الأزد تلك القبيلة التي خرجت

من سبأ بعد انهيار سد مأرب سنة السيل العرم قرابة القرن السادس قبل الميلاد؛ لتعبر وادي برهوت إلى عُمَان.

تلاشى صوت الدليل في مسامع علي، وراح يتخيل هجرة هذه القبيلة ورحلة الشقاء والتعب التي عاشها أطفالها ونساؤها وجميع أفرادها هرباً من الهلاك الذي لحق بهم، بعد صراعات دارت بين معاصيهم وآلهتهم، انتهت بطوفانٍ، التهم كل النعيم الذي كانوا فيه، لينتهي بهم الحال في بيوت يسكنونها لا زال يعرف الواحد منها ببيت القفل.

نأى عليّ بنفسه، ثم تناول دفتر مذكراته وراح يدون فيه : " لون العمامة، ونوع قماشها، وطريقة تشكيلها، ومصدر صناعتها، وقدم تاريخها، ليست أبدا من جوهر القداسة، لأن جوهر القداسة يكمن فيما هو تحتها من فكر وسلوك، فلو أن المرء لبس ثيابا لامست أجساد الأنبياء لن ترفعه في عين الإنسانية كما أفعاله ".

أعاد إغلاق دفتره، ثم أخذ يتمشى بعيدًا عن مجموعة الركاب التي تحلق البعض منها حول الدليل، وانتشر بعضها الآخر في المقبرة يلتقط الصور، ويتأمل بقايا ملامح القبور التي لا زالت شاهداً على أن الذي اقتتلنا من أجله وما زلنا ليس مقدساً أبدًا، ما دمنا جميعنا قد بتنا تحت التراب.

ثم اختلى بروح أمه، وأخذ يعيد إحياءها في مشاعره، فيجعلها تقف، وتسير في أزقة الحي، في أرجاء بيتهم الصفيحي، وتذكّر كيف أنه وفي

غفلة منه قد تهاوى طينها الذي تماسك ستيناً، ظلت تنفقها بالثواني والدقائق والساعات فالأيام والشهور والسنوات على شكل رزمٍ من التعب وحزمٍ من تحمل التوافه التي تعبئها في صندوق تكوينها، الذي ظل يتهاوى أثناء تمسكها بطين أبنائها، فتكبر المسافات بين الطينين، وتتسع المتاهات، وتنمو بحار من المجهول والأحزان، ويتراكم ركام الأيام وازدحامات الحياة، لتصبح جبالاً ثم تتبخر؛ لترجع دخاناً، يتفكك في مسافات، تقضي العمر في مراقبة جنائن الأماني التي زرعتها لصغارها، وظلت طوال عمرها، تغزل حرير الأحلام، لتنسج بساط العجز تحت أقدام زمن كان يعرش شارداً في نوافذ وبوابات البؤس الذي عاشوه.

وظلت تعبر في مخيلته أوقات وأسماء، تعيد إلى فمه طعم المرارة التي يحاول الفرار منه، من دون أن يحتمل محاولات اتقان فعل التجاهل والتغاضي عن رحلة العمر في جسد أبيه، تلك الرحلة المليئة بالصداع وتراجعات البصر وانكسارات السمع الحادة، حتى كأنه يكاد يتحول إلى كومة من الجفاف، الذي تسلل إلى الجلد والعظام والمشاعر، فتغريه في كل لحظة أكثرُ من فكرة للهزيمة والتراجع، ليكتشف أن فجوة؛ تنشأ بينه وبين نفسه، وتظل تزداد، وتناديه للغوص في أعماقها والتخلي عن ساقيه اللتين يعرف أنهما؛ لن تخدماه لحظة الحاجة إلى الهروب.

تملص علي من أوجاعه ، وخطا عائداً صوب المجموعة، وهو يحث ذاته على الوعي، كي يتمكن من رؤية وسماع ما يحصل من حوله، ثم توجه صوب المسجد، حيث دخل الموضىء، وقد خلع عنه ما يحول دون اتمام وضوه، وراح يغسل ما أمر بغسله؛ فأحس وهو يمسح بكفه فوق أجزاء منه، كما لوأنه يعبر نهراً من الصفاء، ليشعر مع الانتهاء من كل مرحلة، كأنه يدخل في سلام أبدي، يروي عطشه للانعتاق من كل ما يحيط به من ثرثرات لا تطاق.

أتم وضوءه، دخل المسجد، وقد نوى أن يصلي إلى أن تنهار قواه، ولتكن صلاته باقة بخور وحب إلى روح أمه، التي تستحق أن يعيد لها كل نفسٍ منحته، وكل حزمة طاقةٍ أعطته، وكل دفقة حبٍ ملأته، وكل غَرْفَةِ عينٍ جمعها من ابتسامتها له منذ أن أبصر وجهها، ثم كبّرَ، وأطلق روحه قبساً، يلاحق أشلاءها في هذا الكون المليء بأحبة، نثرتهم الحياة أشلاء على امتداد دروب الكون.

تعالى خارج المسجد صوت بوق الحافلة الذي راح يزعق منبهاً بقايا الركاب المتأخرين، دون أن يبلغ زعيقه علياً في خلوته العلوية؛ وقد أخذ يقطّر روحه دمعاً، حتى وقف جو في باب المسجد، ينبهه؛ ويخبره أن الحافلة تكاد تقلع.

****

بيت القفل

انطلقت الحافلة عبر خور صخري عميق يشق جبال مسندم إلى قسمين، تكثر التواءاته وانحناءاته، راحت تتوغل في أمعاء طبيعة صخرية متعرجة ناشفة، طبيعة بلغت من التجعد في ملامحها ما لن تبلغه وجوه معمري الأرض كلهم، طبيعة راحت على الرغم من كل القسوة والحدة في تفاصيلها؛ تبعث الدهشة والإنفعال في وجوه الركاب، الذين التزموا صمتاً، فرضته عليهم وبالقوة جدران صخرية شاهقة تمتد على جانبي طريق غير مسفلتة، خلفت وراء الحافة التي مشت تتهادى فيها –كما لو أنها فيل ضخم من فيل أبرهة الحبشي– غباراً ملأ الخور كثافة حجبت الرؤيا عن قادمين محتملين وراءها لمسافات وأوقات ليست قليلة.

صخور تشعر الناظرين إليها؛ كما لو أنهم قد نزلوا على كوكب آخر غير كوكب الأرض، تتراص إلى جانب بعضها البعض، تتداخل طياتها وثناياها كما لو أنها عجينة كونية أنجزتها قوة خرافية، نتأت هنا برأس مدببة كتلك الرماح التي تظهر في أفلام الخيال، تجوفت هناك في أكثر من مكان؛ عبأ في جوفه ظلاماً وصمتاً؛ لم تبلغهما أيدي بشر قط، وحوى في فراغات أعشاش طيور، لن يبلغوها مهما تقاطر الخيال، صخور تكثف الغيم فوق رؤوس، هشمها غضب ريح أزلية عبر السنين، فبدت كما لو أن يداً علوية، وضعت فوق جراحها وتمزقاتها هذا العهن المنفوش، صخور على الرغم من اسودادها وصلابتها وتزاحمها وتراصها، لم تتمكن من خنق أشجار الأراك التي شقتها صعوداً صوب النور والهواء، فراكمت العناكب مخاطها فوق أغصانها آلافاً من طبقات التهمت ملايين من الذباب والحشرات والفراش والغبار وكل ما عجزت الريح عن حمله، فسقط، وعلق فيها، ليذكّر هذا المشهد علياً بتلك الأشجار المترامية على مسافات متفاوتة من جبل النفايات المجاور لحيهم الصفيحي في بقعة تكاد تخنقهم بصحراويتها وجفافها وحرارتها وروائحها ونفايات الأثرياء التي لن تتوانى عن الفتك برئات الصغار والكبار دون رحمة، تلك الأشجار التي يمونها الوسخ بمشهده القبيح البائس، لما تعلق فيها من بقايا أكياس ورقية وبلاستيكية وبقايا ملابس وأوراق ومناديل مما لا يمكن إحصاؤه بسهولة، لتبدو للناظرين من بعيد كأنها رؤوس

مهرجين، ارتدت قبعات ملونة قذرة، لم تمر على الماء والصابون منذ قرابة الألفي عرض مسرحي.

دخل الركاب جواً من القداسة، لم يألفوه من قبل، تسير الحافلة بتأن، لتتجنب مشاكل لا يسهل حلها في ممر؛ ينقطع عن العالم بكل ما فيه من تاريخ وعمق وتوغل وغرابة، ما مكن سائق الحافلة من الشرح للركاب عن كيفية تشكل هذا الخور الصخري، ليخبرهم أنه قد كان نهرًا تجري في المياه العذبة قبل مئات السنين، وأن جنباته كانت تغص بكثافة الأشجار عند ضفتيه على طول مجراه، وأن هذه المنطقة كانت جنات عدن، كتلك التي يتحدث عنها القرآن، وأخذ يسهب في حديثه، وراح يخبر عن أنهار مخفية، تجري تحت الجبال في أماكن لا يعرفها إلا سكان المنطقة الأصليين، أولئك الذين يقصدون منافذها السرية عبر أنفاق يسلكونها بحثاً عن مياه عذبة للشرب، ثم يحملونها، قافلين إلى بيوت حجرية في الأعالي، بيوت يقيمون فيها منذ القرن الخامس قبل الميلاد.

ظلت الحافلة تصعد الجبال قرابة ثلاث ساعات، إلى أن توقفت في باحة، يغطيها الحصى، تحاذي الطريق. نزل الركاب منها، وراح كل منهم يحمل أمتعته فوق ظهره بناء على تعليمات الطبيب بدر؛ الذي أخبرهم بناء على ارشادات الدليل الذي يرافقهم، أنهم سيستمرون في الصعود وتسلق الجبال إلى أن يبلغوا قمة جبل كيوي التي ترتفع قرابة ١٨٧٠ متراً عن سطح البحر،

وأن المجموعة ستنقسم فوق كيوي إلى قسمين، قسم يقيم فيها، وآخر سيواصل الطريق إلى قمة جبل حارم، لتغطي الحملة أكبر ما يمكن من سكان رؤوس الجبال البالغ عددهم قرابة الثلاثين ألف نسمة.

الصعود إلى كيوي شاق جداً، راح المتسلقون يتسللون عبر ممرات ضيقة، يتجاوزون صخورًا حادة، لن تتورع عن تمزيق من سيسقط فوقها إرباً، فينأى الخور الذي عبروه عنهم كلما أوغلوا في الصعود، ليبدو كما لو أنه خط عريض أسود اللون؛ يشق المنطقة شِقاً غير مستقيم، وقد امتلأ بالظلام في كل امتداده. وصلت المجموعة قمة كيوي، بشق الأنفس، فوجدت في استقبالها نفراً من الأطفال والنساء والعجائز، إلى جانبهم بعض جنود من قواعد عسكرية مقامة على امتداد المنطقة، أتوا من مراكزهم التي لا يبلغونها إلا عبر طوافات، تقوم باستبدال المناوبات كل أسبوعين مرة.

تعالت عبارات الترحيب، تقدم المرحبون من القادمين، ينزلون عنهم أحمالهم التي جعلتهم يتصببون عرقا، فرحين بهؤلاء الوافدين إلى ديارهم، التي يندر أن تختلط بالأغراب، لأكثر من سبب جعلها معزولة عن العالم، ثم بدؤوا ينقلون الأحمال إلى مركز إقامتهم، معبرين عن فرحهم بهؤلاء الزوار الذين ستكون فترة إقامتهم معهم محطة؛ يؤرخون بها ما قبلها وما بعدها من أحداث.

انتشر السكان بين الزوار يصافحونهم، ويتأملون وجوههم وشعر رؤوسهم، يمرون عليهم بطاس مليء بالماء، وآخر مليء باللبن، حتى خف عنهم التعب، سمعوا آمر الجنود يبلّغ أن الجميع سيقضي هذه الليلة في كيوي داخل عدد من بيوت القفل، وغداً صباحاً سيرافق بعض الجنود المجموعة التي ستواصل صعودها إلى قمة حارم التي تحتاج مسير ساعات خمس لبلوغها.

توزعوا في مجموعات صغيرة لا يتجاوز عدد أفرادها ستة أشخاص، لحقت كل مجموعة بواحد من المرحبين، يصطحبها إلى حيث ستقضي الليل.

تكونت مجموعة علي من إيزابيل وعلي وأربعة أطباء آخرين نيوزيلاندي واستراليين وممرضة أخرى أندونيسية.

حملت المجموعة متاعها وتقاطرت بين الصخور والحجارة خلف الشيخ يوسف الذي راح يخطو أمامها بدشداشته البنية التي تتلاعب فيها الرياح، ارتدى فوقها معطفا زيتياً، ذاب لونه في خيوطه المتناسلة، يلف فوق رأسه عمته العمانية الخضراء، يمشي مرحباً بضيوفه، وصلت المجموعة جداراً حجرياً لا يتجاوز ارتفاعه عن الأرض أكثر من متر واحد، بدا أنه يحد امتداد سقف مغطى بالحجارة والتراب، يكسوها الدقيق من الحصى، ليبان كأنه سجادة طبيعية مدهشة الألوان، فيها على الرغم من بدائية الصنع جمال يثير فضول الناظرين إليها بأكثر من سؤال.

قادهم الشيخ صوب فتحة تبدو كطاقة عند أسفل السطح، تتقدمها عدة درجات صخرية، نزلوا الدرجة الأولى التي بانت أنها بارتفاعها تعلو الدرجات المألوفة في العمارة الحديثة، ثم نزلوا الدرجة الثانية فالثالثة، ليقفوا تحت سقف، يرتفع فوق رؤوسهم قرابة شبر، تحمله جسور خشبية غير مصقولة، تلاصقت إلى الحد الذي سمح به اعوجاجها، فوقها عيدان وأغصان من أشجار العتم التي تنتشر في جبال مسندم، تدلت من الجسور حزم نبات بري علِم عليّ فيما بعد من الشيخ أنها أغصان وجذور نبتة الضّجْعِ المعمرة شديدة المرارة، والتي يعتبرها سكان رؤوس الجبال غاية في الأهمية والكرم في حياتهم، ذلك لكثرة ما يستخدمونها في علاجات أمراض عديدة أبرزها أمراض الكبد والسكري .

أضاء الشيخ قنديلاً زيتياً عُلِّقَ إلى الجدار بجانب الباب، أيقظ الظلال في الزوايا، فوقفت حيث يمكنها التصدي للضوء، وبانت أرض المكان، وتفاوتت ألوان الحجارة في الجدران، وظهرت في زاوية عن يمين الباب أوعية ماء فخارية، شق الضوء لونها نصفين داكن من الداخل وساطع من الحارج، وفي ركن آخر من أركان البيت، انتشرت جلود الخراف فوق حصير من جريد النخيل، أعدت للجلوس. إلى يسارها باب داخلي يؤدي إلى غرفة ظلت معتمة، اكتشف عليّ بعد أن دخلها؛ أن سقفها أخفض من سقف الغرفة التي دخلوها عند الوصول، وقد جهزت بفرشات أرضية للنوم، لها تحت سقفِها

المنخفض كوة ملئت بأغصان الشوك، تسمح بدخول النور، وتمنع عبور الأفاعي والحشرات والحيوانات إليها. طاقات صغيرة طولية للتهوئة.

استدار الرجل يريد أن يتسلق الدرجات الصخرية الثلاث، وهو يقول :

- إن عطشتم الجحلة مليئة بالماء، والركاح خلف الباب.

ثم سلم مغادرًا تاركاً لعلي تخميناته حول كلمتين لم يسمعهما من قبل، فلحق به مسرعًا، واستمهله المسير حتى اقترب منه، ثم سأله عن معنى جحلة وركاح، فشرح له الرجل أن الجحلة هي جرة الماء، والركاح هو النعال، وسأله علي عن مصدر هاتين الكلمتين، فأخبره أن سكان الجبال هم من بقايا العرب البائدة، الذين لا زالوا إلى يومنا هذا يتكلمون لغة أزد، التي تكلمها أجدادهم قبل عام السيل العرم، ثم ذكر له أن اللون الأصفر هو في لغتهم الأسود، لذلك هم يعتقدون أن بقرة موسى التي ذكرت في القرآن على أنها صفراء، قد كانت سوداء، وفقاً للغة العرب البائدة، ثم انطلق وهو يوصي عليّا أن يغلق باب بيت القفل جيداً قبل النوم لئلا يؤذيهم البرد في منتصف الليل.

عاد علي إلى بيت القفل، دخل وأقفل الباب مثلما أوصاه الشيخ، وما هي إلا لحظات حتى ساد صمت، أخذت تخترقه من وقت لآخر شخرات، كانت تبعثها حناجر وأنوف وأسقف أفواه النائمين، وفي الخارج تصدر أصوات

بعض طيور البوم؛ التي بدت لوضوحها، كما لو أنها تسكن على مقربة من إقامتهم في هذا المكان .

أفاق الجميع على صوت آذان، راح يشق بتعاليه صدر الأثير صعودًا إلى السماء : " ألله أكبر" فراح الناس ينسلون من بيوتهم كالأجداث، في فجر نقيٍ كالفضة، يسمح للمتأمل أن يرى حواف المسافات البعيدة في هذا الأفق الفالت في الفضاء، أخذ بعض الأشخاص من عرب الحملة يشرح الكلمات الآذان لمن معهم من غير العرب، وإن كان البعض منهم قد سمعه من قبل، غير أنه لم يتعرف إلى كلماتها والرسالة التي يبعثها في كل وقت على مدار الزمن.

انفتحت الصدور على مساحات من السكينة والسلام، الأمر الذي جعل إيزا تقترب من علي وتطوقه بذراعيها، متأملة السماء وصفائها، وتجول النظر في كتل الظلام التي لا زالت تتربص خلف الصخور هنا وهناك، تحتجب فيها عن عيون الشمس .

أتم الشيخ الآذان، وخرج جميع من كان تحت الأرض في تلك البيوت من صغارٍ لم يؤمروا بالصلاة بعد، إلى كبار سقط عنهم الحرج، انتظموا في صفوف معدودة خلف شيخهم القصير، وراحوا يؤدون صلاة فجرٍ، قلما رآه أحد من سكان الحضارة الاسمنتية في غير هذه القمة، يفترشون تراباً ما داسته قدم غريبة من قبل؛ تعلق في جبهاتهم أقدس حبات ترابه وحصاه، فلا

يهيرونها عنها، وقد غابوا في خشوع، جعله المكان حبل إيمان يتصل بالسماء السابعة دون حواجز، فيما إيزا تراقب المشهد من مكانها مندهشة، وتلتقط بهاتفها صوراً، لا تظن أنها قد تفكر بمحوها يوماً، ثم تهمس لنفسها بعبارات التأثر فرحاً بمشهد لم تره من قبل.

بعد أن فرغوا من صلاتهم، مشت إيزا صوب النساء، وهي تنادي علياً، ليلتقيها هناك، تطلب منه أن يساعدها في الترجمة لهن، وليخبرهن عن رغبتها في التحدث إليهن.

تقدمت إيزا برفقة عليّ؛ الذي استأذن الشيخ للتحدث إلى النساء، فوافق نزولاً عند رغبة الفتاة التي ترافقه، وأمرهن بالإجابة على أسئلتها كاملة.

كانت إيزا تسألهن عن مكان السوق الذي يقصدنه، إذا أردن شراء الملابس، وكيف يتبرجن لرجالهن، وماذا يفعلن في أوقات فراغهن، الأمر الذي أحرج عليّا في ترجمته، إلا أن إحداهن، كانت تملك من الجرأة ما يكفي لجعلها تلح على عليّ في ترجمة كل كلمة دون شعور بأي إحراج، ففعل، وراح يتعالى صوت ضحك نساء رؤوس الجبل مرحاً، تشاركهن إيزا ضحكهم مجاملة على الرغم من أنها لا تعرف ما يدفعهن على ذلك، ثم أخبرها علي أن بلقيس تلك المرأة الجريئة، تدعوها لتناول فطور الصباح في بيتها، لتقدم لها بعد ذلك هدية من طقوسهن ترحيباً بها وتعبيراً عن فرح سكان رؤوس الجبال بهذه الزيارة النادرة، وأخبرتها عبر علي أن الهدية كناية عن زي امرأة

عمانية شعبي، وأن عليها أن تستعد للخضوع إلى جلسة بخور؛ كتلك التي تستعد بها إناثهن لفراش الزوجية قبل الجماع.

انطلقت المجموعة الأخرى من الفريق الطبي تقصد قمة حارِم، بعد أن سرح الرجال من سكان رؤوس الجبال بقطعان مواشيهم، التي لن يعودوا بها إلى قراهم حتى ما بعد غروب الشمس، وبدأ رجال الفريق الطبي من المجموعة التي ستقيم في قمة كيوي بناء عياداتهم المؤقتة، والمكونة من عدة خيم، مجهزة لمثل هذه الرحلات، وأمسكت بلقيس إيزا من يدها وجرتها إلى بيتها، وهي تتغزل برقة كف يدها التي وصفتها بأنها أشد نعومة من تحت إبطها، فرافقتها إيزا، واصطحبت معها ممرضة أندونيسية من أصول هندية، تكبرها بعشرين سنة.

دلفت النسوة إلى بيت القفل الذي تسكنه بلقيس، حيث استقبلنها عدة صبايا، كن قد لبسن زيهن العماني، أجلسن إيزا وصديقتها في صدر المكان، ورحن يصفقن ويغنين أغان شعبية، تمايلت إيزا مع إيقاعها دون أن تفهم أياً من كلماتها، ثم تقدمت إحداهن منها بمقعد، تعجبت إيزا من منظره الذي ذكرها بقاعدة المرحاض في بلدها، وهي لا تريد قضاء الحاجة، ثم وأن كانت تريد ذلك، لن تفعلها في وسط الجميع، فالمقعد عبارة عن صنوق فارغ، لُفّتْ أضلاع حافة الجلوس فيه بصوف، غلفه قماش، وضعته في وسط الغرفة.

تقدمت بلقيس من إيزا، جرتها من يدها، وراحت تمثل أمامها ما ينبغي عليها أن تفعله، وتشير بأن عليها الجلوس فوق المقعد. جلست إيزا وهي تبتسم وتظهر خجلاً وفرحا بريئين، لكنها اكتشفت أنها لم تفهم معنى إشارات بلقيس، فأحست بالحيرة والإحراج عندما أخذت بلقيس ترفع فستانها عن ساقيها، وتطلب منها نزع لباسها الداخلي، دون أن تستوعب ما يحصل، الأمر الذي جعل ببلقيس تخلع عنها سروالها الداخلي، وقد أبعدت إيزا عن المقعد، ثم رفعت فستانها وجلست، لتنهض بعدها طالبة من إيزا أن تقلد ما فعلت، فتشير الأخيرة بإصبعها رافضة طلبها، حتى رأت كل النسوة يفعلن ذلك بناء على طلب بلقيس، فنهضت وخلعت عنها سروالها، ورفعت فستانها، ثم جلست فوق المقعد.

أحضرت إحداهن أكواباً مليئة بالدهون والزيوت، وجلبت أخرى أوعية حوت مساحيق مختلفة، وراحت بلقيس تأخذ من كل منها مقادير محددة، تضعها في وعاء فارغ، فتخلطها جيداً، ثم أخذت تغرف من هذا الخليط بكفيها، وتنثر مسحوقه فوق صحن مليء بالجمار، ثم دسته تحت مقعد إيزا، وعادت تتخذ مجلسها بين النساء، تغني وتحمس بقية المجموعة اللاتي انشغلن في آداء الأغاني والرقصات الشعبية، تشاركهن إيزا من فوق مقعدها قدر استطاعتها شاكرة ما يفعلنه لأجلها، فيما دخان البخور يتعالي ويتسرب إلى جسدها عبر فرجها ومهبلها، فيعبق بين ساقيها، فتحرك تهدل فستانها

من وقت لأخر تخفيفاً لدخان يلسع بحرارته فخذيها وعانتها ومؤخرتها، فتحس كما لو أن انكماشاً يحصل في فتحة مهبلها، ثم لمحت النساء يتغامزن وهن يصفقن بقوة وحماس، فقد طغت على وجهها ملامح الانفعال والشعور بالرغبة الجنسية، إذ احمرت وجنتاها، وترطبت شفتاها، وراحت لا شعوريا، تلامس حلمة ثديها من وقت لآخر، وتدس يدها في فرجها من فوق الثياب، لتنمو في مخيلتها ملامح علاقة راحت تشتهيها مع علي بعد كل هذه الطقوس التي جعلها تتذكر بعض مشاهد قرأتها، تصف مثل هذه الطقوس في روايات السحرية الواقعية.

تنبهت إيزا أثناء جلوسها إلى باب خزانة جدارية في زاوية المكان، ألصقت فوقه صورٌ، تم قصها من مجلات وصحف، لا يعرف أي من السكان المحليين أصحابها ولا حقيقة مصدرها، صورٌ يدل تعليقها على الخشية من زوال تلك اللحظات المفعمة بالحيوية والحياة لأناس لا يمكن أن تزول ملامحهم بسهولة من ذاكرة البشرية، خاصة في زمن ما عاد فيه للجدران غير الضوئية من أهمية.

" ولأن العقل هنا في هذا الكوكب يعمل بمثابة محلل حاجات للجسد والنفس بحثاً عن طرق إشباعها، ليواجه الصراعات في هذه الحياة.

فإن قدر للإنسان أن يكون في جنة يؤمن بها، فهو في منأى من الشرور وبالتالي لن يتكبد مشاق الصراعات هناك، ليظل السؤال ما هو دور العقل

في تلك الجنان؟ وإن كان المصير إلى النار، فهل سيبادر إلى خلق فرص النجاة منها إلى عالم أرحم؟ " هذا ما توقفت عن قراءته إيزا باللغة الإنكليزية عن إحدى الصفحات فوق الجدار، وقد أحست أن حرارة الجمار تلسع ما بين فخذيها، فتململت تريد النهوض، وبلقيس تطالبها بحركة من يدها بمزيد من التحمل والجلوس.

ثم راحت تجول بناظريها في وجوه النسوة اللاتي يغنين، وتراقب ملامحهن، وتحاول قراءة الوشوم المرسومة في أسفل ذقون البعض منهن، وخطوط الحنة المرسومة على ظاهر أكف البعض الآخر، حتى تقدمت منها أخرى وبيدها قطعة قماش، ووعاء فيه عجين داكن اللون، أشارت بإصبعها للون الذي يغطى كفها، وأومأت بإشارة أخرى إلى الوعاء، فعرفت إيزا أنها حناء، ففغرت فاهها دهشة، ثم مدت ذراعاها، مشيرة لها أن تبدأ بالرسم من أعلى كتفها نزولاً باتجاه كامل يدها.

تبسمت لها فتاة الحناء ابتسامتها المخفية خلف البرقع الذي تضع فوق وجهها، فلم يبن من ابتسامتها إلا تثني خطوط طرفي عينيها وفوق وجنتيها، وقد انطلقت تغني، والنساء يرددن من بعدها :

لا بو بعدك / والمكان اللي خنقني وانت غايب

لا بو بعدك / والجروح اللي تغردها الهبايب

ثم جلست إلى جانبها فوق طنفس من جلد غزال ظبي؛ ذلك الحيوان الجبلي الذي يُرى كثيراً في مناطق انتشار أشجار السنط، والتي ورد ذكرها في القرآن باسم الطلح، وراحت تنقش الرسوم فوق ذراع إيزا شديدة البياض، والنسوة من حولها يتغامزن على رقة هذه الساعد ونعومتها، ويتهامسن متمنين لو أن لهن مثل أنوثتها، وإيزا في عالم من خليط الأمزجة التي تداخلت بين خيالها وروحها وغرائزها، فوق وجهها تعابير فرح التي تشير إلى سعادتها برسوم الحناء، وفي عيونها قلق يلتقط ملامح من حولها، وفي جسدها رغبات تتنامى بفعل الأبخرة التي تجلس فوقها، فهل سيسمح لها واقع المنطقة والمخيم الاختلاء بعلي لتكتشف ردود أفعاله على ما تحضرت له؟ وقد أخذت تتذكر الطقوس التي سردها الكاتب الروماني قسطنطين جورجيو من خلال أحداث روايته شحاذو المعجزات، وتحديداً شخصية ماكس أومبيلينت ذلك الرجل الأسود الذي يقوم بقتل أربعة مبشرين أوروبيين كاثوليك في إفريقيا في تروبيك وتحديداً في قرية إيسيبوليا، بعد أن قدموا لهداية قبيلة من آكلي لحوم البشر. وراحت تبحث في وجوه النسوة عن شخصية السائق زينو الفلاشي، محاولة الربط بين الطقوس التي تعيشها الآن، وتلك التي تخيلتها وهي تقرأ رواية شحاذوا المعجزات، حتى انفجرت ضاحكة، عندما لمحت النسوة يرقصن رقصة غريبة، تقوم على هز مؤخراتهن من أسفل إلى أعلى وبشكل دائري.

****

الظل الذي فشل صاحبه ، وقد نجح.

اتكأ لامبير على حافة شرفة بيته الذي يسكنه، وقد أمسك بيده مخطوط الرقاش، يقرأ، ويلاحق ما كتبه من أفكار، متنقلاً بين تشتتها وتناقضها وتمردها كالتعامل العربي مع الجنسيات الغريبة والسماء التي من فوقه والفراغ كمخلوق ومكوناته، وإهانات الفشل التي لا تحصى، والأخطاء على أنها جرعات سامة لقتل النشاط، ثم مقولة "لا تحدق طويلا في الفراغ، وافتح ملفا وباشر الكتابة" ليقرأ بعدها تدويناً على هامش المخطوط : "كتابي هذا ليس ما تقرأونه من كلمات أمام أعينكم، بل هو آلاف من تلك الأخطاء التي قمت بمحوها، فالذين يحدقون إلى البشرية؛ يرون ما بان عليها من إنجازات تشير

إلى جهود سبقتنا، تكاتفت جميعها لانجاز الوطن الغائب الحاضر في الحنين.. فالكون هو وطن يمتد تحت جلودنا على شكل أكوان لا تحصى وعوالم أكبر من أن يدركها صاحب الجلد نفسه! لأنك حين تراني لا ترى إلا جزءًا محدودًا ضئيلاً مني، يليق بإدراكك المحدود، فنحن نعلّم أولادنا الخوف والهزائم، لا الحرية والجرأة، لذلك نراهم يرتدون خيالاً أوسع من أحجامهم، ليروا ظلالهم أكبر من أجسداهم ".

ثم عاد يحلل ويتفكر في كل ما كتبه الرقاش.

كان الرقاش يدرك في أعماق وعيه أنه خالد، لذا ظل يكتب ويكتب، لأن الكلمة ثقبه الوحيد الذي سينفذ منه إلى عقل هذا الكون، فلطالما نبت الفرح على أرصفته، التي جعلها حدائق للنازحين يسند ضعفه ضعفهم، لذلك كان يردد :

- " شكرا للكون الذي يمنحني دون أن أطلب منه، فأنا أخ لكل صاحب أسى!"

فما الذي منحه الكون لغريب كالرقاش؟ ولد بغير إرادته، وفي بلد بغير إرادته، وغادره كذلك، وحط في مدينة لا تربطه بها صلة وبغير إرادته، وها هو يشتغل في عمل أقل ما يقال فيه أنه لم يجد سبيلاً للعيش إلاه، وبغير إرادته، وهو لا يملك منه جواز سفر كالذي يملكه لامبير، ولا هوية كالتي تحرك جيوشاً للدفاع عن صاحبها فيما لو تهدد أمنه الشخصي؟ بل إنه قد يقتل

في أزقة هذا الحي، وتسجل الجريمة ضد مجهول، هذا إن لم تبق جثته أيامًا في تكورها بجانب كومة الخردة، لتأكلها الكلاب الشاردة والقطط المفترسة والجرذان والأفاعي القادمة من الخرابات، دون أن يلحظ أحد ذلك، ليتفسخ ما تبقى منها، وتنبعث منه روائحها الكريهة!

فالتجربة الفاشلة إمام النظريين، وأسوأ الديانات ديانة ترى الموت هو الحل الوحيد لمشاكل الحياة، وأجمل إنجازات عصر المعلوماتية والنت إسقاطه كافة الآيديولوجيات وعلى رأسها الدينية منها، لذا حذار أن تكون كغزال أيسوب يغتر بقوته، و يتفاخر بانعكاس منظره فوق صفحة المياه، ثم يفر لاهثاً عند سماع نباح الكلاب. لأن الامتيازات التي يمنحها رأس المال للأميين الأغبياء الجهلة هي أول ما علينا مواجهته في مسيرة التغيير. فما عاد يليق بالإنسان الجهل ولا الحرب ولا القتل ولا السجون. لأن هؤلاء الأغبياء يصبحون بقليل من التضليل على أتم استعداداتهم لمحاولة إلغاء الكون عجزًا منهم عن نكران الذات.

فالامتيازات الحقيقية التي ينبغي منحها للإنسان هي مزيد من التنمية والحرية والتعليم ومزيد من الأنسنة، لأن الأخلاق ليست غاية، بل وسيلة لبلوغ حقيقة الأنسان، وتحية لكل مخيلة أنتجت الأساطير القديمة، والتي كانت سابقة لأزمنتها بآلاف السنين، فقد أثبتت أنها أسباب كل الحقائق التي ننعم بها،

فها هو بساط الريح يقل الناس بالطائرات عبر الأرض، وها هو طائر الرخ يطير بسناديب هذا العصر عبر فيس بوك من جزيرة إلى أخرى ، وورشة إصلاح الخلل في تجربة الخلق البشرية انطلقت منذ بداية الكون، آلهة ورسلاً وأنبياء وأولياء وصالحين ومربين ودعاة و.. ولا زال سيل الشر يجرف كل ما يعترض طريقه.

كل هذا لأن الإنسان لا يريد أن يقتنع بأن التغيير مسؤوليته الشخصية بالأصل، فكثرة المحامين والقضاة لا تحقق العدالة، لأن العدالة يحققها التزام الفرد والمجتمع بالقيم، فالعدالة قيمة، ووحده الأخرس يعرف قيمة اللسان، لذا أشفقُ على أولئك الذين لا يستخدمون ألسنتهم لغير اليأس والفشل والإحباط، وإهانة الذات والأخرين.. ولأن لسانك أجمل ما فيك، أحسن استخدامه، وأبشع البخلاء ذاك الذي يمسك عن القول اللطيف، ويحرم نفسه من الاغداق بالكلام !

ولكم أشتهي أن أستيقظ صباحاً على أصوات الموسيقا تصدح من جبهات القتال.. وقد استبدل المقاتلون بنادقهم بآلات موسيقية؛ فالنبوة تجارب مؤلمة ومحن قاسية قبل أن تكون وحياً، فما من نبي عبر الى نبوته بغير الألم والتجارب القاسية، وأجمل الأحباب، ذاك الذي تطال ذراعه قبة السماء، فيلوّن بعض أجزائها بالأحلام، ويجعلك تتحسس ذراعيك كلما شعرت أنك تحلق عالياً، وآه كم أشفق على عشاق قتلوا أفراحهم بِعَدِّ الحسرات، لأن أقدس

الأماكن في الأرض هي تلك التي تحت أقدام الذين يقفون في وجه الظلم ولأجل الإنسانية.

أخاف أن أفقد جيوبي؛ التي لطالما أخفت كفيّ كلما أحسست بالإحباط، لأن أشد ما أغراني في خسارة سنين العمر، كان بريق أحلامي الذي ظل يفقد توهجه كلما دنوت منه، اتدري لم ؟! لأن بلوغها سلبني أجمل ما كان عندي، فكيف يُدرِك النور، من كان يرافق الخلدان في جحورها ؟!

ويا عزيزي ليس كل من مد لسانه أينشتاين؛ لأن البعض يمده لكثرة ما أجهده التعب، فأسوأ ما في التعليم أن يكون فترة عمرية وتنقضي، وما الفضيلة إلا مكانًا معتدلًا بين رذيلتين.

عندما يرحل أحبة دون وداع، تشعر وكأنك عالق في قدميك المسمرتين في التيه الذي يرفض أن يمنحك أية إشارة ترشدك إلى وجهتهم، ليكون أقصى ما يمكنك أن تفعله في ذلك الوقت هو الإجهاش بالبكاء، لتعلق في حنجرتك وإلى الأبد كلمة "وداعا "، فلم يعد من متسع لقولها، كثيرون من فعلوا بنا هذا، وتقسمك الغربة نصفين، نصف يسبقك إلى حيث تنوي، ونصف يحملك عبر الطريق، أما الذين تركتهم فهم وجع فيك لا ينقسمون!

قطب لامبير حاجبيه، وتوقف يفكر طويلا في مقولة الرقاش التي وضع تحتها خطّاً : "لا تشح بوجهك عني ، فأنا بحاجة إلى ملامح وجهك التي

توحي أن الدنيا بخير"، وتذكر مقولته السابقة : "نحن نحب موتانا لا جثثهم"، ثم ثقب غلاف الفراغ الذي يحيط به بزفيره الحاد، وأكمل القراءة :

"لقد أخرتنا الصلاة إذ علمتنا الوقوف مكتوفي الأيدي، مطأطئي الرؤوس نتمتم بصوت مكتوم ضعفًا ورجاءً وشكوى، علمتنا الإقامة في ضعفنا أن ننتظر قوة غيبية تحل مكاننا في كل شاغلة وتنوب عنا في كل جهد، فأوكلنا أمورنا – بسيطها ومكلفها – لغير إرادتنا، واستعضنا عنها لخلاصنا بتورية وخنوع وتمتمات وركوع وسجود، فاختصرنا بالظالمين وصفاً لأشخاص محددين معروفين بالاسم والشكل بأذيتهم للخلق، ووارينا ضعفنا تجاههم باحالة أمرهم لغيرنا من قوى غيبية، لا نعرف عنها شيئًا وعوضًا عن أن نطيل وقوفنا في وجه الخطأ والفساد والظلم؛ أطلنا صلاتنا وركوعنا وسجودنا انتظارًا لتبديل حال – أقل ما يقال فيه أنه مزر – من السماء، واستجرنا من العمل بسبحات عددية ورقمية، نُحَمِّلَ حبيباتها كل رجاءاتنا العاجزة، وأرشفنا حلولاً لكل أزماتنا في حزم من عبارات مقدسة وغير مقدسة، فما أن تلوح من حولنا أزمة؛ حتى ترى الواحد منا تناول الوصفة المناسبة من حزم الكلام والأقوال غير المجدية؛ والتي تجعلنا كالنعام رأسه في الرمال وأردافه تحت مرمى سياط القاصدين، لقد جعلنا من صلاتنا كهوفاً، نلجأ إليها في كل هزيمة وانكسار، وما جعلنا منها منصة انطلاق ونهوض وانتفاض، وها نحن

نحل كل أزماتنا بالكلام في الدعاء والصلاة والتبرير، ولم لا وقد جعلنا من إلهنا خادمنا وساعي بريدنا ومدبرة منزلنا التي لا تكل.

قلب لامبير الصفحة فوجد فيها ورقة مطوية، فتحها وراح يقرأ ما كتب عليها بقلم رصاص :

"عذرًا مني يا ذا الحاكم : ما الذي يزعجك في ظلي، وأنا لم ألبس يوماً يا سيدي جسدًا يُضَخّمُ أمامي الظل، فاحلامي بضع ملاءات وفراش يمنحني الدفء، فإن أزعجك خذه منه، سأفترش تراب الوطن، لكن لا تحجب عني الشمس، فأنا أستأنس مع ظلي، أبثه وجعي وهمومي، واستأمنه كل سري، كل هذا لاني أعرف أن هذا الظل ثقة، لا يفشي سراً أو عورة، يندس فيّ ولا أخجل، وإن وارانى سقفٌ وقتًا؛ عاش الظل خلف كياني..

هذا الشيء الذي مني أو أني أنا منه لا أدري، ما خيب طول العمر ظني، يصغي إلي ولا يزعجني، أغضب، ابكي، فلا يقطعني، أرفع عنقي يفعل مثلي، أحني جسدي، يدنو مني. فضلاً لا تحرمني منه، لم يبق لي إلا هو. يا ذا الحاكم لست ضعيفاً لكني كرهت الأمجاد، وعافت نفسي كل المتع، وهذي الشمس كل رجائي، إن تشرق يحيا لي ظل، فلا تحجبها بقطع عنقي، أنا ما عدت أهوى سواها"

توقف لامبير عن القراءة ، ومد بالملف إلى ماجد، الذي تناوله، وراح يقلب أوراقه، فوقعت عيناه على قصاصة ورق صغيرة، سحبها من داخل الملف، وفتحها وراح يقرأ فيها: "وما مجدك في نسب ، إن كنت خسيس الفعال !؟ "

سالت روح ماجد على ملامحه، وهو يعيد القصاصة كما كانت، فتنبه لامبير لذلك، وسأله مستغربا الذي يراه، إلا أن ماجدا مسح وجهه بكفه الأيسر، وسأل لامبير أن كان باستطاعته الاحتفاظ بهذه القصاصة؟ فاقترح الأخير عليه أن يكتبها على ورقة أخرى، ويحتفظ بها، لأن هذه القصاصة من حقوق صاحب المخطوط الرقاش، وظل يبين له الفرق بين أنظمة تحفظ لكلٍ حقه، وإن كان كلمة، وبين أنظمة تسرقُ الأوطان بأعمار مواطنيه!

فأخبره ماجد أن هذه القصاصة ذكرته بأعز أصدقائه من قبيلته، وراح يحدثه بقصة علي، بعد أن ذكرته مقولة الرقاش في هذه القصاصة بإحدى مقولاته، أذ يقول :

" آمن بنفسك قبل أن تؤمن بسواها ، فالأعمى لن يرشد التائهين !".

****

وجهك أول ما يموت خلف أقمشة الزمان

أتدري يا علي كم مرة فشلت في الحب لأتمكن من كتابة رواية واحدة؟ أتعرف ما معنى أن تقف على حافة جسدك؛ لتقفز منه؛ إلا أنه وفي في كل مرة، كان انزلاق قلبك يوقعك فيه من جديد؟! لأن أولئك الذين يخشون الحب، لئلا يداهمهم الفراق على حين غرة، يعضون على قلوبهم بأسنانهم، يملؤون

أكفهم بتفاصيل، تشغلهم عن دواخلهم، يثبتون ملامح وجوههم بمسامير اللا تأثر، يغنون في صمتهم خشية الاشتياق، يخفون ذكرياتهم تحت الوسائد طوال النهار، وفي الليل يلقون برووسهم على وسائد من دموع، وأجسادهم على أسرة من جمار وحنين، يتجولون في ممرات أحلامهم السرية بحذر خوفًا من أن يسمعوا أنفاسهم المحمومة اشتياقاً.. أولئك هم على قيد العيش إنما ليسوا على قيد الحياة، كملابس منسية في خزانة رجل أعمى، ورثها عن أبيه، وظل ينتظر تاجر العفش المستعمل ليتخلص منها! أولئك لا يستحقون قلوبهم، وعليهم أن يستبدلوها بمضخات خالية من الدماء الدافئة، فالحب أجمل ما يحملنا على الصراخ في وجه من نحب : أحبك أحبك أحبك يا أحمق.

كان هذا صوت ماجد الداخلي، وهو يجمع في صناديق ملفات لامبير الورقية وكتبه وأوراقه، ويعدها لتصبح جاهزة لوضعها في شاحنة ستنقلها إلى ميناء عدن، ومنه إلى ميناء مرسيليا، فقد قرر لامبير الرحيل، والعودة إلى فرنسا، بعد أن بدأت مدن اليمن السعيد تفقد سعادتها وتتهاوى واحدة تلو الأخرى في حفر الصراع المتبادل بين متهَمٍ بالمؤامرة وآخر بالطغيان، وراح الإنسان والحيوان والنبات والبناء والتاريخ والثقافة والاقتصاد وكل مكونات الحضارة يدفع الثمن، فاختلط الدم بالغبار والحجارة والزجاج والأوراق بالأحبار، وتساوت كل الأعمار على حد رصاص القتلة، فلا عجوز ينجو،

ولا طفل يُنقذ، وصارت الشوارع فارغة، واختفى الرقاش بعربته وحاجياته التي لا قيمة لها من تلك الزاوية، وأقفلت كافة حوانيت سوق المُلح، واختفى التاجر النزاري، وما عاد لبقاء ماجد من جدوى تذكر في عملية بحثه عن سوار جده، فكأن الفترة التي أمضاها في هذه المدينة وفي بيت لامبير مجرد حلم، استيقظ منه على واقع بشع، فمن يدري إن كان سيلتقي بلامبير من جديد، ومن يعرف فلربما وجد مخطوط الرقاش كتابًا في أحد معارض الكتب التي تنظم في المدينة المجاورة إلى حيهم الصفائحي في بلاده التي ليست بلاده، لأن الأوراق فقط هي التي تثبت ذلك، وهو لا يملكها، ومسألة عودته إلى جوهرة، صارت حتمية لئلا يزداد قلقها عليه، خاصة مع إزدياد حدة العنف والاشتباكات؛ التي صارت تزحف أمام زحفها من حي لآخر جيوش الخوف في مخيلات الناس كلما سمعوا الأخبار.

وحضر إلى مخيلة لامبير الذي كان يتفقد بعض أشيائه التي يمكنه تلفها، كل تُبّعٍ دانَ له اليمن من ذي المنار بن ذي لارائش ، وذي الأذعار بن ذي المنار، وأفريقس بن ذي المنار بن ذي رياش الذي ساق الأمازيغ إلى كنعان ثم إلى المغرب، حيث بنى مدينته في تونس قبل الميلاد بثلاثة عشر قرنًا، وحضر الملك الصعب ذو القرنين بن تبع الأكبر ذي مرائد بن الحارث بن الرائش والملك (هلك أمرو) والذي هو عمرو بن غمدان باني صنعاء قرابة عام ١٠٧٠ ق م، وراحت صنعاء قاعدة التابعية قبل الإسلام، التي

بنتها عاد، وسميت آزال من الأزل بلغة السبأئيين، يوم كانت أولها البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب، وقصر غمدان الذي كان معبداً للزهرة أو عشتار وقد حجت إليه الأمم؛ تنهار.

وعاد كرب إيل (ملك سبأ) سبأ عبد شمس بن وائل أول من سبأ في الحروب والغزوات، وعاد اليمن يمنًا، كما كان أيام تبع الذي بدأ بناء سد مأرب، وعاد السيل سيل الدم عرماً يتدفق إليه من سبعين واد، فيتلف الزرع والبيوت ويؤذي الخلق، ويهدم قصر الضحّاك؛ الذي نسب إلى كوكب الزهرة؛ السكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب.

وعلا الطوفان، وما من نوح، وما من سفينة تحمل من كل زوجين اثنين، وانطلقت قوافل الرحيل والهجرة هرباً من السد الذي هدمته سيول الدماء، وما عاد اليمن مقصداً لغير الطائرات الحربية، وصواريخ الأرض أرض بعيدة المدى، وأخلى الهدهد سماواته، ليحلّ فيها الرصاص، وقذائف الهاون، وأغتصبت بلقيس من الغرباء فيما حراسها يؤمّنون لهم الدخول عليها، ويقطعون لهم قسائم الاختلاء بها، وما عاد الرقاش غريبًا، فقد بات كل يمني رقاشًا في بلده، وحمل كافة الرقاقيش أوطانهم متاعًا على أكتافهم، وقذف بهم في منافي الأرض مخلين جنات عدن وما تحتها من أنهار، وما عاد في البلاد حدائق وأبّا، وغدا كلُ منفيٍ آدمَ يجر خلفه حواءه، ودخل اليمن تابو المجهول، ونَمَت على الأكف جراح البحث عن رغيف، وعلى الأوجه

أعشاب الحزن اليابس، وتسلقت الأرض السماء غراب، وطمرت فيه آلاف الحكايا الساحرة، وَأَدَتْ في سراديبه المظلمة كل قصص الحب الأسطوري، و دنا الموت من كل حياة.

انطلقت سفينة تقل لامبير وكتبه في البحر، وبقيت عيون لامبير على الشاطيء، وفي أزقة المدن وحواريها، وعلى حواف شرفات البيت الذي سكنه سنوات، ظلت أكفه تلوح من بعيد لشباب، رافقوه مودعين، يذرفون الدمع على فراقه، فتزيد المياه بينهم ابتعاداً، مياه المحيط الذي ابتلع السفينه، ومياه الدموع التي ابتلعت أمله باللقاء، ليعودوا إلى وطن؛ سبقهم إليه الموت والدمار والخراب وكل أسود لا ينجلي.

إن أشد ما يسيء إلى جغرافيا العاجزين هو التاريخ، فكلما حاولت الجغرافيا؛ أن تتألق وتزدهي للغد الحالم، شدها التاريخ إلى أزقة الكوابيس التي لا تنتهي، وأقعدها عن زهوها فوق حطام لا ينفكون عن رفعه، لينهار عليهم من جديد.

تقطعت السبل بماجد على الرغم من مبلغ المال الذي تركه له لامبير، ليغادر اليمن، وراح يتنقل سيرًا على الأقدام من مدينة لأخرى ومن قرية لقرية، فعبر الجبال والأودية، والطرقات الوعرة، يبيت في الكهوف وجحور الحيوانات المهجورة، متجنبًا في مسيره كل مواقع المسلحين خشية الاعتقال والتخوين والاتهام، يعبر الحدود تلو الحدود، حاملاً تحت جلده تجربة جده

طراد، يوم عاد من زنجبار، ودون تردد منه قصد أول موقع عسكري رآه عن بعد، وسلمهم نفسه، ليمضي في التوقيف والتحقيق ستة أشهر، دون أن يعرف عنه أهله أدنى خبر أو علم، حتى ظُنّ أنه قد مات في اليمن، إلى أن كان الوقت صباح يوم أربعاء.

أفاقت الجوهرة على طَرَقاتٍ حذرةٍ فوق باب بيتها، وهي تسمع همسًا يناديها باسمها، انسحبت من فراشها، وراحت تتسل منه حذرة، تسير على أقدام لا تلامس الأرض، حتى لامست الباب، وراحت تسترق النظر من شق ضيق فيه، محاولة البحث عن ملامح الطارق، حتى وقعت عينها في عين ماجد..

فتحت الباب، ووقفت صامتة تعجز عن الكلام، وهو يهمس :

- هذا أنا ماجد، لا تخافي، ممكن أدخل؟

انهارت من عينيها الدموع، وعجز لسانها عن الكلام، فأومأت له بيدها آذنة له بالدخول، وخطت تجلس على حافة الفراش، فيما جلس ماجد بجانب الباب، وقد أسند ظهره إلى الجدار، يتنفس بخوف، و يتأمل البيت ، باحثاً عن ملامح الأمس فيه، حتى علا بكاء طفل رضيع في المكان، ففغر فاه، وفتح عينيه إلى أقصى اتساع، وراح يبحث عن مصدر الصوت بناظريه، دون أن يسأل الجوهرة عن أي شيء، فتناولت الرضيع بين ذارعيها، ومدت بهما إلى ماجد، وهي تقول :

- هذا ولدك، وما سميته للحين، أنتظرك أنت تسميه !

يعتقد الكثيرون أن تسمية مولود جديد أمر في غاية السهولة واليسر، لذلك تراهم يكررون أسماء أبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وأقاربهم ومن حولهم في مواليد؛ تدخل هذا الكوكب؛ دون أن تتحمل أقل مسؤولية عن الأسماء التي تحملها، لا لشيء أكثر من التنبه إلى الصوت الذي يناديها، غير مهتمين بعبء تلك التسميات التي حملت معها عبر الزمن ولسنوات طويلة؛ ما لا يحصى من خيبات وهزائم وفشل ومرارة، فالاسم أبسط حقوق الإنسان في هذه التجربة؛ التي يكاد لا يختار فيها إلا النذر القليل مما يتاح له، ليتحمل ما يفرض عليه بكل صمت وكبت وخنوع.

وتذكر ماجد أغنية أسامينا لفيروز، وراح يردد مقاطع منها في صمته، ثم نظر إلى الرضيع بين كفيه، وراح يتأمل تفاصيل وجهه وجسده الرقيق، شعره المبعثر كاشفاً عن جلد رأسه المتيبس على شكل طبقات مترسبة، جبينه التي تثنى فوقها الجلد جراء نحولته، أنفه الصغير الذي لا تبعد فتحتاه عن حاجبيه الباهتين أكثر من سنتمتر واحد، عيناه التائهتان تبحثان عن مصدر الأصوات من حوله، خداه الشاحبتان، شفتاه الناعمتان كغبار حلوى راحة الحلقوم، ذقنه الدقيقة تميل إلى العرض، عنقه التي تختفي بين رأسه وكتفيه، كفاه الصغيرتان، تقبضان على الأصابع التي طالت أظافرها.

وفجأة.. وأثناء تمريره أصابعه على وجه هذا الطفل الضعيف، قبضت كف الصغير على سبابته؛ كما لو أنها تدرك أن هذه الإصبع هي الرافعة؛ التي ستنهض بها إلى القدرة على الحياة.

ارتعش جسد ماجد، واختلجت جوارحه كما لو أن هواءً باردًا اخترق رئتيه، فشد الصغير إلى صدره، وقرب فمه من أذنه الصغيرة، وهمس فيها :

– أنت رجاء ، رجائي ورجاء أمك، ورجاء عشيرتك كلها، ليكن اسمك رجاء..

ثم راح يردد بلهفة عميقة أنسته كل متاعب العودة فاشلاً :

– أحبك .. أحبك .. أحبك

وكاد أن يصرخ صرخة تشق الضوء عن حزنه، واحتضن طفله، وراح يتأمل وجهه، يتنفس أنفاسه الرقيقة، ويمرر إبهامه على ملامحه الصغيره، ومن عينيه يفر الحب والفرح والأمل والوجع دموعاً، ثم راح يهمس :

- لقد كنت يا صغيري بوصلة عودتي، جعلتني أهتدي إلى ماجد من جديد، وها أنا أكتشف حياتي من خلالك، فأعيد تجربتها، وصياغتها، وبناءها من جديد، أكتشف معك، الحب والفرح، وأكتشف الدرب نحو الأمل، سيكون اسمك رجاء، نعم رجاء، فلطالما انتظرنا أنا وأمك وبكل رجاء الأمل في حياتنا، ولطالما تأخر، حتى قدومك..

ثم نظر إلى جوهرة وأخبرها أنه قد أسماه رجاء، وشدها من كتفها إليه وكور جسده حولها وحول رجاء وراح يردد : أحبكما ، أحبكما ...

" ها أنا يا علي أبدأ ومن جديد رحلة الكذب على نفسي، وها هو رجاء، ولدي الصغير والأول – وقد نسيت أن أخبرك عنه في رسالتي السابقة – أول ضحايا كذبي على نفسي، أعود إليه كل يوم من العمل محملاً بما أستطيع من المفاجآت والألعاب والحلوى، أقدمها له، وألاعبه، وأعده بالكثير؛ بل يمكنك أن تقول بكل شيء، على الرغم من تحذيرات جوهرة لي بألا أكذب عليه، ولكني رغم كل يقيني بصحة تحذيراتها، يروق لي يوماً بعد يوم أن أكذب عليه، وكم أخشى يوما سيتفاجأ رجاء فيه بأن كل ما قلته له قد كان كذباً، وأن لا شيء مما وعدته به سيكون، وسيكتشف أنه وحيد وعارٍ في طريق مزدحمة بالمارة والعابرين الذين لن يولوا حاله أي اهتمام. ولكن أليس أجمل النوم نوم كذب؟

نسيت أن أخبرك أني تلقيت رسالة واتس أب من لامبير، يطمئن فيها عن حالي، ويسألني إن كنت بحاجة لأية مساعدة! وفي مجرى ما كتبه لي يسألني عنك، وعن جديدك، وأخبرني أنه أوكل إلى دار نشر مخطوط الرقاش، لتقوم بطباعته.

غريبون من عرفناهم من الغرب يا علي، يملكون الوقت للتواصل مع التافيهين أمثالي، فماذا يمكن لمثلي أن يقدم للامبير كي يحتفظ بنافذة

للتواصل معي، ما السبب الذي يدفعهم لمثل هذه الالتزامات؟ لست أدري، ربما لأنهم يمتلكون حرية التنقل، أو لأن دولهم توفر لهم كل ما ينبغي، لتتسع إنسانيتهم للشعور بأمثالنا، أو لأنهم لا يعيشون الهموم والهواجس التي نعيشها نحن كل يوم وكل ليلة..

يؤرقني وجداً يا علي سعيي غير الموفق وراء هويتنا، وأخشى ألا أعيش لاحملها بيدي وحقيبتي لليلة واحدة فقط، مجرد ليلة قبل أن أموت.

على العموم دعك من كل ما يؤرقني، وابق مركزاً على ما تقوم به، لأننا ننتظر عودتك لنا، وقد أنجزت ما نحلم به جميعاً، نحن سكان هذا الحي الذي تصدر الريح أثناء مرورها فيه وعليه أصواتا أكثر مما نحدثه لأجل هويتنا.

كانت هذه رسالة ماجد التي أعدها على مسودة ورقية، وسيمر في الغد إلى مقهى إنترنت، ليطلب من الموظف العامل فيه أن يقوم بإرسالها إلى علي عبر الإيميل الذي يخزنه في هاتفه، وسيرفق معها صورة لرجاء الذي يحمله في جوارحه أنى توجه.

يعيش ماجد حالة تشبه من يسير على قدميه وبإرادته باتجاه جرف؛ يشرف على هوة عميقة، ليلقي بجسده من فوقه إلى أعماق تلك الهوة، فهو يمشي في الحياة كما لو أنه يدنو من موته المحتوم، كلما راكم خطواته خطوة صوب

حافة الجرف، ويظل يقيس المسافة بينه وبين السقوط؛ بما تبقى من خطوات تفصل بينه وبين تلك الحافة التي لن يتجاوزها إلى الأمام.

كثير من القلق والاحباط واليأس خلف كثير من المجهول الذي ينتظره، خاصة بعد أن صار مهدداَ بالتزامه الأبوي تجاه ولده رجاء، هذا الصغير الذي لا يعرف معنى أنه من ال بدون..

" ال بدون " تلك التسمية التي تسكن ماجد وأمثاله بكل ما فيها من أصقاع وأقانيم وصحارى وسراب، تجعله يجهل أين يفر من مطارداتها له، وكيف يفعل ذلك.. فهو محاصر بها في صحوه كلما واجهه موقف من مواقف الحياة اليومية، وكلما طلبت منه هويته عند نقطة تفتيش أو في مكتب مراجعة، تلكأ في البحث عنها داخل جيوبه، وراح يفكر بالفرار جرياً في الوراء، ليدرك السائل عندها أنه لا شك من ال بدون. فهو محاصر بها في نومه كلما داهمته الأحلام بمرض رجاء وجوهرة، ليظل يجري في أحلامه بين مكاتب المشافي والإدارات، يتوسل ويرجو الموظفين مساعدته في تجاوز أمر الأوراق الثبوتية، لأنه من ال بدون، تلك التسمية التي يظنها من يراها فوق الورق تعني آل، نسبة إلى إيل الإله العتيق، لكنها مجرد ال تعريف لملايين من النكرة في أوطانهم، وما جدوى تعريف النكرة في وطن يتنكر للمعرفين فيه بكل وقاحة السلطات التي لا تبتسم إلا أمام كاميرات التصوير للصحف ونشرات الأخبار.

بات ماجد يفكر في الرحيل عن الحي، لا بل في مغادرة البلاد كلها، والالتحاق بقوافل المهجرين التي بدأت تخرج من سوريا، بعد أن راحت تشتعل تحت البراميل التي تسقطها طائرات النظام الحاكم وحلفائه على عمارات وشقق وبيوت وأزقة وأحياء، ليكون الإنسان أقل ما يقتل جراء سقوطها.. تلك البراميل التي راحت تحيل جهود السعي إلى الخلود التي بذلها الناس في تلك البقعة إلى غبار ودخان، يعرف المراقب مصدر تعاليه، لكنه لا يمكنه تحديد النهايات التي سيبلغها امتداده وسفره في فضاءات هذا الكوكب الذي يزدحم بأدعية العاجزين وابتهالات الباحثين عن انتصارات، وتكبيرات المساجد المتصارعة فيما بينها على تحديد مركز الله في الكون، وراح يناقش بصوت مرتفع مع الجوهرة مسألة حمل ما خف معهم والتسلل عبر واحدة من قوافل النازحين إلى واحد من المخيمات؛ التي تنتشر في الدول المجاورة بعيداً عن الموت الأسود.. فلعله من هناك يتمكن من الدخول إلى دولة أوربية بصفة لاجىء كمرحلة أولى، قد تمكنه من التقدم بطلب الحصول على إقامة، تجعل فرصة رجاء في الحصول على هوية شبه مؤكدة، لتعود وتحبط كلما ذكره الجوهرة باحتمالية الفشل وما سينتج عنها كالبقاء عالقين عند حدود اللاعودة إلى الحي الصفائحي واللا عبور إلى واحدة من تلك الدول التي تليق بالإنسان، ثم ترجوه البقاء في الحي، ليكون رجاء بين أهله، ويكون مصيره مصيرهم وغده غدهم؛ ما دام ماضي أهله هو ماض كل من في هذا الحي.

يا علي حين كنت تحدثني بعينيك كنت أرى الحياة بكل ألوانها، واليوم بعد أن باتت عيونك بعيدة، صرت في حيرة موجعة. فكيف يمكن للعيون أن تبتعد؟!

ياعلي لطالما سمعنا عن أحلام المبصرين، فهل سمعت يوماً بأحلام المكفوفين، أتراهم يحلمون بغير النور؟ وأهل النور باتوا يحلمون بعتم يجنبهم رؤية ما يرون؟

****

بكم تشتري كتفا يتسع لدمعك ؟!

الشاعر عصفور جميل، يقشش قصيدته حرفاً حرفاً، يطير بعيداً على حواف الخطر يفرك الخيال بأكف روحه حبالاً، يحيك منها الأراجيح والأماني، ويدليها في المدى. الشاعر ليس حداداً، يكوي الحديد بالنار بل إنه الحديد، والنار في القصيدة، تذيبه على أدراج المحبة والأمل بخوراً، يُعَبَّأ شوقاً في مكعبات ورقية، تصفّها الأصابع في رفوف العابرين.

القصيدة كالرحيق في أكمام زهرة يقصدها نحل الشعراء من أقاصي التضاريس، يغمسون في أجران الإبداع وجدانهم كالسهم، يحملون ذرات الرحيق كغبار النور، يرصفونه ذرة ذرة كمحترفي الصناعات اليدوية،

يصنعون منه المرايا. وحده القارىء صياد المواسم، يقطف الثمار، ويحصد الجنى، وعلى بيادر المتعة يكدس الأحمال، يفصل بمزاجيته محاصيل احتراق الروح مخلفاً وراءه تبن المواسم شعراء ينهكهم صرير النقد، تذروهم غاياتهم على دروب الغافلين عن السياسة.

كانت هذه الكلمات جزء من مقالة راحت تتبت أفكارها في عقل علي، وهو يجلس قبالة واحد من رجال قرية جبلية صغيرة على ارتفاع ٢١٠٠ م عن سطح البحر، وعلى بعد قرابة ١٢٠٠ متر صعوداً نحو الأعلى عن قرية غليل في ولاية سويقة، فوق قمة كيوي

رددها في ذاكرته عدة مرات خلال انتظاره في بيت العود، كبير قبيلة الشحوح في رؤوس الجبال، الذي كان يتربع في صدر مجلسه على جلد خاروف اسمّر صوفه بمرور الزمن، لف جسده بفروة رمادية، تهرأت أكمامها، وبانت " كضاضتها "، وتباعدت خيوطها عن بعضها البعض، ولف رأسه بشماغ مرقط بالأبيض والأسود، عقده من خلف رأسه عند أعلى عنقه، ثم صمت برهة من الزمن كان يتأمل فيها وجهاً لرجل دميم، خلا من العيون، فلا شيء مكانها في وجهه سوى حفرتين داكنتي اللون من جلد التحمت أطراف جفنيهما الأعلى والأسفل بطريقة تركت ندوباً بارزة في ذلك الالتحام، وراح يتساءل في نفسه عن سر هذا التشوه الذي يعيق تخمين انفعالات العود الداخلية، تحت تلك الحفرتين أنف تدلى كحبة كمثرى، نخرها الدود في نهاية صيف

حار، وظلت معلقة إلى غصنها في عود رقيق أخذ يجف يوماً بعد يوم، تحته شفتان غليظتان بنيتان، برزتا بشكل واضح من خلف شارب لم يمسسه مقص منذ زمن بعيد، يتصل بلحية طالت حتى استقر أكثر من نصفها فوق كرشه الذي طوقه بذراعين تشابكا عند كفين بسبحة ضخمة الحبات، تصدر صوتا كلما أسقط حبة مرت بين أصابعه؛ لتستقر فوق سابقتها، فكأنه في تجهمه وصمته، واحد من تلك الأوثان التي كان يتخذها العرب آلهة لهم قبل الإسلام، وأكثر ما يميزه من تفاصيل نحته، حجم الكتلة الذي تشكلت منه.

كان علي قد حضر إلى بيته للكشف على صحته ، والتزم الصمت ككل الذين يفقدون القدرة على الكلام، إذا ما وقفوا أمامه ، فهو رجل لا يتكلم بحضرته أحد إلا إذا أذن له، ولا يدخل أو يغادر أحد دون إذن منه، وأشد ما أثار دهشة علي قدرته الخارقة على معرفة من دخل قبل التحدث، ومعرفة من غادر ولو كان الحضور عدة أشخاص..

بدأ حديثه إلى علي بشكل وجداني عارم، و بعد أن سأله عن اسمه، قال :

- كيف لك أن تبكي ، وأنت بغير عيون؟! فالدمع ضوء يخترق جدران الأرواح الناظرة إليك !

ظل علي صامتاً، مندهشاً مذهولاً من عمق الفلسفة؛ التي تسيل عباراتها على لسان هذا الرجل؛ الذي ما صار عُوداً؛ لولا التجارب الوجدانية التي حفرت في ذاكرته كل هذا العمق المذهل. ثم أكمل :

- وربعي يشعلون لي كل مساء قنديلاً ينير المكان من حولي، ظناً منهم إن ذلك يخفف عني الظلمة، ولا يعلمون أنها قد باتت جزءًا من الروح! وأنت لا شك، تريد أن تعرف قبل أن تبدأ كشفك الطبي على جسدي قصة فقدي لعيني، أليس كذلك؟

هز علي رأسه لا شعورياً، ثم تنبه لفعلته، وهَمّ بالكلام، إلا أن حشرجة علقت في حلقه، أربكته، فبادره العود بقول:

– لا بأس عليك، لقد رأيتك تهز رأسك بالإيجاب!

فصمت علي، وقد داهمه الاستغراب، وكتم ما علق في حنجرته من أصوات وكلمات، وفغر فاه، ثم أغمض عينيه يستنجد بقوى الغيب، لتعينه على حل هذا اللغز..

إلا أن العُود عاجله بقول : إنه ليس لغزاً، لا تقلق في تحليل ما يدور من حولك، لقد دربت نفسي منذ أن فقدت عيني قبل أكثر من خمس وسبعين سنة على التعويض عنها بكل ما يخدمني في فهم ورؤية ردود الأفعال والحركات التي يقوم بها زائري، لأتمكن من الوقوف على شؤون قبيلتي، وهذا إرث فطري ورثته عن أجدادي الذين بقيت عظامهم تحت طمي سد مأرب وحوله التي صارت جبالاً مع الوقت. ذلك السد الذي سيظل ماؤه يضج فينا، إلى أن نعيد بناءه ولو بعد مليون عام، فكما لا قيمة لمجذاف بغير زورق وبحار، كذلك لا قيمة للشحوح بغير سدهم الذي تهدم منذ قرون.

نهض العود من مجلسه وقد أمسك بعصاه، يطلب من عليّ اللحاق به، بعد أن خطا أمامه باتجاه الدرجات التي تؤدي صعوداً إلى خارج بيت العود، وبعد أن غادرا المنزل، انتصب العود بقامته، ولف جسده بعباءته جيداً، وراح يخطو بثقة؛ كما لو أنه يبصر موطىء كل قدم يضعها، يتحدث إلى علي ويشرح له جغرافية المكان مؤشراً بيده تارة وبالعصا أخرى صوب اتجاهات راح يسميها، ويستذكر ذكرياته وذكريات أجداده فيها منذ مئات السنين، ويقول:

روت لي أمي أني حين كنت فتى، كانت تصحو ليلاً عليّ وقد تركت فراشي، لأسير باتجاه الجرف أثناء نومي، تاركاً أمي تتبعني وقد عضت على قلبها بأسنانها، خلال سيري على حافة الجرف الذي يمتد لكيلومترات، حتى تأكد لها مع مرور الوقت أني أبصر أثناء نومي أكثر مما أفعل في يقظتي، فراحت تكلفني بمهمة ملء بعض الأوعية بالماء ليلاً من بعض الأفلاج التي نعرفها، ونعرف كيف تسير مجاريها، تلك التي ندلف إليها نحن سكان رؤوس الجبال، عبر كهوف وممرات ضيقة لا يعرفها سوانا، فقد استفدنا منها كثيراً في صمودنا أمام هجمات كل الذين جربوا احتلال موطننا من فرس وبرتغاليين وانكليز، مئات من الأفلاج التي تصب مياهها في نهر زارا الذي يقال أنه يصب في خور دبي..

كنت أحدد طريقي إليها ليلاً بواسطة إصغائي المرهف لخرير المياه، انتبع صوته، ولا أعود إلا وقد ملأت ما حملته من أوعية فارغة بالماء.

وراح العود يخطو بين الصخور والحجارة دون أن يتعثر أو تصطدم رجله بشيء، لا بل وأكثر من ذلك فقد راح يحذر علياً من الارتطام بصخرة حادة أو بغيرها من الحجارة، وهو يروي له كيف فقد نظره ذات صيف أثناء محاولته قطف العسل من بين شقوق الصخور في الجرف، وقد أمسك بغصن كثرت فيه الأشواك الحادة فإذ بالنحل ينفر من قريته ثائراً، وينهال على وجهه ورأسه بلسعاته الحادة، الأمر الذي أجفله، فترك الغصن وسقط من مكانه، إلى أسفل الجرف ليرتطم بالصخور والحجارة التي أفقدته الوعي، ولم يستعده إلا على فراش في بيت أبيه، ليظن الناس أنه قد مات، بعدها التهبت جراحه وراحت تتقيح، ولغياب الخبرة والعلاج بين قومه، حمله أبوه على ظهره مسيرة أيام حتى بلغ به كمزار، ليعرضه على طبيب فارسي كان يأتي إليها بحراً، وتأخر الطبيب بحضوره، فقام أحد المعالجين المحليين باقتلاع عيني، وأخاط مكانها بخيط قده من جلد ضب، لأصبح كما ترى، وليكون أخر ما رأيته ذلك العسل الذي بقي بريقه في ذاكرتي كضوء الشمس الذي حرمت منه.

ولأني أظهرت نبوغاً مبكراً، وحكمة وحنكة على الرغم من كوني فتى كفيفاً، تم تنصيبي عوداً على قبلتي إثر موت أبي مباشرة، ولم أتجاوز السادسة عشرة بعد، ولا زلت أمارس مهمتي رغم التسعين وما يزيد .

كانت ليلة مقمرة، تجولا قرابة النصف ساعة في المكان، ثم عادا إلى بيت العود، وظل علي ينتظر أن يأذن له بالكشف على صحته، حتى صرح بهدوء وقد تنهد:

- الآن يمكنك أن تقوم بواجبك، فقد مر على أخر وقت رآني فيه طبيب أكثر من عشر سنوات!

قام علي بكل ما ينبغي عليه فعله، ودون ملاحظاته في دفتر كان يحمله، ثم طمأن العود أن صحته بخير، وأنه لا يبدو عليه أنه يعاني من أية عوارض غير صحية، ثم سأله :

- قل لي يا سيدي العود ، كم تبعد كمزار عن هذا المكان ؟!
- تبعد من هنا مسيرة سبعة إلى تسعة أيام لأن المنطقة جبلية، ولكن هناك مشكلة في بلوغها من جهة الجرف الذي يحيط بها من ثلاث جهات هي الشمال والغرب والجنوب، إذ لا يمكن الدخول إليها إلا عن طريق البحر، وقد أنزلني الرجال إليها بالحبال يوم أسعفني أبي.

ظل علي يجالس الرجل لساعة متأخرة من الليل يصغي إلى أحاديثه عن كمزار، وكيف يقصدها الناس، لزيارة قبر شيخها محمد صالح المتفقي، الذي أتاها قادماً من الكوفة، وقد مات فيها ليكون قبره إلى جانب بئر المياه التي ما مات أحد من كل الذين سقطوا فيها على الرغم من خطورتها، لاعتقاد سكان تلك المدينة أن أرواحاً خيرة تبارك تلك البئر والمكان.

شعر علي بالارتياح لجلوسه مع العود أثناء تجاذب أطراف الحديث، فسأله عن سر صحته رغم السنوات الطويلة، وأخبره العود أن الأمر يرجع إلى تناوله كميات من العسل الأبيض، الذي لا يوجد في أي مكان من العالم سوى جبال مسندم، وروى له كثيراً من قصص مراقبة النحل لأشهر خلال السنة، ليتمكن المراقبون من تحديد مكان العسل وجنيه، ثم سأله علي عن إن كان أفراد قبيلته يحملون أوراقاً ثبوتية، فاستغرب العود السؤال، واستنكره على عليّ، قطب العود حاجبيه فوق حفرتي عينيه الداكنتين، لتزيد دمامته قبحاً، ثم أكد له أنهم من أكثر العرب أصالة نسباً وهوية، وأن الدول المجاورة، وعبر السنين، تحسب لسكان رؤوس الجبال ألف حساب، لما لهم من طبع هذه الجبال الصلبة العنيفة الحادة الوعرة، فلكم وقعت بين أبناء الشحوح حوادث قتل بالجرز والبيشك، ومرد ذلك إلى طبيعة المنطقة التي أكسبتهم سرعة الغضب والهيجان، فالواحد منهم يقتل أذا ما ثار دون تردد، وأمسك بالجرز الذي إلى جانبه ولوح به لعلي، ثم قبض بيمينه على بيشك مربوط

إلى خصره، ليدرك علي أن الجرز أشبه بالفأس الصغيرة، والبيشك هو السكين الفضية التي يشكها في وسطه أسفل بطنه، ثم قال له وبحزم وقور:

- نحن الذين نحدد هوية المنطقة ونسبها، وليس العكس!

و راح يروي له أخبار معارك لا زالت تدور بين ركاب البحر من قومه ومن الكمزاريين مع حرس السواحل الإيرانية، الذين يضيقون عليهم في رزقهم وصيدهم الذي يعتاشون عليه، حتى أعياه السهر، وأحس بالنعاس، فاستأذن علياً لينام، فغادر الأخير بيت القفل، وخرج يسلك طريق العودة باتجاه المكان الذي ينزل فيه، ونفسه تحدثه بزيارة كمزار، خاصة أن ماجد كان قد ذكر له أن سوار جدهم كان قد مر عبر كمزار.

كان الوقت متأخراً، وكانت ليلة مقمرة جداً، شحنت علياً بكثير من التساؤلات خلال طريق العودة الذي كلفه مسير نصف ساعة ليصل كيوي، قصد صخرة تبعد عشرات الأمتار عن مكان إقامته، جلس فوقها يكتب في دفتر مذكراته الذي لا يفارقه :

"يأبى السلاح يا علي أن يصير زهرة، فيسيرُ في الأرض مواسمَ موت صحراوية، تقرضُ أسنانُه الصفراء الفرحَ والحبَ وباقي الصباحات الرقيقة، مخلفاً وراءه ليلاً لا يخلو من الأنين والفجيعة.. فالسلاحُ يا علي إله يُكره الناس على عبادته، ويعدهم بحقول من النشوة والسيطرة. تُرى ماذا سيقول آخر القاتلين عندما يعجز عن إيجاد ضحيته؟ هل سيوجه سلاحه إلى صورته

في المرآة أو في سطح المياه، ويطلق النار عليه فيسقطا معاً ليبقى السلاح؟! يا علي بين السلاح وبين قلبي خصومة لن تنتهي إلا بانتصار الحب، فعلى ما يبدو أن كل البشر – حتى دعاة السلام – يحبون الحرب، ويصبحون أشد اتزانا إذا ما نشبت."

توقف علي قليلاً عن الكتابة، وراح يقلب في دفتره، وأخرج نصاً كان قد أعطاه له صديقه اللبناني جو ليبدي رأيه في كتاباته، فأخذ يقرأه بتأنٍ مبدياً دهشته تجاه ما يكتشفه من عمق المشاعر وسعة الخيال عند جو :

" تعبت من الملامة، أبي يلومني لأني لم استطع أن أحقق أحلامه، وصديقي يلومني لأني أقل وفاء معه، وأخر يلومني لأني غير متعصب لطائفته، وذاك يلومني لكثرة انفتاحي الفكري، وهناك من يلومني لأني أصبر كثيراً على الحياة، وسواه يلومني لأني لا اتقن التأفف من شح الرزق، ولا أتمرد على واقعي البشع، والبعض يلومني لأني أثور على التيه الذي نحن فيه، وأغضب من الهوان الذي يحيق بنا.. حتى أخوتي، يلومونني لأني لست ثرياً، ولأني لم أمت، ليشعروا بالحرية. وحبيبتي.. حبيبتي تلومني لأني لا أجيد النفاق، ولا أجيد الهزيمة والاستسلام، ولأني طموح.. وتلومني لأني مسؤول عن كل آلامها وأحزانها التي حلت وتحل وستحل بها.. كل هذا لأني أحببتها، وجاري يلومني لأني أحب عائلتي، وأعاملها بلطف، والله يلومني لانشغالي عن عبادته.. وأشد اللوم ذاك الذي تنهال به نفسي عليّ، فكلما خلوت بها لامتني

وأقامت الدنيا وما أقعدتها لوماً.. وأنا أخشى أن أموت بسكتة لوم مفاجئة، أخاف أن الوم نفسي، وتكون نهايتي على يد تلك اللومة، فأموت لائما وملوماً! "

تنبه علي على صوت وقع أقدام ترتطم بالحصى، فنظر عن شماله، فإذ به يرى امرأة بزيها العماني، وقد غطت وجهها بالبرقع تقترب من مكان جلوسه، راح يبحث في المكان عن أشخاص غيرها، دون أن يلمح أحداً، الأمر الذي حمله على الشك والريبة في نفسه، فما الذي يمكن أن يحصل، لو أن أحد رآه من السكان المحليين، وظن فيه سوءاً، واتهمه بأعراض سكان رؤوس الجبال، وتذكر ما قاله له العود عن طباعهم القاسية العنيفة كطبيعة هذه الجبال، ولاحت له الجرزة، ولمح بيشكاً يلوح قرب عنقه، وتخيل نفسه وهو يجلس أمام العود ليحكم عليه، فأحس باختناق يمنعه حتى من التوسل ورَفْعِ صوتِه بالصراخ طلباً للنجدة، واحتار في ما عليه أن يفعل، فهل يتمدد ويلتصق بالأرض ليختفي، أم أن عليه النهوض والجري ابتعاداً عن المكان؟ وفكر في احتمالية أن تكون لها حالة النهوض والسير أثناء النوم مثلما كان يحصل للعود أيام كان صغيراً، إلا أن المرأة كانت قد اقتربت، ودنت منه، فكتم أنفاسه، واشاح بوجهه متوجساً منها، حتى سمعها تضحك، ليكتشف أنها إيزا، قد حضرت تبحث عنه بالملابس العمانية التي ظلت ترتديها منذ الصباح.

تنفس علي الصعداء، وأخذ يبرر لإيزا ردة فعله، وهو يقول : أنت لا يمكنك أن تتخيلي ماذا يمكنهم أن يفعلوا بنا، لو ظنوا أنك من نسائهم!

جلست إيزا على ساقه اليمين، وطوقته بذراعيها، وتركته يدس أنفه بحثاً عن رائحة البخور التي تفوح منها، فيتنفسها، ويتأوه من عذوبة رائحتها، ويوضح لها أن الرائحة ما كانت لتفعل فعلها، لولا اختلاطها برائحة جسدها وأنوثتها.

وأخذت إيزا تشرح له ما فعلته النسوة معها في جلسة البخور، وتكشف عن زنديها، وعن ساقيها لتريه رسوم الحناء، ثم همست بأذنه، تخبره عن روائح البخور التي تسللت إلى فرجها، وتتمنى لو أنه يستطيع أن يشمها.

جرها علي من يدها، وراح يتجاوز فيها الصخور والمنعطفات صعوداً، حتى باتا خلف صخرة شاهقة الارتفاع، أسند ظهرها إلى الصخرة، وركع أمام وقوفها، ورفع عنها ثوبها العماني، فبانت أنها لم ترتدِ سروالها الداخلي، حشر رأسه بين فخذيها، وأخذ يتنفس رائحة فرجها المختلطة بروائح البخور، ورائحة الماء الذي بدأ يتدفق منه، فأخذت إيزا تتنفس بقوة وسرعة وعمق، وتشهق فرحاً ومتعة، وتزيد من المباعدة بين رجليها، متيحة لعلي المكان كله، فتشده من شعره إلى فرجها؛ الذي أحست أنه سينفجر من شدة الاشتعال، وراحت تتأوه، وتكتم أنينها، وتتمنى لو أنها تستطيع أن توقظ سكان روؤس الجبال كلهم بصراخ، تطلقه فوق هذه المرتفعات الشاهقة؛ التي لم تألف أيا من الإباحيات التي تشهدها أوكار الشهوات في العالم، وظل هو يُعْمِلُ لسانه

داخل فرجها وحوله في خلوة حميمية امتزجت فيها أصوات الحب والمتعة وروائح الأجساد ومياهها بروائح البخور والصخور والليل الساحر بهدوئه، إلى أن تعالى صوت آذان الفجر، المنبعث من مئذنة مسجد في قرية غليل، والتي تبعد مسافة ليست كبيرة عن وادي سلحد.

****

" يعطينا العقل أكثر من ألف طريقة للرفض ، ولكن هناك طريقة واحدة فقط للقبول ، هي تلك التي تنبع من القلب "   سوز أوروما

إن مكتشف المجوهرات ينظر إلى ثمنها، وليس إلى روحها وتاريخها وعمقها، حاله هنا كحال بائع الكتب، يبيعها ولا يقرأها، أما الكاتب فإنه يحقق حياة أفكاره بقراءات قرّاء لكتبه؛ الذين يتبعون خطاه بين أوراقها،

لذلك علينا التحرر من الجدل، لأن التنافس في مضمار وهمي يرهق، ولا يمكن الفوز فيه، ولأن إدراك صعوباتنا الداخلية والتحرر منها؛ يتطلب تشكيل نوع جديد ومثير من العلاقة مع الذات كعلاقة الطبيب بمريضه، فإن التحرر لا يحتاج إلى الثورة بل يحتاج إلى الفهم.

وحين نبحث عن الحل بطريقة غير مألوفة لمشكلة قد وقعنا فيها، يطلق علينا الآخرون مصطلحات القتل من جعب خسائرهم.

فالوطن ليس مفهوماً رياضياً، يمكّنُنا من فرز الناس على قاعدة لونية، والعائلة ليست أفراداً تربطنا بهم صلة الدم وجدران البيت والمائدة وفراش النوم!

فإن كان الدم هو الرابطة الأولى والأخيرة فيما بيننا كبشر، فما حاجة المرء إلى إدراكه وعقله ومشاعره وكل ما يمكّنه من بناء وطن وعائلة وعمل؟

البعض يخون ذاتَه ليحققً ذاته، وهناك من يخون نفسه وعائلته ليحققَ ما لا يعرفه سواه، والبعض يرى الوطنَ حباً يأتي من نوافذ خلفَ الأسوار، بينما تبدو الخيانة لأجل الذات هي الانتماء، لكن الخيانة لأجل الخيانة مرضٌ؛ يؤدي لحياة مقترفة، تثقل الخائن بآلام البحث، فتعييه روحه التائهة في المجهول، فيقرر الخيانة.

هذا ما كان لامبير يقرأه في مخطوط الرقاش، بعد أن أستلم من دار ألكا للنشر في باريس أيميل، يُطلَب منه فيه؛ أن يقوم بإلقاء نظرة أخيرة عليه، ويتأكد من أنه قد بات جاهزاً للطباعة، ليبعث بعدها تأكيداً، يجيز لهم البدء بطباعته، فيصدر مخطوطُ الرقاش في كتاب عن دار ألكا، تلك الدار التي أسستها مجموعةُ من الشبان العرب اليساريين في مارسيليا، ثم انتقلت إلى باريس بعد توقف دام قرابة العشرين عاماً.

قضى لامبير ليلته ساهراً، يقلّب في ملف الرقاش الورقي بين يديه، وفي ملف البي دي إف الذي استلمه في الإيميل، يقرأ، ويدون ملاحظات في ورقة جانبية، فيطيل التمحيص في بعض المقاطع التي ثبتها الرقاش في أوراق مطوية داخل الملف، ويجري مقارنة بين محتوى في هذه الأوراق وبين محتوى ملف المخطوط، ويضعها في متناول يده فوق مكتبه الذي يقابل باباً يؤدي إلى شرفة، أزيحت عن جانبيه الستارة، ليطل على مشهد ليلي جميل في ضاحية من ضواحي مارسيليا الفرنسية، تلك المدينة التي تطل على المتوسط، حيث يقيم في حي لو بانير أقدم أحياء مارسيليا، ذلك الحي الذي يتميز بشوارعه الضيقة المتعرجة، المشتعلة بالألوان الزاهية، والواقع فوق سفح تل يهدئ بتفاصيله الشعبية حنينه إلى صنعاء.

الورقة رقم ١

لو أني غريب في وطني، يلازمني وطني، في كحل عيون الأمهات في الاعراس الشعبية، في حنة العرسان فوق صواني القش العتيقة، في شراويل أجدادنا المطرزة جيوبها برسوم دمشقية، في حبال غسيل لاتبالي بما عليها ولا من يراها، في روائح خوابي المونة في غرف الطين الاسمر، في مصطبات التمّ فوقها الجيران لفرك الكشك البلدي، في زير الماء، يغطى بمانديل الجدات أمام الدور، في المحدلة والماعوس، يئز شتاء فوق أسطح

تدلف، في صوت المؤذن الطبيعي من على سطح المسجد الصغير، في نداءات الناطور، ينشد العونة لبيت ينهض من تراب، في ثغاءات الجدايا فوق صخور المعصرة، في عريشة تدلت من على السور الحجري يسندها "المسموك"، في تباريك الوَلّادة الشعبية وهي تغسل كفيها بالمزهر المقطر، في تكتكات الدراجات النارية تغادرُ باكراً الى الحقول، في مواويل أبي فوق السطيحة ليلاً على نغمة الربابة، في جرن الكبة الوحيد والمنقوش برسوم ورد الجوري، في حُلَّة القُلبة تتنفس البخار غروباً فوق النار، في شخير بابور الكاز تحت قدر الغسيل، في ساعة الجيب التي وعدني بها جدي قبل أن يضيعها، في كلاسين الطفولة المثقوبة المنشورة على كومة الحطب، في صناديق الصبايا المليئة بالرسائل والصور، في قافلة الدواب "ترجد" المواسم الى البيادر، في حصير القش تحيكه النساء شتاء، في " حواكير " البيوت المستورة، في عباءات الرجال الأساطير، سمعت بها وما رأيته ، في صنارات العوانس المحاكة بالعشق الجريح، في جوقة الزغاريد التي سحرني تناغم أصواتها، في جوارير الخزائن المخلعة، تكاد تسقط من الحنين، في ما فوق عتبة الباب المليئة بما يصعب إحصاؤه، وطني لن ينجو من حبي وإن جافاني.

الورقة رقم ٢

كانت لأمي عباءة جاءت إليها من صفد يوشح سوادها المسدول خيوط كأجنحة العصافير تناثرت كالأنجم في عتمة الأبد تلبسها أمي مساءً وتفتح المذياع فيهطل الكحل عربياً كلما غنت فيروز "وسلامي لكم، يا أهل الأرض المحتلة"، كبرت أمي، وغابت وصمت المذياع فوق الرف، والعباءة الصفدية تمددت ما بين قلبي والجسد، وتغيرت أحوالنا، فشح الملح والماء، ودنت منا السماء، واتخذت لها في كل زاروب مسجداً وفوق كل بيت صومعة، وعلا التكبير والوعيد.. وحدها العباءة المعلقة تنتظر الكحل مساء، وطفلة تسحن الملح بجرن، قُدَّ صخره من مقلع، كان لنا موالنا وأحوالنا وآمالنا، لا يخلع المرء رداء، قد حاكه سبعين جرحاً في البلد.

يوم كان التراب سجاد أقدامنا، كانت الأزهار نجوم سماوات حقولنا الريفية، الرائعون الرائعون هم أولئك المثقلة قلوبهم، الخفيفة أرواحهم، النقية أجسادهم!

لوّن طفولتك في يوميات الناس، كالفراش الذي يهزه الرقص كلما تمايلت به الزهور.

يا أمي .. لقد أخرني حزني عن لقائك، وقد آثرت ان أبلل وجهك بالبسمات!

توقف لامبير عن القراءة ورفع رأسه زافراً، وأخذ يدون في كراسته الخاصة : "مهما أقصي الرقاش عن وطنه، سيظل يحمل هويته في كتاباته، على الرغم من أنه لم يعش فيه "، ثم واصل القراءة ..

الورقة رقم ٣ :

أتدرين كم عاماً مكثت في الظلام، بلا ضوء بلا دخول في الجسد، أتدرين كم حياة انتظرتُ انتهاءها، أحمل شوقاً، أحاول لغة، أطرق أبواباً بلا عدد؟ لو أنا في هذي السنين قد التقينا إلى الأبد.

العائدون من الحرب يا أمي، لا يحملون في حقائبهم إلا روائح الموت والدماء، وخططاً للبحث عن أعداء جدد، ولو في عقولهم.

يا أمي.. كل علاقاتنا الحميمة، ما انتجت قصيدة، أتعرفين لم يا حلوتي؟ لأننا من سلالة، خصيانها لا يدركون الحب، بغير أشياء القبيلة.

وأجمل ما في حياتك يا أمي كانت ردود أفعال وجهك كلما قلتُ: أحبك! فما قيمة الحب بلا وجوه تنعكس فوق ملامحها انفعالات من نحب يا أماه.. أشتهي أن أصغي إليك.

الورقة رقم ٤

كلما أفقت صباحاً، وباشرت المسير، وجدتني، أنأى إلا في دواخلي. خمسون عاماً وانا أبحث عن بوابة الدخول إلى وطني! و أجمل ما في الأمل أنك أنت صياد أحلامك الذي يرمي الصنارة في داخلك، وينتظر اهتزاز الخيط.

أولئك الذين يتنفسون رطوبة الزنازين من سنين طوال، من صلوا صلاة الخوف دون حب، أخوة فضلوا الجوع الأليف على الشبع الموحش، وقد وعدوا أنفسهم بالكثير الذي لن يحصل، يدفنون أنفسهم عميقا في أنفسهم، يقسون على أرواحهم لأسباب تافهة، يهدرون طاقاتهم في حب الآخرين، دون حبهم لذاتهم، لقد فقدت الاماكن هويتها، وحضورها، فغدا انتقالنا العشوائي فراراً، فمن شدة ثقلها، تشابه علينا فصارت الغربة فينا غربات، رغم أن زهور الصبر، قد أورقت في نوافذهم تعباً، وما ملوا شوق الحياة.

الملفت أنني في طريقي إلى الحياة، قابلت كثيراً من الوجوه، التي سترافقني ملامحها، في طريق الخروج منها، فالحب أجمل الإطارات التي تحفظ نقاء صورنا، فما حاجتي لدور العبادة، والإنسان أقدس محاريب الصلاة؟! السماء فيه؛ وفيه الارض والإله! ماحاجتي لسجادة منسوجة بالمال والأسرار، حزن الأصابع فوق نولها غفا، وعلى خيوطها حلت دموع التعب ؟

أنت هو، كن على يقين بأنك هو، فعش حياتك على ذي القاعدة، لن تجد بعدها ما يخيفك، أو يهددك، لن تجد من يقتلك ولا من تقتله، فالشر في

رأسك أنت فقط، أزله فتستقيم حياتك، فإن حبك للخير ليس منة منك على الناس بل هو تحقيق منك لوحدة هذا الكون.

في طفولتي.. كان سريري من خشب، وصوت أمي من حرير! غني فيروز، ولتسقط كل البنادق. أحبكم رغم أنف كل الأديان التي تحرض على الكراهية.

فيروز، والضباب والطرقات الفارغة والعزم الممزق؛ على شبابيك الحلم والخوف الذي يرتب الأولويات وبعض الذين علقوا في هوامش العمر على الأرصفة، يلوحون بأرغفة التهمت أعمار الأمل من حيث لم يدروا، وألفُ خطيئة وغفران وأنتِ وذاك الحب الذي وشمتِ روحي به، تفران رغم كل حقائب العودة.

تنأى التفاصيل ولا ينأى وجهك، يظل أبرز الحاضرين، ومدينة غربتي الآفلة، تعبد شوارعها الممتدة حزنا بالحب والحنين، وسؤال في حدائق اللهفة وحيداً، يرف كطائرٍ من نور فوق أسوار اللون والإيقاع، يغيب ملمحاً في تراكمات الغموض خلف آخر الستائر المسدلة جفنُ عينيك القديمة، وأعظم الشجاعة أن تنفض هزائمك وتبدأ من جديد، أنا لست بحاجة لامرأة؛ تثير فيي الكلمة، أنا بحاجة لامرأة أثير فيها رغبة الحياة، وأتسلق معها ذروة الحب، فأعذب النساء امرأة؛ تعرت إلا من أنوثتها، فكلما أطل علينا سيد؛ تشققت أرضنا عن مزيد من العبيد، وتظل وحيداً بدربك تُقْتَلُ حزناً، وكفّاك ترفع ساقيك صبراً، لئلّا يوقفك زحف التردد؛ ضغطت بناب على جرحك

دهراً، كتمت بجوفك ذئاب الأنين، فجلدك كم مزقته رياحٌ، وكم رتقته خيوطُ الحنين، وما ترجّلتَ عن شوق الوصول، تسير وفي كفك رماد السنين.

هو ذا انت سليل تحدٍ، تعاند حلماً رنا من جديد، تعجل فوزن خطاك ثقيل؛ ودربك تنمو بعيداً بعيد، لشيطان الموسيقا الخالد ألف ملاك يخدمه بجناح، من حزم الوترين مدّ أكفاً، قد سبحت أكوام اللحن المزدانة بحرائق حبكِ والشغف، وألف إله من نغم في الليل؛ يدندن أوجاعاً، يجتاز الحزن بأصوات تدلف من جوف معازفه، فالخلدُ ليس أجساداً تتجددُ في قبر واسعٍ وفق أهواء خالقه.

الخلود موسيقا تتمدد، تأبى أن تخمد في الطين، تتوالد نوراً أو لوناً أو نغماً أو حرفاً تكوينياً، جن الانسان لدهشته، فالخلود محبة، قد عجزت دماء الكون طهارتها، فأطلت فينا أجمل كفر، يشتاق الكون لمبدعه.

أعاد لامبير الأوراق جميعها إلى داخل الملف الذي أخرجها منه، وأسند رأسه إلى أعلى ظهر مقعده، أغمض عينيه، والرقاش هناك في تلك الزاوية، إلى جانب بسطة كتبه وعربته المركونة، وها هو يستلم الطعام من يد الفتاة التي تحضره له كل يوم، يتناول الطعام بيمينه، ويكتب بيساره.

تلاشى حضور الرقاش، وظل لامبير يغمض عينيه، ويتمتم بصوت خافت جداً :

– الرقاش، الرقاش، ترى هل سيبقى على قيد الحياة ليقرأ مخطوطه الذي سيكون بين أيدي القراء خلال أسابيع؟! وكيف سيكون رد فعله حين يرى نسخ كتابه على رفوف المعارض، وبين أكف الباعة؟!

ذاك الفلسطيني الذي جعل رحلته إلى وطنه حبراً تسيل به آلات الطباعة على الورق في دار ألكا، أتراه قرأ كتاب السر لروندا بايرن؟! أم أنه تعرف إلى قانون الجذب بطريقته الخاصة؟! ومن يدري فلهؤلاء الشرقيين أساليبهم السرية التي لا يعرفها إلاهم.

يحاول هذا الفلسطيني أن يخلع وطنه من خلال الكتابة، يخلق سرديته الخاصة، وكلما أعدنا سرد الماضي بهدف التحرر، اكتشفنا أننا أسأنا إليه فينا بشكل كبير.

****

رماد الأجساد المقدس

صدقني يا قلب، إن أهون المكابدة مكابدة الكراهية، إذ تنتهي بالبعد. لكننا يا علي، و نحن نعبر الى الموت في الحياة عشرات المرات لا بل مئاتها، لا أدري كيف نستعيد النهوض من أعماقنا لنتم ما بدأناه من أحزان؟ نهجر كل يوم بعضاً من أجزائنا على حواف الطريق، ونرسل قسماً من ذكرياتنا مع من سبقونا، ونبقي البعض الآخر لنتوسده كلما حل المساء؛ وفَرّتْ منا فرصة، نحاول من خلالها؛ أن نستدل على فرصة جديدة، لنؤكد أننا نسيج من ذاكرة زمن موجع مزدحم بالموت والحرب والمطارادات الحيوانية، وأصدق الدموع تلك التي لم يدر عنها غير داخلك المحموم بالهزائم والانكسارات والسقوط الميؤوس الفرار منه، فالرحيل ليس مسافات، الرحيل مشاعر تغتال صحوك في الليالي المقمرة، لكل ذلك وداعا للعارفين وجهتهم الى الحنين.

جلس علي فوق صخرة تعتلي كتف الجرف عند رأس قمة كيوي، يراقب الشمس التي صارت خلفه، وهي تسحب أخر ذؤابات أشعتها من مياه تترامى حد التلاشي، كما لو أنه يركب جملاً، راح يخب في أطراف عالم يطمسه ضباب التنائي الذي يبتلع هذه المنطقة كل مساء منذ مئات القرون، لتلمع في البعيد المنخفض تحت عينيه أضواء القرى والبلدات والمدن الصغيرة المبعثرة على شواطئ خليج عمان..

كان كل شيء هادئاً، وحدها أنسام المساء تفح في ثنايا الصخور وأشجار العتم والأشواك من حوله، راحت العتمة تطمر الوادي الذي يشرف عليه، فتملؤه سواداً وأسراراً كلما صب فيه الليل ظلامه، ليلمح فوق صفحة ذلك النهر الأسود الذي راح يجري بين الجبال صورة والده، وقد أنهكه الغياب والهم الذي يكلفه الكثير من التنازلات والملاطفات وامتصاص الإهانات في قصور الأعمام، فبدا له وقد احدودب، كما لو أن الكون ينيخه لينزل عن سنامه راكب التعب الهرم، فهمس : و أعلم أن هذا الظهر ما أحنته إلا مطالب الأبناء، وآه كم أحن إلى أصابع رحلت، وفيها بقايا من أذن نبتت من بَعدُ على قلبي، فسقطت من عينه دمعة، وراحت تخترق ملاءة السواد التي تدلت في باطن الوادي، وراح يتابعها بخياله، فيراها، تنبت زهرة على قبر أمه الذي يرزخ تحت أطراف جبل النفايات الذي يزحف ليطمره، فأجهش بالبكاء، وعجز عن السيطرة على روحه المنهارة دمعاً، حتى أحس بكف

تلمس كتفه، فالتفت إلى الخلف ليرى عصاً، تسلق انتصابها بناظريه، فإذ بالعود يتكئ عليها، وهمّ يقول : حذاري أن تتقدم خطوة إلى الأمام، لولا أن خلع العود نعليه، وجلس إلى جانبه، وقد قال بحب ووقار: بكم تشتري كتفا يتسع لدمعك يا ولدي، فكل الألوان بلا قيمة ما دمت ترسم في الظلام، حين نغادر أوطاننا نبقى هناك رغم أننا نعجز عن العودة ساعة نشاء، أتعلم يا ولدي إني ورغم إقامتي وأجدادي في هذه الجبال لأكثر من الفي سنة، غير أني لا زلت أراني ألعب هناك، خلف تلك الجبال، في البعيد، حيث بقيت جثث أهلي تحت ذلك الانهيار الذي لم يتوقف تهاويه في روحي حتى اليوم.

أتعلم يا ولدي، أننا نحن لأهل السماء سماء، ثم أشار بعصاه صوب الوادي وقال : أترى ؟! كل نهر ينبع من غير أضلع الحب ليس يدوم، فأن تحب، يعني أن تنبت في تراب جسدك بنفسجة ترويها كل صبح بالامل..

وسادت برهة من الصمت إلى أن سأله علي :

– أتؤمن بالحب يا سيدي العود؟

فأشار بعصاه صوب السماء، وقد تنفس بعقم، ينم عن وجع دفين، ثم قال : المسافة بيني وبين الله بقدر المسافة بيني وبين قلبي لست بحاجة الى براق لبلوغه، فقط أنا أحتاج الى الحب، فما لامس الحب شيئاً الا وجعله مقدساً.

ثم سأله علي مجدداً : وهل تظن أن الله يحب؟!

فأجاب، دون أن تظهر عليه أية انفعالات : أقبح الآلهة إله عاجز عن تصحيح أخطائه!

– وهل صحح إلهك خطأه معك؟

رفع قدميه من تدليهما، وتربع، ثم أوقف العصا بينهما، وأسند رأسه إليها وقال :

وأجزلني الكثير.. ألم تر؟ أتيت من بيتي إليك دون دليل، فكيف تظن أني وصلت؟! وكيف تعتقد أني عبرت سبعين عاماً، وأنا بغير عينين؟ ثم ردد : وأعطي الجرح في قلبي فرصة ثانية لعل الجرح يشتهي طعم الإقامة.

فسأله علي : وكيف حفظت مثل هذه العبارات، وأنت لا تستطيع القراءة ؟!

فقال له : أشفق عليك، لا زلت لم تفهم!

فرد علي : أريد أن أفهم يا عود! أريد أن افهم، كيف تأمن المسير بين الناس، وأنت تخشى أن يكون كل من تمر به في الطريق إلى مبتغاك مفخخاً، يوشك على الانفجار؟! ينفجر إن حييته، وينفجر إن سألته، وينفجر أن وقعت عيناك في عينيه، وينفجر إن تجاهلته، وينفجر إن أعرضت عنه، وينفجر إن أقبلت إليه أو أدبرت عنه.. بات ال تي إن تي والديناميت أهون وسائل الفتك بالإنسان، لكن التفجير الإنفعالي يكاد يعزلنا حتى عن النظر في وجوهنا فوق المرايا، حتى لا تنفجر أنفسنا بنا ونقتل إنساننا.. نصفق

لأسماء معدودات، ونمنح الزعيم فينا ما يليق بألوهيته من أسماء حسنى، ونوثق نجاحاتنا بعدد المقاعد الملأى في اللقاءات الفكرية.. مادمنا نصنع المزيد من المقاعد، وندفن المزيد من الرؤوس، لن نكون في غير سفينة تجوب البحر وفقاً لتدافع الأمواج.

فأجابه العود : بعض الناس كدور العبادة هجرها المصلون، وما غادرتها السكينة، وكلما نأت دور العبادة كلما نقت، وتقدست، فالمألوف مكشوف يا ولدي !

يأبى السلاح يا ولدي أن يصير زهرة، ويسير في الأرض مواسم موت صحراوية، يقرض بأسنانه الصفراء الفرح والحب وباقي الصباحات الرقيقة، مخلفاً وراءه ليلاً لا يخلو من الأنين والفجيعة، فالسلاح إله يكره الناس على عبادته، ويعدهم حقول من النشوة والسيطرة، بين السلاح وبين قلبي خصومة لن تنتهي إلا بانتصار الحب، ترى ماذا سيقول آخر القاتلين عندما يعجز عن إيجاد ضحيته؟ هل سيوجه سلاحه إلى شكله في المرآة ويطلق النار عليه، فيسقطا معاً، ليبقى السلاح !

فغر علي فاه، يريد التعليق على ما سمعه، فهذا النص كتبه قبل أيام في هذه الجبال، وقرأه مرة واحدة بعد أن كتبه فوق تلك الصخرة ليلاً، ولم يكن هناك أحد قد سمعه، فكيف يفعل العود ذلك ؟ لا بد أن في الأمر سر!

فأشار العود له بيده ليهدأ، ريثما يطلعه على كل شيء، وليس فقط عن مهارته في حفظ أي شيء يسمعه لمرة واحدة فقط، ثم قال :

قبل عقود، وفي سنوات حرب العراق وإيران ، كان المهيب يرسل طوافاته إلى هذه الجبال محملة بالسلاح، سمعتها بأذني، تحط على مسافة منا هناك، لينزل منها جنود وضباط، يفرغون حمولاتها من بنادق وعتاد، ويضعونها في أماكن محددة خلف الصخور وفي بعض الكهوف والجحور، ليأتي بعدها بأيام شباب، يقومون بنقلها على البغال إلى الوديان حيث يتم تدريبهم، ومنها إلى السواحل، تحسبا لأي هجوم فارسي.

– وهل كنت تسكت عن ذلك، على الرغم من معرفتك بمخاطر السلاح؟

– الاخرس لا يملك ما ينبغي أن يسكت عن قوله، والسكوت الحقيقي هو السكوت عما ينبغي قوله، فالصمت لا يحول دون مواصلتك مسيرة الاندهاش مما يحصل، فالقتل تقنية لبناء وطن إجباري، فتلتغي المسافة بين من يقتل الآخرين بالرصاص ومن يشوه حياتهم بقتل أحلامهم، والموت هو اعتداء على هوية الأشياء، نحن لا ندفن موتانا، نحن نرتب مسألة غيابهم بطريقة تليق بنا، على الرغم من اعتقاد السلطات أن أجساد المواطنين هي ملك مقدس لها، تفعل بها ما تشاء، إلا أننا كنا ندفن موتانا على طريقتنا نحن أهل هذه الأرض.

ثم التفت إلى علي وقال له : انظر في عيني، وإن كانت مجرد حفرتين، أنظر، فنظر علي إلى مكان عيني العود، أحس بدوار، وهو يحدق في الحفرتين الملساوين، وشعر كما لو أنه يقع في فوهة بركان عميق، وكاد يسقط من جلوسه لولا أن أمسكت به يد العود..

أفاق علي على ذهول، وخوف، وشعور بالرهبة، فسأله العود :

– ما الذي حصل لك؟

فرد علي : أظنك أعلم مني بما حصل..

فتبسم العود، وتراقص صدره، جراء ضحكته المكتومة، ثم قال لعلي :

– من أي قبيلة أنت ؟

ولما عرف أنه من عنزة، صمت قليلاً ثم قال : أنت جدك طراد ؟

فأحس علي، كما لو أن جاناً قد مسه، ثم هزه برأسه لا شعورياً، وهمَّ ليقول نعم، إلا أن العود بادره بالقول : رأيتك تهز رأسك..

استند العود إلى عصاه، ثم نهض من جلوسه، واستدار، وخطا ماشياً دون أن ينتظر لحاق علي به، وهو يسأله :

– أتيت تبحث عن سوار جدك؟

فتعثر علي أثناء سيره بحجر، وكاد يسقط، وهو يقول : كيف عرفت؟

فرد العود : يرحل الموتى وتبقى وجوههم في الأشياء من حولنا، إن الحداد على الموتى هو بمثابة قطع الطريق عليهم لنضمن عدم عوتهم، وحده الوقت يحاول أن ينسينا وجود الموتى، لطالما أخطأت الأشياء أوان قدومها، ولطالما أتى الموت في الوقت المناسب، الأمر أشبه بان تمشي مسافات طويلة بحثاً عن بئر ماء وعندما تصله تجده قد جف من الماء، فحصولنا على الأشياء بعد فوات الاوان، لا يشكل فارقاً يا ولدي.

حاذاه علي في المسير، وهو يخبره أنه لم يأت بحثاً عن السوار، ولكن هناك الكثير من أقربائه قد أفنوا حياتهم في البحث عنه دون أن يجدوه، وتمنى عليه إن كان يملك أية معلومات أن يطلعه عليها، لعله يخفف المعاناة على أهله الذين لم يتوقفوا عن البحث منذ عقود، فيتهم بعضهم البعض بالتآمر في بيع السوار أو سرقته، حتى بلغ الحال رحيل بعضهم عن القبلية، وتهديد البعض الآخر بالقتل، وقطيعة الأرحام، فإن أخبره العود بمعلومة قد تهدأ النفوس بين أبناء العمومة، لأنهم لن يوقفوا البحث عنه، ولو بعد ألف عام ؟

ثم أمسك العود من كتفه، وأداره ليتقابلا في وقوفهما، وقال له : اسمعني جيداً، أذكر في طفولتي كان أحد بلطجية الحي الصفائحي، يرغمني على حمل كيس فارغ، والانطلاق في أزقة و شوارع الحي الصفائحي، لأجمع له في الكيس أعقاب السجائر المرمية، ولا أرجع إلا وقد ملأته، ثم يجلسني

على عتبة كوخه، ويرغمني على فرطها وفصل الدخان عن قطنة الفلترة، ثم يعطيني بعدها دفاتر ورق السجائر الشامية، تلك التي كانت تدخل البلاد تهريباً عن طريق عصابة تهريب من البنغال، فأقوم بلف ما جمعته من بقايا التبغ في سجائر، يدخنها لأيام بنشوة وإدمان، كل ذلك كان لأجل هدف واحد ليس أكثر، هو أن يكف شره عن مؤخرتي، ويجنبها شر الاغتصاب، وبالرغم من كل ذلك، لم أسلم من اتهامات من رآني في باب كوخه أفرط الدخان، وأجهزه له، وكنت كلما عدت مساء، تشدني أمي، وتجري عليَّ فحصاً دقيقاً، يشمل ملابسي الداخلية منها والخارجية، وفتحة مؤخرتي، ولا تتركني حتى تطمئن؟!

لقد عرفت كيف أحمي مؤخرتي من نزعاته المرضية، ولكني فشلت في منعه من اغتصاب عقلي اللاواعي، فبقيت أرى عارضيه في أحلامي، وفي بعض الذين ألمحه فيهم في الشوارع، فترتعد فرائصي، ولا زال شبحه يتجول في كافة الأماكن المعتمة التي عبرتها في مدن العالم وقراه سهولها وجبالها، فأرجوك مد يد العون لقومي، فالسوار أشبه براية الوطن وعلمه، يمكنك أن تمزق أقمشة الأرض كلها، ولكن ليس بامكانك أن تحمل علم بلادك بطريقة تشكل إهانة لنفسك وأهلك ووطنك، ولا علاقة لذلك بقوانين الحاكم أو سجونه، بل له علاقة بالتراب الذي يغلف عظمنا لحماً نسميه الجسد، فأنا من طين ذلك الشعب الذي فقد سواره، ولن يمل البحث عنه، إذ لا يمكنني أن أعيش وعلم وطني مسلوب مني، فقد بات الأمر شخصياً.

ظل العود صامتاً، غير أني علياً سأله : ألن تسألني لم أطلعك على هذا الجزء من حياتي ؟!

فهز العود كتفيه، مبدياً عدم اهتمامه، وقال : لقد علمتني الحياة ألا أتجول في أملاك الآخرين، وما أعيشه من طقوس في هذا الجبل، يشعرني بأني على كوكب ليس له علاقة بكوكبكم الأرض، فقد جعلتني الحياة هنا تجاوزياً، واختراقياً، لذا عليك أن تعلم، أني التقيتك في أحلامي أكثر من مرة، ورأيت ملامحك، وكنت على يقين بأننا سنتكلم معاً وطويلاً، ونصك الذي تلوته على مسامعك قبل قليل، وفغرت أنت فاهك مندهشاً، أريدك أنت تعرف أنك قد كتبته يوم التقينا، قبل أن تأتي إلينا حملتكم الطبية بزمن ليس بقليل، كتبته وأنت تجلس فوق صخرة هناك. وأشار العود بعصاه إلى جهة الصخرة.

ثم راح يكرر قراءة النص، وعلي يلتفت حوله وخلفه، ثم يعاود التحديق في وجه العود غير مصدق، ويقول : كيف يحصل ذلك؟ ألا تظن أن العالم بحاجة للاطلاع على تجربتك، ودراستها، ومعرفتها ؟!

فسأله العود غير مبالٍ : وما حاجتي لذلك.. دعني أطلعك على سر لم أخبر به أحداً من قبل، فبعد أن سقطت، وفقدت عيني، أتممت تعلمي الذاتي، ولكن لا أحد يعرف كيف، وأنا لم أتكلم مع أحد سواك بهذا العمق وهذا الوجدان من قبل، ذلك لأني لو فعلت، سيعتبر من يسمعني أن شيطاناً

يسكنني، وقد يعرض حياتي للخطر، وإن كنت عوداً على كل الأرض، لذ اسمعني جيداً.

كنت إذا نمت ليلاً، وحلَّ الهزيع الثاني، يأتيني الشيخ محمد صالح المتفقي، وهو متصوف كبير يعرفه سكان كمزار عن قرب، فيقول لي انهض يا ولدي، لقد حان وقت تعليمك ! فأغادر فراشي، وألحق به إلى الخارج، حتى نبلغ تلك الشجرة، وأشار بعصاه إلى شجرة على بعد مئات الأمتار من وقوفهما، فأتربع أمامه، ليبدأ هو بتعليمي، لقد حفّظني القرآنَ عن ظهر قلب، ولا يزال أهلي يظنون أني حفظته عن أبي، علماً أن أبي لم يكن يحفظ منه إلا جزأين. لقد درسني الشيخ صالح الكثير من الأشياء، لم يتوقف عن تعليمي حتى أتممت حفظ القرآن، وأخبرني عن سِيَر الكثيرين من ملوك وطني الأول اليمن، وسِيَر كثير من الشخصيات في التاريخ، وسير الذين أحدثوا فارقاً في تاريخ مسندم ودبا.

واشترط علي ألا أبلغ أحداً بما فعله معي، وبعد أن توقف عن زيارتي، أخذت تتكشف لي عشرات الصور والأحداث ومئاتها، كنت أخبر أهلي ومن حولي بما ينبغي أن يعرفوه، وأجنب أرواحهم ما تبقى، لئلا أفقد زمام السيطرة على الأمور، خاصة أني عود، وأنت تعلم النفس البشرية، وما فيها من نزعات ودسائس.

لقد أخبرني أبي قبل أن نعود من كمزار، أن شيخاً جليلاً قام بعد اقتلاع عيني برش بعض الرماد الذي كان يحتفظ به من قبر الشيخ محمد بن صالح المتفقي مكانها قبل إخاطتها، ليخبرني الشيخ المتفقي فيما بعد خلال إحدى زياراته أن ذلك الرماد كان رماد الأجساد المقدسة، لقد مات أبي وهو يوصيني بألا أطلع أحداً على سري هذا خاصة سكان هذه الجبال.

ظل علي يقف مشدوهاً، يعجز عن تصديق ما يسمع أو عن تكذيبه.

هل سمعت يا ولدي بالشيخ محمد صالح؟ اقرأ عنه، تتبع صنائعه، اقرأ ماذا قال البحار ابن ماجد عنه؟ لقد عرفت منطقتنا كبار المتصوفة الذين لم يتجرأ العارفون، على إغفال ذكرهم أمثال الشيخ عبدالواحد الرازقي الشحي، والشيخ سيف بن الهاملي، والشيخ سيف بن هلال المهيري.

لقد التقيت كل هؤلاء الكبار، وجالستهم، وأصغيت إليهم، وتلقيت دروساً على أيديهم، على الرغم من أنهم سبقوني باكثر من ثمانمئة سنة.

ثم سأل عن الفترة التي سيمكثونها في كيوي، فأخبره علي أنها قرابة الشهر، فاقترح عليه أن يقصد كمزار، ليزور قبر الشيخ محمد بن صالح المتفقي، وأن يقيم هناك أياما، لعل الشيخ محمد صالح يزوره في منامه !

ثم طلب منه أن يرافقه إلى البيت، وقال له ممازحاً : لا تخف على مؤخرتك في هذا الوقت المتأخر، فما عاد صغيري ينفع لغير تصريف السوائل من جسدي، وانفجر ضاحكاً.

****

أقنع علي الدكتور بدر ليجعله ضمن المجموعة التي ستقصد كمزار بحراً بهدف التخييم هناك لأيام تكفي للكشف على سكان هذه المدينة التي يقطنها قرابة ١٤٠٠ مواطناً عمانياً، وأسرة مصرية واحدة فقط، هي أسرة معلم وصلها قبل سنوات ليعمل فيها مدرساً في مدرستها الوحيدة، واستطابت له الإقامة بين سكانها.

أقلع الزورق الذي يحمل علياً وطبيبين آخرين أسترالي ونيوزلاندي صباحاً من شواطىء دبا، يقوده عماني يعتمر عمته المزركشة، دس ثوبه من الأمام تحت دكة سرواله الداخلي، وراح يشق بزورقه عباب الموج، فيتشبث عليّ بحافته الخشبية خشية أن يتطاير منه ويسقط في الماء، فقد كان الزورق يثب كأنه غزال فوق حواف الأموج، لا يثنيه عن سرعته إلا اهتزاز يد سائقه التي كانت تتناسق مع وثباته الرشيقة السريعة.

أخذت الريح تشتد، والموج يرتفع، فأعلن السائق أنه سيبطئ سرعته، وسيبحر في مسافة أكثر بعداً عن السواحل لأن الأمواج تتراطم وترتفع أكثر كلما اقتربت من الشواطىء، وراح يعرفه إلى القرى التي يمرون قبالتها، فهذه زاغي

التي يقبع فيها أغلى منتجع نقاهي في العالم سكس سنسز أوالحواس الست، ذلك المنتجع الذي يقصده كبار حكام العالم وأثريائه، ينشدون الابتعاد عن ازدحام قصور العالم وضجيجها، حيث الرمال الرقيقة الناعمة، والغرف الطينية القديمة ذات الطراز البدائي، والشمس التي تنتشل الأرواح الميتة من أجسادها، فتحممها بالضوء النضر، وتعيد إليها طفولتها التي كادت أن تنساها. والعزلة التي لا يمكن اختراقها لا سماء ولا براً ولا بحراً، وهو الفندق الذي ذكر في معرض ما ذكر من قصص سردت حول سوار جده المفقود، وقد قيل لهم أنه عبر في فندق الحواس الست.

ثم عبروا قبالة شاطئ قرية الحفة، فلفت انتباه علي سفينة ضخمة مقفلة، كانت تسير قرب الشاطئ، أثارت فضوله، فسأل السائق عنها، وأخبره أنها تحمل خزانات ؛ تزود القرى والبيوت الممتدة على الشواطيء بالمياه الصالحة للشرب.

خفت الرياح، فزاد السائق من سرعة الزورق الذي كان يحاذي الشواطيء الشرقية في سيره شمالاً، ليقابل بعد سير قرابة النصف ساعة قرية الحناء فلمى، ثم عبر بمحاذاة جزيرة لمى، وراح يلتف على شكل قوس كبير شرقاً ليعبر بين جزيرة البيض و جبال مسندم العمانية، ثم راح يتوغل في المياه حتى اختفى الشاطيء خلف الضباب وغبار الماء، وظل الزورق لساعة يسير بين زرقة المياه وزرقة السماء، يقفز، ويثب، ويهبط مرتطماً يصفع

وجه الأمواج التي تمتد تحته كلوح زجاج لا ينتهي امتداده، حتى لاحت لهم جزيرة مسندم عن بعد، استغرق الزورق قرابة عشرين دقيقة حتى وصلها، عبر ممراً بينها وبين الجبال، محذراً الركاب من شدة الأمواج التي ستواجههم، وبعد أن أعلمهم باضطراره إلى إبطاء سرعة الزورق إلى أقل ما يمكن، ليتمكن من عبور المسافة المتبقية التي ستستغرق منه قرابة الساعة أيضاً، وأوصاهم بالتشبث بحقائبهم، ثم ترك الزورق يتهادى كما لو أنه جمل يحمل هودجاً، فيترنح يميناً، ويميل يساراً، وتهبط مؤخرته، كلما ترتفع مقدمته، وعلي غارق في تذكر الحديث الذي بقي لساعات متأخرة من ليل أمس مع العود ، يخبره فيه عن رحلته مع الإيمان.

فبعد أن وصلا بيت القفل، وبعد أن استقر العود في مجلسه، تناولا الطعام الذي أُعِدَ لهما، توجه علي إلى العود بسؤال : هل بلغت ما بلغت عن طريق العمل أم عن طريق الايمان ؟

فرد العود : أتدري ما هو الإيمان يا ولدي؟! الإيمان هو أن تدني قشة لعصفورة، تبني عشها كل موسم إياب، هو أن تعلق على باب روحك وجها باسماَ يريح الداخلين إليها، هو أن تصعد كل يوم بمن تقابلهم من الناس إلى قمة الأمل دون أن تعيق واقعهم، هو أن تحب امرأة تريق دمك ناراَ ولا تبالي، هو أن تقرأ كل يوم وكأنك تفر من مجاهل الأحزان، هو أن تعشق الإنسان، وألا تعبد سواه، هو أن تضيء روحك بالحب قبل أن تضيء الشمس

صباحات الكون، هو أن تصفق لنفسك قبل أن يصفق لها الآخرون، هو أن تزرع سماءك بالمطر قبل أن تزرع حقولك بالحبوب، هو أن تقطف الثمار من أشجارك قبل أن تمتلك حديقة، هو أن تشتعل بدمك لتعبر من ثقوبك السوداء، هو أن يتحول جسدك إلى بخورة ترشح عرقاً، كلما توغلت فيك النيران، هو أن تحب وتحب وتحب إلى أن تعلّق آهاتك مصابيح في دروب أولئك الذين يعانون وحشة السفر.
الأمر يشبه أن تقف وحدك على حافة حلمك والريح تدفعك للسقوط، ولا شيء يسندك سوى إيمانك يا ولدي.

تجاوز يختٌ زورقَهم المتأرجح اضطراباً، كان يقل نساءً، ورجالاً، أخبرهم السائق، أنه تابع لوزارة التربية، مهمته نقل المعلمين والمعلمات من خصب إلى كمزار حيث يعملون في مدرستها الوحيدة .

" يضيق الوطن إذا ما غادرناه ثم عدنا إليه " حضرت هذه الجملة إلى ذاكرة علي، وقد أطلت عليهم كمزار من بعيد، فنسي أنه فوق الزورق الغزال، ودخل في حالة من الدروشة والانتشاء الروحي، فالشمس أضعف من أن تنتصر على الظلال في حواف كمزار، وانعكاسات الألوان وإشعاعاتها فوق مياه الشاطىء جعلته يشعر كما لو أنه في واحد من تلك الأسواق الشعبية، تلك التي تتقد الألوان فيه لدرجة الاشتعال، وتغدو تحت أضواء المصابيح غير قابلة للمساس بها، وعلى الشاطئ بضعة زوارق حديدية، شكل تدرج

ألوانها بين اللمعان والدكانة منظراً، تعجز العين عن التلهي عنه، ليمتد الرمل بعدها ذهبياً فضياً ماسياً تحت أكف أقدام صغيرة لأطفال بدون سراويل داخلية، يتراكضون خلف بعضهم البعض، يتراشقون بكمشات من الرمل المبلل، يغطسون في المياه ليغتسلوا، يرفس بعضهم صفحة المياه بكف إحدى قدميه، ليتطاير رذاذه، فيلمع في أعين القادمين عن بعد، كالشرر المتطاير من نار عبثت في جوفها نسمة هواء بارد.

ردد علي جملة حفظها من فيلم شاهده في استراليا، رددها بصوت مرتفع، ثم ترجمها إلى الإنجليزية، فهتف الطبيب النيوزيلاندي : Room، هز علي رأسه بالموافقة، وقال : نعم إنها من فيلم غرفة.

توقف الزورق، ورمي السائق الحبل للأطفال الذين يلعبون، فقفز أحدهم في الهواء ليلتقط الحبل، وسقط على بطنه في الماء، تعالى ضحك أصحابه، استقر الزورق، بدأ الأطفال سحبه من الماء، حتى رست مقدمته فوق الرمال خارج المياه، قفز صاحبه منه، وقام بلف الحبل حول أنبوب معدني ينبت من أرض الشاطيء على بعد أمتار، وبدأ الركاب برمي الحقائب إليه، فيلتقطها ويناولها بدوره إلى الأطفال الذين كانوا يضعونها فوق الرصيف الحجري، رصيف بدا لون حجارته كزجاج رمادي فقد بريقه تحت سطوع ضوء الشمس، كان علي يتأمل الجدران الصخرية التي تحاصر كمزار من ثلاث جهات بارتفاع عشرات الأمتار، جدران خلفت فيها الرياح المحملة

بالأمطار ومياه البحر وأملاحه ورماله ما تعجز عن فعله يد أعظم المبدعين وأقدرهم على التشكيل، همس دون وعي : سبحان الله، وظل يكررها عشرات المرات، وراح الطبيب الأسترالي يقفز، ويصيح : الله، الله.. فيما انشغل النيوزيلاندي بالتقاط صور بكاميرا جواله الأيفون.

وقف الصغار من حولهم، يمدون أكفاً صغيرة طلباً للمال أو أي شيء آخر يصلح لأن يضعه القادمون في أكفهم المحرومة كحال غالبية أطفال المدن الساحلية النائية، تلك التي تعتاش على إنفاقات الوافدين إليها وعطاياهم، غير أن الطبيبين الأجنبيين لم يفهما المقصود، فقد ظنا أن الصغار يردون مصافحة، فمدا كفيهما للسلام، يبتسمان للصغار الذين تعالى ضحكهم، وأخذوا يرطنون بالكمزارية: لغة قبيلة كُمزار بضم الكاف، ذات الأصل الشحي، ذلك الشعب الذي يسكن رؤوس الجبال منذ أن قدموا من اليمن بعد انهيار السد.

ناولهم سائق الزورق بعض القطع النقدية، فقلده الطبيبان الغريبان، ثم علي. حمل الصغار ما يستطيعون حمله من حقائب، ومشوا أمامهم إلي حيث كان ينتظرهم رجل كمزاري، وقف بمئزر يلتف حول قميصه الداخلي عند الخصر، يتدلى فوق ركبتيه، كاشفاً عن ساقين نحيلتين سمراوين، تتغطيان بشعر طال وتجعد فوقهما، أخذ يرحب بهم بالعربية، ثم بالكمزارية، فالبرتغالية، الأمر الذي أثار دهشة الجميع باستثناء سائق الزورق، ذلك لأنه يعلم عادات أبناء

عمومته الكمزاريين، واطلاع على كثير من تفاصيل حياتهم هنا، فالكمزاريون فئة من عشائر الشحوح.

وقف الرجل الكمزاري، يشرح للقادمين ما يحفظه عن ظهر قلب من تاريخ قريته التي يصفها بالمدينة ذلك لأنه يعتز بها كثيراً، ويستند برأيه إلى تاريخها الذي يعود إلى ما قبل الانفصالات التي أحدثتها القشرة الأرضية، يوم كانت كمزار وفقا لنظريته تلتصق بفارس، وشرح كيف يُقسَم اسمها إلى مقطعين صوتيين : كَمْ زار، أي أنها كم استقبلت من القادمين عبر التاريخ، فقد عرفت البوكيرك البرتغالي وهو الجنرال البحري ألفونسو دي ألبوكيرك، الذي كان يحمل لقب فيدالغو، والذي يعني أنه من عرق نبيل، وقد عرف من مآثره أنه حاول إغلاق كافة المعابر البحرية التي تدخل إلى المحيط الهندي، ليحوله إلى بحيرة مغلقة تحت أمرة البرتغاليين، فيعيق بذلك تقدم العثمانيين الذين كانوا أكبر منافسين لهم، يريد من وراء ذلك السيطرة على تجارة التوابل التي كانت طوال قرون حكراً على التجار العرب والمسلمين قرابة ١٥٠٧.

وراح يخبرهم عن أصول لغة قومه، إذ إنها وفقا لاعتقاده ذات أصول هندو أوروبية، تكونت من الأتشومية اللغة الأم، تمتزج بها الهندية والفارسية والعربية والبرتغالية والبوشتية والانكليزية بالإضافة إلى التركية، وهي اللغة الوحيدة غير السامية والمحكية غير المكتوبة في شبه جزيرة العرب.

يقصد سكان كمزار ولاية خصب صيفاً، ليعود في بقية أيام السنة إلى بيوتهم التي بنيت متقابلة على جنبات ممرات ضيقة، نظراً لضيق موقع المدينة الجغرافي المنحسر بين ثلاثة حواف صخرية شاهقة، لا تسمح لها بالتمدد الأفقي.

انطلق الرجل الكمزاري يصعد أمام اللاحقين به ممرات ضيقة متعرجة غير معبدة، دون أن يتوقف عن الثرثرة التي كانت تبعث الراحة في نفسي الطبيبين الغريبين، فيخبرهم أن مدينته لاتتسع للشوارع التي تسمح بعبور السيارات، وبالتالي فهي محرومة من كثير من وسائل النقل البري كالسيارات والدراجات النارية أو الجرارات، ثم هون عليهم الأمر بقوله أنهم لن يحتاجوا إلى ذلك نظراً لضيق المدينة، وإن احتاجوا وسيلة نقل؛ يمكنهم استخدام دراجته الهوائية، ليركبوها قرب الشاطئ فقط، لكنه حتماً لن يسمح لهم بركوبها في الأزقة والممرات الداخلية غير المعبدة، لأنها تحوي كثيراً من الحجارة الحادة وشظايا الزجاج المكسر والمسامير التي حتما ستمزق عجلاتها، وهم ليس لديهم في هذه المدينة من يقوم باصلاحها، الأمر الذي قد يضطره لإرسالها إلى خصب، وهذا سيستغرق أياماً، وسيستنفذ منه مالاَ للسفر والإقامة والطعام وأجرة تصليحها وهدايا العودة.

وصل الجميع مدخل المقر الوحيد لوزارة الصحة العمانية في كمزار، كان الباب مفتوحاً، تقف عنده فتاة ترتدي المعطف الطبي الأبيض، فوق سروال

أزرق، تنتعل نعالاً مطاطياً أزرق أيضاً، غطت رأسها بحجاب داكن الزرقة، سمراء تميل إلى البدانة، ترتفع شفتها العليا قليلاً كاشفة عن أسنان عريضة من الأمام، تبادلت مع الرجل الكمزاري عشرات الكلمات غير المفهومة باللغة المحلية، ثم رحبت بالضيوف باللغة العربية ثم بالإنكليزية، تناولت الحقيبة من يد الطبيب الأسترالي، وركنتها في زاوية عن يسارها، ثم عادت.

تمكن علي بعد أيام من عمله إلى جانب الطبيبين الغريبين من الكشف على سكان المدينة الذين كان آخرهم سبعة عجائز من الرجال، وثلاث من النساء، كانت وجوههن مغطاة ببراقيع براقة متفاوتة الألوان، وقد غطت رسوم الحناء أكفهن، وأكف أقدامهن اللاتي لم توارِ غير جلدٍ لا يفصله عن العظام فاصل، أقدامٌ استُنزِفت كل قواها في ممرات لا تتسع لعابرين متقابلين، عبرت السنين جوعاً وتعباً وموتاً مالحاً قديماً قدم كمزار.

تأملته أحداهن التي كانت تضع برقعاً أصفر اللون طويلاً، ثم قالت :

– يبدو أنك فطمت قبل أوانك بكثير !

فتبسم علي وسألها :

– كيف توصلت إلى تلك النتيجة ؟

فأخبرته أن الحزن الذي يبدو في عينيه يفضحه، ثم راحت تخبره كيف أنهن في كمزار إذا أردن أن يفطمن رضيعاً عن صدر أمه، قمن بطلي ثديها

بمزيج من الرماد المجبول بمسحوق الحنظل المطحون، ليصبح لونه أسود، فيتقشب ويتشقق، ليغدو منظره مقززاً، فيعافه الرضيع مُكرهاً.

علق علي : وماذا يتغير؟ فالأم هي الأم، والثدي هو الثدي، وإن هي فطمت رضيعها عن حليبها، فهل تستطيع أن تفطم نفسها عن حبه وعن حنانها وخوفها عليه؟

رفعت العجوز البرقع بإصبعيها، مسحت التعرق الذي تكثف تحته، ثم أشارت له بالجلوس إلى جانبها، وقالت له : إن لي من الفراسة ما يجعلني أخمن أنك ما أتيت إلى كمزار لأجل الكشف على صحتنا فقط! ولعلك جئت لأجل أمر أعظم، فما هو!

أدخل علي عشريه في رأسه، وراح يتلفت يميناً ويساراَ، لِما تبدى له من سكان رؤوس الجبال الذين لهم من الفراسة ويقظة الروح ما يحمل المرء على الذهول .

جلس بجانبها، وقال لها : لن أخفي عنك شيئاَ، أتيت لأجل أمرين، الأول، فقاطعته، وقالت له :

– ستجد قبره بجانب بئر المياه، ولا تنسى أن تلقي التحية والسلام عليه عندما تقف قبالة القبر، لأنك ستكون واقفا عند أسفل قدميه، ورأسه أمام وجهك على بعد ذراعين.

صمت علي فترة من الوقت، وكاد يعزف عن الكلام، غير أنها عادت وسألته، والثاني ؟!

فقال له : أن كنت تعرفين الأول؛ فلم لا تخبرينني أنت عن الثاني ؟

فردت عليه : يا ولدي، ليس للأمر علاقة بالتكهن، إذ لم يأت أحد إلى بلادنا دون أن يزور قبر الشيخ محمد صالح، فهو رجل مبارك ومقصود، وهناك الكثير من الذين يحضرون أبناءهم الذين يعانون من مس، أو من مرض ما، لينزلوهم في البئر التي جفت، ويتركوهم يبيتون فيها؛ حتى شروق الشمس، ليخرجوا بعدها وقد شفيوا تماماً.

فاستوقفها علي بسؤال : هل تعتقدين أنه لم يكن من داع لأن نأتيكم زائرين؟!

وردت العجوز : هل تعلم أن كبار السن في كمزار، لا يزورون هذا المركز الصحي، وإنما يأتي إليه فقط صغار السن والمعلم المصري وأبناء وزوجته ؟! فنحن لسنا نحتاج أكثر من زيارة ضريح الشيخ المتفقي. والآن حدثني عن مرادك الثاني..

فقال علي : سأطلب من أحدهم أن يصطحبني إلى بيتك بعد أن أنهي زيارتي إلى ضريح الشيخ المتفقي لأخبرك بكل شيء !

فقالت : على بركة الله ، ثم غادرت المركز ، وقد طلبت وبالكمزارية من المرأتين اللتين كانتا برفقتها أن تتبعاها.

كان الوقت قد شارف على الغروب عندما خرج علي برفقة الرجل الكمزاري؛ ليزور جار البئر الذي سمع عنه الكثير. سار الرجل أمامه، ولحق به علي يطرح عليه الأسئلة، والرجل يجيب، وإذا ما لمحا عابراً قدم من الجهة المقابلة للممر، تراجعا سامحين له بالعبور..

قال الكمزاري لعلي مستنكراً صعوبة الحياة في مدينتهم التي يعشقها: أتفهم معنى أن يعيش المرء في بيئة صخرية، لا يوجد في أنحائها بتاتاً أية تربة تصلح للزراعة ؟! أتعي معنى أن تكون أعظم الهدايا التي نتلقاها في مدينتي هي كيس مليء بالتربة التي يحضرها لنا زوارنا من الأقارب، أو العائدين من وظائفهم في ولايات خارجية كخصب، ودبا وغيرها ؟ تخيل كم هو قاس أن يكون كيلوغرام من التراب أغلى من كيلوغرام من الذهب في مدينتي، ومع ذلك يرفض أهلنا التخلي عن وطنهم هذا المحاصر بالماء والصخور، ليظلوا إلى جوار شيخهم المبارك محمد صالح المتفقي !

عبرا أثناء سيرهما ممراً ضيقاً، يفصل بينه وبين الشاطيء صف من البيوت والحوانيت الصغيرة التي تكاد تكون فارغة لقلة ما فيها من أغراض وأصناف، نبه الكمزاري علياً إلى المقبرة التي سورت ببعض العصي والأسلاك المتشابكة، كانت تضم تسعة قبور بالتحديد، وعلى الرغم من أنها تبدو قبوراً دوارس، غير أن علياً سأله : أوتكفي هذه المقبرة لكل القرية؟

فعلق الكمزاري ساخراً، ألم أقل لك منذ قليل أن أعظم هدايانا هي كيس من التراب ؟! منذ أكثر من قرن ما عدنا ندفن في هذه المقبرة، لأنها أتخمت بالموتى، وما عادت تتسع لأي راحل جديد.

فسأله علي: وأين تدفنون موتاكم؟

استدار الكمزاري ليقابل علياً، وقال له : هذه كوارث غياب التربة وندرتها، لا تستغرب إن قلت لك أن معظم أسوار هذه البيوت التي تراها فيها مقابر أصحابها، يقوم الكثيرون من أهلنا بدفن موتاهم في هذه الجدران أو خلفها، ثم يطلونها بالاسمنت والحصى !

أحس علي بالصعقة عندما سمع ذلك من فم الرجل الكمزاري، فآخر ما كان يتوقعه، أن تكون البيوت قبور ذويها ! ثم سأل مستنكراً :

– وكيف تحتملون العيش داخل بيوت، امتلأت جدرانها بالجثث ؟

– لقد ورثنا عن أجدادنا اعتقادات كثيرة منها أن من ندفنهم في جدران بيوتنا وأسوارها، يتولون حمايتنا وحماية أهل البيت طوال حياتهم، لذلك نحن لا نبيع الدور، فلا أثمان للقبور ومن فيها، وقد تجد بيوتاً نتوارثها عن أربعين جيل، أو أكثر أو أقل.

وهناك من يضع إلى جانب جثث الموتى داخل الكفن حجارة ثقيلة، ثم يحملونها في زوارقهم إلى عمق البحر، ليلقوها هناك، قناعة منهم بأنها ستعود إليهم عبر الأسماك التي يصطادونها، ليأكلوها، فتستقر في أجسادهم.

وهناك من يبقونها أياماً، حتى يتمكنوا من حفر قبر لها في تلك الجدران التي تحيط بالمدينة، ثم يدفنوها فيها، وهناك من يحرص على نقلها بواسطة زوارق عبر البحر ليقوم بدفنها في ولاية خصب أو دبا، بعد أن يرافقها الرجال من أهل المدينة، لتظل النسوة تنتظر عند الشاطىء باكية ملوحة بمناديلها السوداء لميت قد لا يزرن قبره طول حياتهن.

جلس علي القرفصاء وسط الممر الذي كانا يعبرانه، وقد أمسك رأسه بكفيه، كما لو أنه يجنب نفسه نوبة تقيوء حادة، فأي فرق بين حيهم الصفيحي الذي تكاد بيوته تُدفَن تحت جبل النفايات الذي يهاجم أهله يوماً بعد يوم، وبين هذه المدينة التي لا يملك الميت فيها قبراً، تزوره البواكي من وقت لآخر.

اقترب منه الكمزاري، يستفسر عما أصابه، فسأله علي من جلوسه، إن كانت قد شهدت مدينتهم قصة حب ما.

لينطلق الكمزاري في ثرثرته غير مبالٍ : حُكي لي أن أحد أعمامنا الأجداد أحب فتاة، غير أن مرضاً أماته قبل أن يتزوجها، فحملوا جثته بعيداً في البحر، كان الطقس شتاء، قذفوا به في جوف الماء، ثم جذفوا عائدين، تاركين الجثة تغوص عميقاً في البحر، لم تحتمل الفتاة فكرة أن تعيش بلا

قبر تبكي عنده حبيبها، فخرجت في صباح يوم عاصف دون أن تخبر أحداً بما تنوي فعله، كانت قد تجملت، وحنت يديها وقدميها، ولبست زيها العماني التقليدي، ثم ركبت زورقاً خشبياً قديماً، وراحت تجذف قاصدة المكان الذي ألقيت فيه جثة حبيبها، ويحكى أنها كانت قد حملت معها حبلاً وحجراً ثقيلاً.

هناك، وبعد أن وصلت إلي حيث تعتقد أنه المكان الذي يقبع فيه حبيبها تحت الماء، جلست فوق أرض الزورق، وفتحت ساقيها، ثم راحت تُدخِلُ الحجر تحت ثوبها الطويل، حتى صار بامكانها أن تربط الثوب من الأسفل.

لفت الحبل فوق الثوب وحول ساقيها، وأخذت تزحف باتجاه حافة الزورق، تشد الحجر بقدميها وكفيها، حتى أحست أن الزورق بدأ يميل إلى الجهة المثقلة بها، ثم بدأت تأرجحه، حتى فقد توازنه، وسقط في الماء، تاركة الزورق يصارع الريح والفراغ أياماً.

أحس علي برغبة عارمة في البكاء، أنقذته منها ثرثرة الرجل الكمزاري، لذا نهض، يمشي خلفه، تاركاً مخيلته تتساءل إن كان بو دريا يبتلع جثث الموتي المقذوف بها إليه، أم أنه يفضل أن يصطاد طرائده بنفسه.

وصلا إلى البئر، فوقف الكمزاري، وشد علياً من ساعده، يوقفه بجانبه أمام الضريح، وراح يسلم على الشيخ محمد صالح المفتقي، ويقرأ له الفاتحة، ثم راح يتكلم إليه بصوت مرتفع، ويقول : يا مولانا، لقد أتاك ضيف من بعيد، فبحق ربك لا ترد له طلباً، ثم استأذنه، وابتعد مخلياً المكان لعلي.

جلس علي القرفصاء، فتح كفيه أمامه يقرأ الفاتحة تجويداً للشيخ، وبدون قصد منه، أحس أن لسانه ينطلق، ليعجز عن ردعه عن الكلام : تلك التي كانت تجمع البَرَدَ بكفيها، وتملأ به صفيحة السمن التي غسلتها سبع مرات بالأمل والحب، تلك التي كانت تمسح أعيننا بالماء الدافىء، وتغسل خدودنا بالقبل، تلك التي كانت تختصني بكثير من الرحمة، وتودعني عند بوابة الصباح، وقد رشت على عنقي رذاذ أنفاسه ، اتراك ستجيبني إن سألتك عنها إن كانت بخير، وهل بقي شيء من قلبها الذي كان يحب، أم أن الحب خاصية من خصائض أبناء هذي الحياة فقط ؟! أحتاج بعض الهواء وكل الحب كل الحب يا مولاي، فماذا لديك لتعطيني؟

نحن يا مولاي نصنع تماثيل لأناس لا نريد لهم أن يعودوا الى الحياة، لذلك نحجر عليهم في تلك التماثيل التي نثبتها في مسامير فوق منصاتها الضخمة، وأنا عالق يا سيدي بين جسد حي يتنقل فوق الأرض من مكان إلى أخر، وبين جسد نائم تحت التراب في جثة محاصرة داخل قبر في الصحراء.

ثم أغمض عينيه، وأطلق لنفسه العنان وهو يقول : الحب هو فرصتي المستعادة للإنجاز، لكني خائف، فلا شيء أفضل من الموت يمكن أن يمنعني من الوقوع في الحب مرة أخرى، فهل أموت أم أحب يا سيدي ؟

وأحس علي كما لوأن شيئا ما في القبر يتحرك، كما لو أن صوتاً يهمس في روحه : أنت من قوم لا يعرفون انهم يرمون بالكثير لاجل القليل ! الى متى ستظل تفر من هذا وذاك؟! إذا فقدت ذاتك في الطريق واكملت المسير فمن الذي سيصل ؟!

أفاق علي من غفوته مذعوراً، لا يصدق ما سمعه، وراح يتلفت حوله بحثاً عن مصدر الصوت، ثم بحث عن الكمزاري، فوجده هناك، يستند إلى زاوية بيت، وقد كتف ذراعيه، وراح يهز رأسه، ويبتسم.

فأدرك علي أن الكمزاري، عرف أن الاتصال قد حصل بين المبارك في الضريح وبين الزائر الغريب، نهض من جلوسه، وأعاد قراءة الفاتحة، واستأذن الضريح ثم مشى بعيداً، يقصد الكمزاري الذي ينتظره.

****

إدخار الدم

" فكرة المؤامرة تنمو في بيئات الجهل والتخلف فالرؤوس الفارغة لا يملؤها الا الوهم، لإن اليد التي تمسك بريشة العود أقتل من اليد التي تمسك بالسلاح"

كان علي في طريقه إلى دار الكمزارية العجوز، عندما اطلع على مضمون رسالة تلقاها من هاتف صديقه الممرض اللبناني جو، بعد أن وصل قمة حارم، لاستتمام أعمال فريق البعثة هناك، وقد حوى مضمونها ملاحظات تطمئنه عن إيزا، وتخبره بمشقة الطريق التي كبدتهم الكثير من الجهد والطاقة والتعرق والمياه، حتى بلغوا مكاناً مستوياً، فيه قرية صغير تحوي بضعةً من بيوت القفل، أنزلوا الأغراض التي يحملونها عن ظهورهم، وجلس بعضهم أرضاَ فيما تمدد البعض الآخر، يلتقطون أنفاسهم بصعوبة، لتُضَاعِفَ سرعة الرياح التي تجول في المكان تعبهم، وقد أخذ هبوط الظلام فوق حارم يكثف نأيهم وغربتهم، فقد آوى كل الناس إلى بيوتهم، وهو لا يعرف من أين سيبدأ، ويخشى أن يفقد إشارة النت بين لحظة وأخرى بسب الارتفاع والبعد الذي بلغوه عن أعمدة البث التي تغطي المنطقة.

رد عليه علي : شيئان لا يشيخان فينا يا صديقي الموسيقا والحب ! وما عليك إلا أن تستل عودك وتبدأ العزف من على ارتفاعك، لأنك أقرب إلى أهل السماء منا، نحن الذين نقبع في حفرة صخيرة واسعة على مستوى سطح البحر، تسمى كمزار، غير أنها حقاً شيء من الخيال والدهشة.

ثم أخبره أنه في طريقه إلى مسنة مدهشة، قد تكشف له من بصيرتها عن شيء ينفعه، وتمنى لو أنه معهم في هذه المدينة الساحرة التي لا تشبه أي مكان في العالم أو الخيال، ثم أغلق هاتفه وأكمل المسير.

كان جو يبحث في أغراضه المركونة في زاوية بيت القفل الذي أدخلوهم إليه، بعد أن أيقظ الجنود المرافقون صاحبه، عندما سمع إشعار رسالة ترده إلى هاتفه.

جلس ، وفي يده إنجيله الذي يرافقه أينما ذهب، بناء على وصية أمه التي عليه ألا ينساها، أمه التي كانت تقف كل غروب على شرفة المنزل، تصلي لعل الحرب تتوقف، فتتأمل في قافلة الجِمال القادمة من بعيد، تعبر صحراء المتوسط المالحة، لتسأل نفسها ترى : متى سيطل الجمل الذي يحملك فوق سنامه يا جو ؟ ثم تمسح بمنديلها اليدوي الأبيض دمعاً ما ملت أمهات هذا الشرق الموجوع سحَّهُ.

تقلا هو اسم تلك المرأة البويهيمية التي حملت سلاح الحب، وعبرت به، وقاتلت دفاعاً عن وطنها في الزمن الذي بال فيه كل اللبنانيين على أنفسهم،

وانخرطوا منغمسين في حربهم الأهلية التي سعرها أصحاب المصالح النتنة الخرائية في لبنان، وقد أتوا بصناديقهم المالية من الشرق والغرب، تبعتها بعد ذلك صناديق سلاح تم استبدالها بما أرسل إلى أرباب الخوف والرعب والموت من دولارات.

كانت تخرج كل يوم، وقد حملت إلى كتفها حقيبة ، يظنها الرائي مليئة بكل ما يحتاجه اليائس في طريقه إلى المنافي البعيدة، غير أنها كانت تضع فيها الحُب الأمومي الإنساني على شكل سندويتشات وحلوى تصنعها في بيتها وملابس صوف تحيكها بكفيها، وأخرى قديمة، يعز عليها تلْفُها، فتبحث عمن يحتاجها في زوايا الحرمان داخل الأحياء القريبة.

كانت تنزل من بيتها كل ظهيرة، بعد أن يشتد القتال، ويسكت أزيز الرصاص كل ناطق أطل بصوته من أي مكان تطاله طلقة، تسير في الشوارع بلا حذر، وقد بات الكل يعرفها، فيمازحها المقاتلون من خلف متاريسهم، ليسأل أحدهم :

– ها أم جورج شو الترويقة اليوم؟!

ويناديها آخر :

– بعد النهار بأوله ، تعي اشربي قهوة معنا .

فتمر بالأول لتتاوله سندويتشات تكفي لمن هم في ذلك الموقع، ثم تصلّب علي الحاضرين، وتسأل الله أن يلطف بهم، دون أن تنسى وصيتها اليومية: " يامي، بلكي فيكن تخوفوهم بالقواص فوق روسهم، من غير ما تقتلوهم، يامي، ماتنسوا إلهم أمهات ناطرة، متل أمهاتكم"

فيطرق بعض العناصر حزناً، ويتنهد البعض الآخر حرقة، فأبشع الحروب، حرب لست أنت مسؤول عن إشعالها، ولا أنت تملك سبيلا لإيقافها، حتى يوقظ الجميع صوت قذيفة سقطت على مقربة، فتستعجلها للمغادرة، والمضي في طريقها، لتبحث تحت الجسور، وفي الزوايا التي تفي لاختباء المقطوعين من وطن، أولئك الذين ذابت أسرهم في المجهول أو الموت أو خلف خطوط التماس، فتمنحهم ما حملت في حقيبتها من ملابس وأطعمة وأشياء عز عليها تلفها، ثم تقفل عائدة إلى بيتها، لتمسك بكبة خيطان الصوف، والصنارة، وقد أقامت خلف نظارتها الواسعة العدسات، وراحت تحيك شالا، أو قبعة، أو كنزة، أو قفاز توزعها تباعاً كلما فرغت منها.

كان علي يتذكر كل ما أخبره جورج عن والدته، حين رد عليه برسالة قال فيها : " أقرأ بإنجيل أمي تقلا فوق قمة حارم ".

فأجمل النساء امرأة عرفت؛ كيف تعقد قلبها ليرقص فرحاً بقدوم الهوى، وأشهى ما في الأنوثة طعم الأمومة كلما داهمك البكاء، إذ يحتاج الواحد منا امرأة تلقي برأسها على فخذه، ليداعب شعرها ويشاركها ما تبقى في حنجرته

من غناء، لأن أجمل الأوطان امراة، يتسع حضنها لهمومك وظنونك واحلامك والجنون.

" فاجعل من عينيك زوارق تقل العاشقين فيها الى الحب " كانت هذه العبارة آخر رسالة، بعث بها علي إلى جو، الساكن بين الوحدة والصلاة في قمة، ما خال سكانها عبر التاريخ، أن إنجيلاً سيرتفع فيها حباً إلى السماء.

طرق الباب، ووقف ينتظر صوتاً يأذن له بالدخول أو يداً تفتح الباب ليفعل. أطلت العجوز من خلف الباب، وقد استندت إليه بيد وإلى عارضه بالأخرى، وراحت تنظر في عيني علي، ثم طلبت من الكمزاري أن يبتعد قليلاً عن المكان، ثم قالت له :

– بعض الناس يفهمون أن ما يقدمونه من خدمة، يفرض عليهم مقابل لتلك الخدمة وهذا خطأ كبير .. فالعارفون روح من الله مهمتهم المنح بلا أي مقابل، ومهما شاخت الشجرة المثمرة ومهما عجزت تظل تثمر ولو ثمرة واحدة. أذكر أني رأيت في طفولتي يوماً شجرة تين مقطوعة قد نضجت ثمارها على الرغم أنها ظلت ملقاة لأيام.

ثم أطلت برأسها، لتحدد مكان وقوف الكمزاري، وسألت علياً :

– ألم يلفت انتباهك، كيف أن قريتنا، لا شجرة فيها على الإطلاق ؟

فرد علي : من الطبيعي مع هكذا طبيعة صخرية، ولقربها من البحر، أن تكون جرداء!

هزت العجوز رأسها، وظلت تنظر إلى الأسفل لفترة من الوقت، ثم قالت له بلغة مرمزة :

– الذي أتيت تبحث عنه عبر البحر، وقريباً جداً قد ترتفع أنت عكس اتجاهك الذي تريد، فلا تتأخر في التحرك، لأن الإبطاء مصيدة الأثر، لكنك ستصل، إطمئن يا ولدي، ستتعب، لكنك ستصل !

أصغى علي إلى كلام المرأة، وقد تذكر فجأة تقلا والدة جورج، وهي تقول للمقاتلين : " أديش فيكن توفروا دم يامي، بتوفروا دموع ". غريبة هي العلاقة بين الدم والدمع ! ترى أيهما حل أولا في الروح البشرية ؟! ثم تذكر قاعدة ادخار الدم التي أخبره بها العود، إذ يدخر أهل القتيل في رؤوس الجبال دم المذبوح، مؤجلين الثأر، حتى أذا وقعت حادثة قتل جديدة في من لهم الدم، أخرجوا ملابس القتيل المدخر دمه، وطالبوا باسقاط الثأر بما لهم من دم مدخر.

سأل علي العجوز إن كانت تعلم شيئاً عن سوار جده، فهزت رأسها وقالت:

– تلك الدائرة الذي أتيت تبحث عنها، عبرت سماء قريتنا، كنا قد سمعنا عنها من شيخنا المتفقي إذ قال لنا : " إذ عبرت الدائرة البيضاء محمولة

على الأكف سماءكم، فانتظروا تغير الأحوال" لم نكن نعلم ماذا كان يقصد بذلك، بقينا جيلاً بعد جيل ننتظر ذلك الحدث، حتى أتى جنود من وراء البحر، ببراقع سوداء، أقاموا فينا ساعات، حملوا الدائرة البيضاء بخشوع ورحلوا.

ثم أطبقت الباب، وقد تركته في وقوفه، تتلاطم في رأسه التحليلات والتساؤلات والاحتمالات، حول ما تقصد.

قفل علي راجعاً إلى المركز الصحي من دون أن ينطق إلى الكمزاري بحرف، وكأن جناً دخل في دبره، بدأ يفصل بين عناصر تكوينه بتهويمات لا تطاق، فكيف يتسنى لأولئك الذين يدفنون أنفسهم أن يقيموا مراسم الدفن والتعزية بمفردهم، فهم الموتى وهم المعزون ؟! أولئك الذين شردتهم أوطانهم، يقضون أعمارهم على طرقات الأحلام دون أن يصلوا !

دخل علي المركز الصحي، تمدد في فراشه أرضاً، أغمض عينيه مفكراً في كلام العجوز الكمزارية؛ وقد غزته الكتابة، فاستل قلمه من داخل الدفتر الذي كان إلى جانب وسادة رأسه، وأخذ يكتب :

من حقنا أن نسوق آلامنا وأحزاننا وحبنا وافراحنا بطريقة؛ تجعل نزعة السيطرة فينا كبشر ولو عن بعد؛ تؤجل انفلات الأمور من بين أيدينا ولو فوق الورق، فالخلود أشد ما ينشده الإنسان بغض النظر عن السبل في تجاوز قيود الأمكنة والأزمنة التي توفر لِطِيننا وسائل الفناء والتفتت، وما

زَرْعُ دروب الحياة بالنسل إلا محاولة لبلوغ الخلود عبر تواتر الأسماء جيلاً بعد جيل، فما يشكله الموت من تهديد للمادة التي نتمثل بها وفيها كبشر، يجعل قضية الوعي أكثر من شائكة ومعقدة من حيث التماهي بين الخيال والماوراء والواقع المأمول والغد المنتظر.

وضع الدفتر والقلم جانباً، وراح يبحث عن تفسيرات لما واجهه مع العود أولاً، ثم مع العجوز الكمزارية ثانياً، ومع قبر الشيخ المتفقي ثالثأ. فكيف له أن يفهم ما صبُّوا عليه من إشارات، لم يكن ليستلم أياً منها لو لمْ يشترك في هذه الحملة، لا بل لو أنه ما لبس علياً تحت جلد نواف بتاتاً، فتمنى للحظات أن يكون العود شخصية غير حقيقة، وتمنى لو أنه يحلم في يقظة، أو أنه يعاني كوابيس سيستيقظ منها صباحاً، أو مرض ذاهن يرسل الصور إلى رأسه مشوشة، ثم تمنى أن يقول له أحد ما أنه في عالم غير حقيقي وصله بعصا سحرية، عالم مسكون بآلاف من السحرة الذين وفدوا إليه من كل الأرض هرباً من مطاردات اللعنات السوداء، ثم تمنى لو أن العجوز الكمزارية تعاني الألزهايمر.

حتى أحس أنه يريد الدخول في نوم عميق، نوم راكم الأحلام في رأسه بشكل لم يألفه من قبل، وقد كان من أسوأ عاداته كثرة الأحلام في الغفوة واليقظة، ليظل يحن إلى تلك الشخصيات التي التقاها في ما قرأ من كتب وروايات، فيحتسي مع هذه كوب ماء ساخن، ويفر من التي كانت تنتظر

لقاءه في ما يؤجله من كتابات، وتلك شخصية تتسبب له بفوبيا الخروج من المنزل دون قلم، ليس لأنه يكتب طوال الوقت، بل لأن القلم يمنحه طول الأقامة بين الذاكرة والورق.

إذ لا تقاس كل الأمور بميزان معارف المنطق، فكم من ظاهرة في الأرض، بدت لنا سخيفة، ولكنها تشكل عند شعوب وأقوام أخرى موروثاً انسانياً، خدمها مئات السنين.

فالإنسان أعمق من أن يدرك أعماقه، وأوسع من أن يقولب حركته، ولكل منا الحق في التغلب على ضعفه ونفسه وأهوائه ونزواته وأمراضه وجوعه وفقره بالطريقة التي تناسب كونه الذاتي، وأرقانا فهماً لنفسه هو الذي لا ينكر على الآخرين، ما يفعلون لأجل حياتهم وما بعدها. فالرقص الصوفي طريقة علاجية وأشهرها المولوية التي أسسها جلال الدين الرومي في قونيا قبل قرون، هي واحدة من الظواهر التي تثير استهجان البعض، ولا باس في استهجانهم، لكن ليس من حق هذا البعض أن يحاكمها، خاصة أنها خلاصة فنون عريقة من الرسم والموسيقا والرقص، فالحياة مخزون هائل من عذابات البشر، التي عبرتها الإنسانية لبلوغ التطور البديع الذي نحن في إحدى مراحله.

أفاق علي على قرع حاد لباب المركز، تلاه هرج ومرج، وما كاد يستقيم من نومه، حتى رأى أمامه مجموعة من الجنود، يشهر اثنان منها سلاحهما في

وجهه.. وبين محاول لاستيعاب ما يحصل وأخر غاف في كثير من التساؤلات التي خلفتها ساعات ما قبل النوم، تقدم منه اثنان، قام أحدهما بتقييد يديه خلف ظهره، فيما عبأ الآخر رأسه في كيس أسود، حجب عنه الرؤية، ليتوجه إليه صوت آخر بسؤال :

– هل أنت علي أم نواف ؟

فأحس بتاريخ من الهزائم يعبىء رئتيه، ليخنقه، ويكتم أنفاسه وصوته، فيما يلح السائل عليه بالسؤال، حتى أجاب باختناق أقسى من كل تلك الاختناقات التي يعاني منها أهله في ذلك المخيم الصفائحي، وسط دخان جبل نفايات أقامه مواطنون غير مزيفين، مواطنون لديهم من الأوراق ما يكفي ليثبتوا أنهم أصحاب حق فوق تلك الأرض وتحتها، وإن كان البعض قد أتى من بعيد ، ولم ينبت من خلايا أموات تحللت جيلاً بعد جيل على طول آلاف السنين، لتهبه جرة قلم من موظف تحت يد حاكم أكثر مما أفنى قومه وأهله خلال قرون في البحث عن سوار كلفهم ألف ألف رحلة وموت وبؤس وشتيمة وإهانة دون جدوى، ليحس وكأن كل الموتى الذين هم خلف الجدران في هذه المدينة ؛ قد أفاقوا لحضور محاكمته، وللوقوف عند حقيقة هذا الغريب الذي أتى يزعج غفوتهم الأبدية، لذلك أجاب بصوت مكتوم :

– أنا الاثنان معاً، أجل الاثنان معاً !

فاقتادته يد أمسكت بكتفه، ومشت به وسط فرقة أحس بضخامتها عبر وقع أقدام السائرين في الممرات التي كانوا يعبرونها، ليخمن أنهم قد بلغوا مربض الطائرة الطوافة التي جثت في فسحة محاذية لخزان المياه.

أركبوه الطائرة، ثم أغلقوا الأبواب، ليحس بعدها أنهم يرتفعون بطوافة راحت تمزق بمراوحها سكون الليل وهواءه البحري الذي ما ألف التمزيق، فتهير فوق صدره كثافات من الإحباطات والتخاويف والفشل والإدانات والمحاكمات التي تطارده دون تهم أو جرائم أكثر من كونه من ال بدون.

فتمنى لو أنه بقي في قلب كمزار، وقد أطبقت عليها جدرانها الصخرية الثلاثة معاً، ليرسل البحر بعدها أمواجه العاتية، فتجر مخلفات ذلك الانهيار بأحيائه وأمواته ومقدساته وملعوناته إلى جوف من التلاطمات والظلام والتيه، وتمنى لو أنه جثة تقبع داخل قبرها خلف واحد من تلك الجدران.

وأحس أن عليه أن يكسو جلده بألف هوية فوق هوية، ليصبح مواطناً شرعياً، فهويته البيولوجية وإن كانت من أبوين لا زال أحدهما على قيد الحياة لم تؤهله إلى هويته الاجتماعية؛ في بيئة تطالبه بالحفاظ على هويتها المحلية، والوطنية، والقومية، وهو الذي كرس حياته كلها، ليحمي فيها أقانيم، لا يعرف الجدوى منها كالعيب والحرام والتقسيمات القبلية وو..، وما أن اكتسى بها؛ حتى وجد نفسه محاطا بأردية جديدة عليه أن يحملها عبئا فوق أكتافه كحب الوطن ورموزه وعلمه وأرضه وحضارته والموت في سبيله إلى

أن فاجأته الحياة بأردية أخرى فضفاضة عليه أن يتتشح بها بشكل لا يشوه أناقتها كالقومية وما فيها من اعتزازات بالغت فيها كلغة، يعزف أكثر من ثلاثين بالمئة من أبنائها عن النطق بها و دين لا يستخدمه أخوانه إلا لتغذية صراعاتهم المميتة وتاريخ يُعظّم مافيه، لا يمت للواقع ولا للحقيقة بصلة، ثم تطل عليه الإنسانية، لتطالبه بكثير من الأمور التي لا طاقة له بها، ألأمر الذي فجر في أعماقه تساؤلات، ما كان ليبلغ غورها ولا أعماقها لولا هذا التيه القابع فيه منذ آلاف الرحلات التي سلكتها روحه، فكيف يمكن مطالبته بكل هذه الأمور الخاصة وفي الوقت نفسه؛ يقتله الإلحاح في كل لحظة ودقيقة وساعة ويوم، كي يعي خصوصية البيئة التي يقطنها من كافة النواحي، وهو فيها بين سجن المالوف و دهشة التغريب.

وأخذ يتذكر إيزا في واحد من لقاءاتهما القديمة، وقد قالت له : أنا لا اجيد الكتابة، ولا الرسم ولا العزف فسألها : أتجيدين الرقص ؟! فقالت: ليس كثيراً، فعلق: يكفي أنك تجيدين الأنوثة والجمال، فكل إبداع أمام ما تجيدين بعض تجارب لن تكتمل.

ثم تذكر والدته، وشعر بالغبطة لأنها لن تعاني آلام ما حل به، وراح يرى ماجد والجوهرة وصغيرهما رجاء وقد جلسوا غروباً صامتين، يلوكون هزائمهم التي لا تحصى. فما أفجع أن تستيقظ على لا شيء بعد كل تلك المحاولات المضنية للحصول على هوية.

وشعر بأنه أخ لكل من سقطت منه هويته في الزمان والمحاولة في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الداخل والخارج، ولكل من ركب المجهول فراراً من سوريا والعراق واليمن وليبيا ولبنان والسودان ومصر ومن الجوع والتخلي والعار والضيق واللاجدوى..

وتذكر رسالة ماجد عن الرقاش الذي صدر مخطوطه من دار ألكا في فرنسا بعنوان " سوق الملح "، وقد تنامى الطلب عليه بسرعة مدهشة، بعد أن نشر لامبير قصته في إحدى الصحف موضحاً كيف التقى الكاتب قبل مغادرته اليمن، مضمناً قصته خبر مقتله في زقاق من أزقة صنعاء، بعد أن اخترقت طلقة رأسه الحزينة، طلقة لن تبالي أيةُ جهة أمنية في العالم بقضية البحث عن مطلقها، ولا بأهمية ادخار دمه، في بلد سال الدم فيه أنهاراً بالمجان.

ثم راح يحاول التماسك من خلال تعزية نفسه باستذكار بنفسجة جبران خليل جبران الطموحة ، محاولاً تجاهل منظر أبيه وقد علم بما حصل لولده، وكيف سيعود كل مساء من رحلات بحثه غير المجدية عن صغيره الذي ابتلعته سجون الوطن..

ليراه قد دخل المخيم مهزوما تطارده المحن، فيقاومها بمزيد من الذل والتوسل، ثم يلاحقه إلى داخل الكوخ الصفيحي، ليراه خلف الباب علق ما يشبه السترة، وقد دس في جيوبها بعض قماش ليس إلا، ثم استدار مستنداً بظهره على باب هو أحوج منه بمن يسنده. فتح كفيه وأصابعه أمام عينيه، وراح يعلق

فوقها صوراً من الذاكرة، فكم غسلت هذه الأيدي من فنجان قهوة، وكأس شاي، وصحن طعام، وملعقة، وكم كنست غباراً عن صور لأثرياء، وكم مسحت مكتباً لغني، وكم رتبت في خزائن خشب الأبنوس من ملابس ما طالها منها إلا ملمسها الهفيف، وكم لمعت حذاء، عكس بريقه ملامح وجه خبأ خلفها مئات المواقف المهينة، وكم أغدق على الجلوس بابتسامات سترت رجاءات، أشاحوا بوجوههم عنها، حتى استفاق على دموع العفة، تنشج من وجع، لم ترأف السماء بالصبر الذي أمله لسنوات! ثم هبط من وقوفه على قدميه التي تعبت من السير في متاهات البحث عن سبيل، يخرجه من دروب خذلته، مد رجليه وجلس في مهبطه، وأمال بجذعه جهة اليمن، ثم أسند رأسه أسمال أحذية، وغط في نوم عميق، وقلبه يلهج بـ : " يأتي بها الله ، إن الله لطيف خبير " .

لبنان ٢٩-٣-٢٠٢٠

عمر سعيد

عمر سعيد

روائي لبناني ، يحمل ماجستير في الفنون المسرحية ،

صدر له :

١- لم تكن إيموزار لكنها كانت عن دار العودة

٢- ما عدت أنتظر الشتاء ، فلا أنت تأتين ولا المطر عن دار الفارابي

٣- سوق الملح .

facebook.com/omar0chebli

Email: zorba.chebli@gmail.com

Tel: +96276683831

رواية

سوق الملح

عمر سعيد

سوق الملح

" يأبى السلاح أن يصير زهرةً، ويسيرُ في الأرض مواسمَ موتٍ ، تقرضُ أسنانُه الصفراء الفرحَ والحبَ وباقي الصباحات الرقيقةَ، مخلفاً وراءه ليلاً لا يخلو من الأنين والفجيعةَ. فالسلاحُ يا عليِ إله يُكره الناس على عبادتِه، ويعدهم بحقول من النشوةَ والسيطرةَ.

تُرى ماذا سيقول آخر القاتلين عندما يعجز عن إيجاد ضحيةً يقتلها؟

يا عليِ بين السلاح وبين قلبي خصومةً لن تنتهي إلا بانتصار الحب، فعلى ما يبدو أن كل البشر - حتى دعاةَ السلام - يحبون الحرب،

عمر سعيد

Books

Sookalmil7